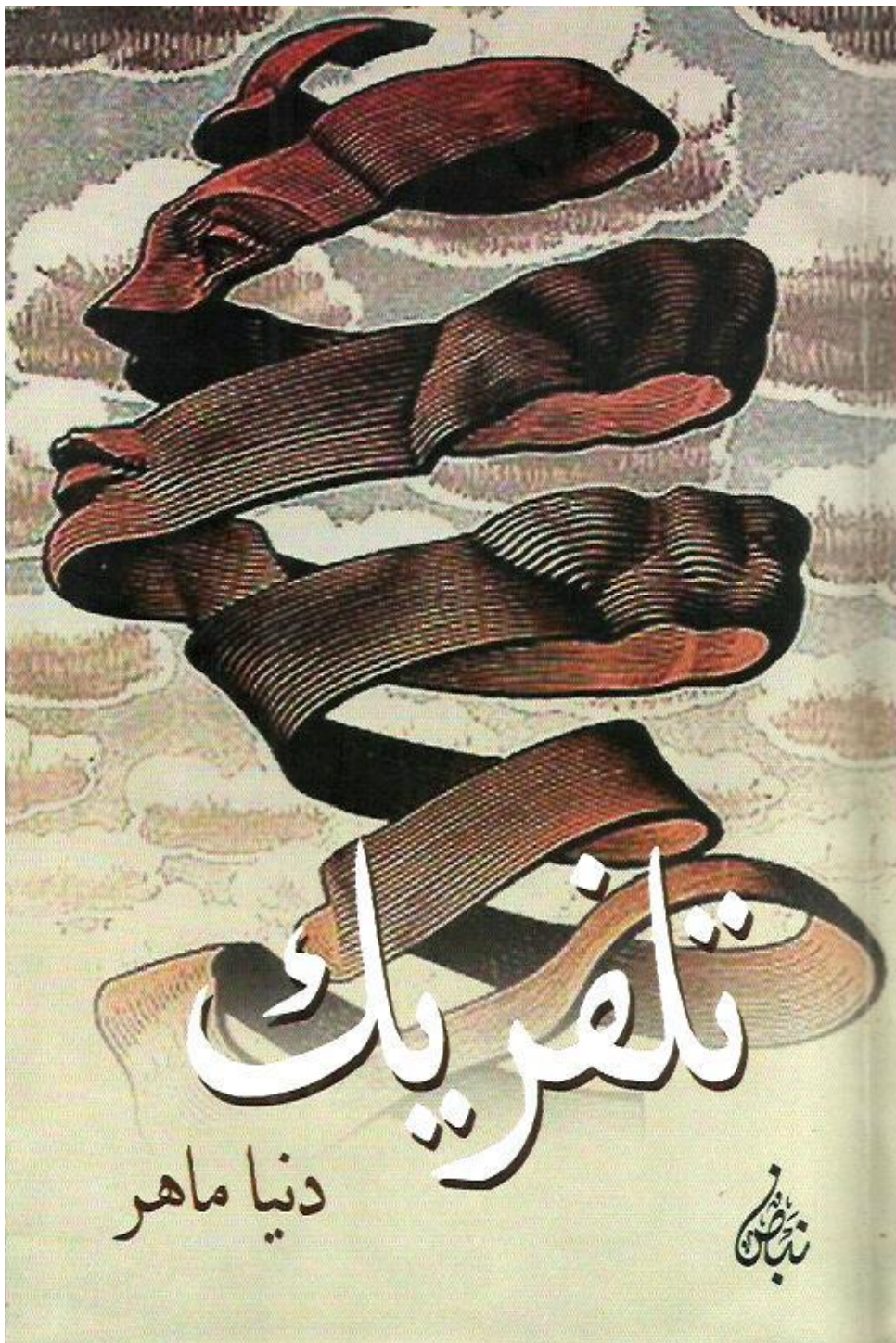
تلفريك
دنيا ماهر
نبض

تلفريك

تلفريك
رواية

دنيا ماهر

الطبعة الأولى: 2015
رقم الإيداع: 16323/ 2015
الترقيم الدولي: 6 – 0 – 85220 – 977 – 978

نبض للنشر والتوزيع
القاهرة، مصر
ت: **01121538945**
nabdeg.com
nabdedition@gmail.com
نبض للنشر والتوزيع لوجو الفيسبوك

BRITISH COUNCIL
تلقت هذه الرواية دعما من المعهد الثقافي البريطاني في صورة منحة تفرغ للكتابة.

المدير العام: صالح راشد

لوحة الغلاف للفنان الألماني Escher
التصميم الداخلي: عمرو عبد العزيز

© حقوق النشر محفوظة لنبض

تلفريك

رواية

دنيا ماهر

نبض للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من يفضلون البقاء مجهولين على أن يعرفوا بغير إيمانهم: هالة، مجدي وآخرين.

مولد الكذب

قبل أن يعرف الكتابة، نقش الجنس البشري على جدران الكهوف ما عجز عن فهمه أو تسخيره، ثم تأمل رسمه لأجيال لربما يفهم نفسه والعالم؛ لذا كانت رسوم الكهوف بسيطة وواضحة كأنها رسوم توضيحية منمقة، لم تكن مخايلة أو صعبة الفهم كلوحات إيشر(*) أو كهذه الرواية، لم يكن الإنسان قد تعلم الكذب أو الكتمان بعد. كان لايزال قريبا من الطبيعة، يتعامل معها مباشرة، وجها لوجه دون وسطاء، حتى ظهرت الكتابة وسيطا خبيثا يعسكر بين الإنسان والطبيعة ويعزله عما حوله.

ظهرت الكلمة المكتوبة للإنسان كما ظهرت الحية في النعيم، تزحف أمامه مرسومة وتتسع فتبتلع الواقع ذاته؛ يستسهل الإنسان الكلمة، يستسلم لها ويخرج من الجنة. الآن لم يعد مضطرا لمطاردة الصخور الزرقاء والشقاء بطحنها وعجنها ليلصقها مساحة زرقاء مذبذبة على الحائط، يكفيه الآن أن يكتب كلمة بحر، ليتخيل كل

(*) M.C.Escher رسام هولندي ألماني عرف بلوحاته التي تعرض حلولا معمارية مستحيلة وخادعة للبصر.

قارئ بحره الخاص، لا يُشترط حتى أن تعرف شكل البحر لتكتب رسم كلمته بلا أي خطأ.

أعطت الكتابة الإنسان القدرة على الكذب فصارت أداته لاختلاق أشياء ولمداراة أشياء، فالكتمان ولد توءما للتعقيد حين اخترع الإنسان الكتابة وتوقف عن التطلع حوله للاستلهام الطبيعة، التي بات لا يحتاجها كثيرا للتعبير عن نفسه. وجد الإنسان الكلمة ووجد معها التعقيد/ الفردية/ التتويه/ المناورة.

أحببت حكي الجدة لأنه أبسط من كل هذا التعقيد رغم امتلائه بالرموز. بصوتها تمركزت كل الأصوات، ففيه الهديل، الخرير، الهدير، الدبيب، الصفير، الطرق والنفير إيقاعات وألوان تعلو وتنخفض في ليالينا الخاوية. يعبر بي صوت الجدة/ الأم حدود الواقع، السحر والكلمة؛ آمنت بهذا الصوت وصدقت أنه صوت جدتي. يا لحماقتي ويا لجمال الأمان وإن كان كاذبا!

أكتب رواية لا أملكها، كاسمي وموقع ميلادي، لا أتحكم فيها ولا أحبها بالضرورة، لكنها أنا في كل أوراقي الرسمية. لا يهمني كيف ستصنف، لكني كتبتها وسط الطبيعة الأم التي تفضل أن لا ترينا كل شيء. لا أنوي الانضمام لنادي محترفي قواعد الرواية لذا أروي بلا قواعد، بلا تشويق وبلا حبكة، أصارحك من البداية عزيزي القارئ: لن تجد ما يحمسك لاستكمال تلك الرواية، بل أعترف أنها حكاية غير سلسة، مفككة وبلا تواريخ، مثلي تماما. أما بقية مؤلفي هذا الكتاب، فأترك لك عبء تقييمهم، احكم بنفسك وكما تشاء.

تلفريك حياتي

لجوئي إليه بعد خروجه من المعتقل كان بدافع الفضول أولا، والبحث عن الأمان ثانيا، لكني قابلت شخصا مرهقا لا يستطيع حتى تأمين مزاجه الخاص، تعلق بي وكأني قشة نجاته؛ فهمت وأنا أقرأ في كومة الورق الأولى أني المنقذة في تلك العلاقة. قلب البسيط المتحرر طيب القلب جعلني أشعر أنني سعيدة. أنظر إليه ينظر للاشيء، أنبهه للشاي فَيَراني. كسواح أو ولي من أولياء الله، يتنقل بفكره إلى عوالم أخرى تتجلى حين يكتب، تصبح روحه شبه مرئية تحارب تنانين وأفاعي فوق رأسه مباشرة. حين يختفي الطيف من فوق رأسه أعرف أنه يحضّر للسفر إلى مكان جديد. يشد شعره ويفرك جلده، يتململ بعصبية وهو يكتب كلاعب بلاي ستاشن مخبول قبل لحظات من هزيمته، جسده بين تقلص وانقباض حتى يعتدل فجأة ويتصلب ويبدأ في كتابة سريعة تتخللها ثوان من توقف ساه:

ـ بابا، أنا باكتب رواية.

صمت

ـ بابا؟

يضحك:

ـ ما انتِ بدأتيها ببابا. عايزة الحق ولا ابن عمه؟

صمت

ـ مش فاهمة. طيب إقرا الأول وبعدين نقرر هتجاملني ولّا لأ، وبعدين إيه يعني ما ينفعش أقولك يا بابا لله؟ لازم تكون رشوة يعني؟ ما تقلقش أنا عارفة انك مناضل وبطل عظيم لا يمكن تقبل رشوة، خصوصا من بنتك.

وصلت لحد الصراخ فلم يبق لي إلا دخول غرفتي وصفق الباب بقوة ليكتمل المشهد. كنت أعرف أنني أؤلمه بتلك الكلمات؛ فقلب يعرف أن سر شقائه هي تلك الكلمة: البطولة. يقول أنها لعنة غرزها فيه هروب أبيه، فلنراجع معا محطات حياته: قلب يحاول أن يكون بطلا مع غالي فلا يصرح بحبه لكارما، يحاول أن يكون بطل والده فيكتب كتابات تدخله السجن، حتى الآن تمنعه هالة البطولة على رأسه من أن العيش كما يريد، بات قلب بطلا شعبياً، عشرات الصحفيين يتصلون بنا كل أسبوع لإجراء حوارات ومقابلات. زملائي كلهم، حتى من كانوا يكرهونني، صاروا ألطف وعُرض علي العمل بجريدتين ومحطة. أنقل الأخبار لقلب فرحة، فلولا أجر مقالاتي التي لا يقرؤها أحد وتبرعات أهل الخير ما وجدنا طعاما. أحدق فيه غير مصدقة، يقول الصحافة كلها بهدلة، أنا مش مستغني عنك. يا للغرابة! ليس رجلا عاديا لكنه يتوق للعيش كرجل عادي، هو روح رجل فقد الإيمان تحتل جسد قديس، فهو يأكل كقديس، يتكلم كقديس، ويستغرب كل يوم وهو يحلق ذقنه في المرآة، كيف لا تزول الهالة المضيئة حول رأسه رغم كل الأفكار الدنيوية التي تجوب هذا الرأس؟ أقرأ ما كتبه قلب عن سجنه وإن لم يكتب الكثير،

فذاكرته تأبى الرجوع إلى تلك الفترة، فقط لحظات ومواقف مفصولة عن بعضها البعض وغير كاملة، مقاطع لا توضح لكنها تشير أين كان قلب قبل الاعتقال، كيف كان مسالما لدرجة قد يعتبرها أعداؤه مزرية، يظن أنه بلا أعداء حتى سجنوه.

صدقيني. أنا لو عرفت ان كتاب الكتيبة الطيبية هيسبب اللي حصل ما كنتش نشرته، أنا ما ناضلتش، ما قصدتش، هي جات كده، أنا انخطفت. ثم يضحك ضحكة طويلة من القلب باتت تتكرر كثيرا مما أراحني، شعرت أني نجحت في مهمتي وأني كسرت جزءا من حائط الكآبة حوله.

هكذا يصوغ قلب قصته النضالية ببساطة حسدته عليها ويختصرها في سوء حظ. كان يتكلم دائما بذلك الرضا عن اعتقاله مما زاد احترام الناس له، يحملونه عنوة على أكتافهم وكلما صرخ أنتم مخطئون، لست زعيمكم، أنا فقط أتكلم معكم، لست نبيا ولا ملاكا، كلما رفعوه أعلى، وهتفوا له أقوى، فلا يكون أمامه حل إلا مهادنة يتبعها فرار نظيف.

أحب قلب أباه وأحب حكايات العم صبري عنه لكنه كره حقيقة هروبه أيضا، كرهها لدرجة أخافته من السياسة عندما شب وفهم، كان يذهب إلى الحزب ليقابل ذكرى أبيه. لكن بعد انتقاله إلى القاهرة صار يذهب فقط لحضور ندوة أو حفلة، لم يعد نشاطا يوميا كأيام أسيوط، لكن الكنيسة بقيت وحلت محل الحزب في حياة قلب، تعلم فيها الغناء الذي يبرع فيه؛ فحين يدندن أبي وهو نادرا ما يفعل، تسمع صوتا رائقا ومدوزنا، صوتا يفهم الموسيقى. يملك قلب آلة عود تعود لوالده لكنه لا يحسن العزف مثله. احتفظ بالعود كما احتفظ بأشياء أخرى لا يستعملها من باب الوفاء. وفاؤه لأمه منعه من التخلص من

ملابسها التي يعلم كم كانت تعتني بها وتحبها؛ مازالت الأثواب تملأ حقيبة جلدية ضخمة قديمة في غرفة خصصت بالكامل للكراكيب في بيتنا الجديد، لم أستطع إقناعه بالتخلص من تلك الأشياء، أسعل من سحب التراب التي تتصاعد وأنا أفض فساتين جدتي، لم تكن رفيعة جدا، الحقيقة كانت ضخمة، أمسك الفستان من أكتافه وأرفعه، كانت أطول من قلب على الأقل بثلاثين سنتيمتر، فستان أسود من التُل والدانتل المبهر، كان دقيقا وراقيا كفستان أميرة تحضر جنازة:

ـ جدتك فصلته بنفسها.

كان قلب يقف ورائي:

ـ ممكن آخده أصلحه على مقاسي؟

صمت قليلا كمن يتحسس رد فعل أمه. مد قلب يده ولمس القماش:

ـ إبقي البسيه في عزاي، اقفلي الشنطة ورجعي كل حاجة زي ما هي، لو في فستان تاني عاجبك خديه، فستانين بس، ثلاثة بالكتير فاهمة؟

هكذا حدد أبي مظاهر وفائه لي، أن يشاركني أوراقه، أسراره وذكرى أمه. بإهدائي تلك الثياب أعطاني جدة لا تغضب من عبثي بحاجياتها، جدة لا تبخل على حفيدتها بثوب أو برشة عطر عتيق. لحظتها رأيت جدتي فيرينا، التي لا يملك لها قلب صورا، تربت على كتفي مبتسمة وتباركني.

وفاء قلب لأبيه كان يدفعه لتخزين الأوراق لا الملابس، مظاهر هذا الوفاء تتلخص في إمساك الأفكار الطائرة ولصقها سريعا على الورق قبل أن تفسد، رحلة صيد خطر ودقيق؛ فالأفكار قد تتفتت في

يدك أو تنكمش فيستحيل استراجعها. تلك هي المرحلة الأصعب كما يقول قلب، اقتناص الأفكار وفردها على الورق من غير أن تؤذيها، ودون أن يحدث الأسوأ، أن تموت الفكرة في يدك لتظهر في كف آخر وترقد على أوراق أخرى غير أوراقك؛ فالفكرة كالطاقة، لا تفنى ولا تستحدث من العدم، هي موجودة قبل أن نكون، وستبقى كلما تكررت الحياة. البطولة عند قلب هي لحظة نسخ الأفكار التي لا يملكها وتسجيلها، لحظة المعاناة اللازمة لالتقاط صورة فوتوغرافية لتلك الفكرة الحرة وأرشفتها في تاريخ الأفكار البشرية. هنا تنتهي البطولة الحقيقية من حياة قلب، أما تحمل الاعتقال والتعذيب، التعرض للبطش عن طيب خاطر بالنسبة لقلب ليست بطولة، بل سوء حظ خطير أو ميول انتحارية/ ماسوشية.

ماذا عن الكتيبة الطيبية؟

ماذا عنها؟

بابا، انتبه! اعتقال تعذيب استشهاد علشان العقيدة! إيه فيرينا ماسوشية؟

طيب ما انا اعتقلوني وعذبوني، إنت مخك صغير يا بنتي، ستك فيرينا زيي ما كانش قصدها تموت، هي بس كانت أطيب من أنها تتوقع قسوة الرحلة، لكنها اتحملت وعاشت ما اتقتلتش، ولسه عايشة في قلوب ناس كتير. عمك غالي مثلا مجذوبها، بيقولوا مجاورها دلوقتي، باع أملاك أبوه في أسيوط واشترى شاليه في الجبل هناك.

ويضحك قلب. دائما ما يضحك بعد الأخبار الهامة وكأنها نكتة. أتوق لمعرفة المزيد عن أخبار غالي لكنه يسألني، قريتي كتابي يوميات العربة الواحدة بعد الألف؟

ـ بابا انت عارف اني قريت كل أعمالك.

ـ إقري تاني، شكلك ما فهمتيش. التشبث بالحياة هو أهم فضيلة بشرية، إنت خاية خالص، واحدة خزافة، مالك انت ومال البشرية والتنظير.

أطل برأسه من باب الغرفة ليغيظني كما يحب: مش غريبة ان انتِ وغالي متخرجين من نفس الكلية، ونفس القسم؟ إنت ليه مش بتشتغلي فخار؟

قلب اعتاد الهروب كأبيه، يهرب من الجد بمزاح ليس بالبراءة التي يبدو بها. اكتشفت أنه قد يكذب أيضا دون مشاكل للتملص من الناس بغض النظر عن أهمية هؤلاء الناس. أواجهه بصفيحة قهامتنا مليئة بالخطابات، عشرات الدعوات التي تصله، يحمل حاسوبه النقال بيد، ومجموعة خطابات باليد الأخرىٰ:

ـ في دول كمان وفي غيرهم، إنت عايزة مني إيه؟

ـ عايزاك ترد عليهم، الناس بيعاملوك علىٰ أنك بطلهم، بيحاولوا يكرموك. نظر إلىٰ نظرة زجاجية لن أنساها قط.

انتقلت معه لبيت الفيوم منذ فترة قصيرة ولم أكن قد ألفت طباعه بعد، كان هذا وجها لقلب لن أنساه، رفعت يدي أحمي وجهي تلقائيا، غضبه ذكرني بنظرات جدتي قبل أن تبدأ في الصفع بظهر يدها. ابتعد خطوتين للوراء وصرخ:

ـ لو كانوا أفرجوا عني قبل سقوط النظام، برضه ما كنتش هاخرج الشارع معاكم لإسقاطه، هم مش فاهمين، إنت مش فاهمة، ومش عايزين تفهموا، سيبوني في حالي.

جلس علىٰ الشرفة ليحضر قهوته. يضع العدة بالخارج في الصيف،

الكنكتين، الفنجانين، ملعقتين وعلبة للبن وعلبة السكر وسبرتاية. كأن يردد من حين لآخر، سيبوني في حالي، وهو يشرب القهوة وحيدا بالخارج. تركته وذهبت لأوراقه، وقفت أنظر حولي: من أين أبدأ؟ أربع حوائط مغطاة بالأوراق والدفاتر والخطابات، ما هذه الفوضى؟ ولولا إرشادات روح جدي الواعية ما كنت وجدت تلك الصفحات التي كتبها قلب قبل لقائي بأسابيع.

ملحوظة

«الدفاتر القديمة والكتابات التي تم نقلها حرفيا إلى تلك الحدوتة ليست هامة في أغلبها، ولا تنتمي بالضرورة لنفس الحكاية. تلك حكايات لا تعبر عن كاتبيها منفردين ولا تعبر عني مجتمعة. الحقيقة أني لم أفهم الكثير منها، فنقلتها لكم كما هي، فقط لأني أحببتها، كما تحب أغنية هندية لا تفهم منها لفظا. ما أود قوله هو أنك قد تجد الكثير من التخريف في تلك الحكايات المنقولة الملونة. لكنك كقارئ لابد أن تقدر صراحتي حين أعترف لك أنه هراء أحبه.

أوراق بلا ترقيم

خلعت قفازي وارتميت على المصطبة، الأرض الحجرية أمامي مزروعة بقطع فخار ساخنة وملونة. لم أصدق حين عدت من القاهرة لأجد دولاب الفخار منصوبا أمام البيت، ظُلل بالكاد لضخامته تحت برجولة حديثة البناء من جذوع النخيل وجريده. التفتُ لأتحقق من اختفاء نخلات المدخل، هذا القلب مجنون، يضحكني كثيرا.

رغم تعلقي كأبي بالكتابة، إلا أن حبي للخزف لم ينته، أعتلى الدولاب وأبدا في تحريك الطبلية السفلى فيدور الدولاب كعجلة حظ مسحورة. حوض مليء بالطين الناعم، وعشرات العلب أتعرف فيها على كل خامة قد أحتاجها.

ـ وآدي الفرن.

كان قلب يدفع عربة يد محملة بفرن حرق كهربائي عتيق جدا، وكأنه يقرأ أفكاري قال:

ـ لكن ألماني متين.

وضع قلب الفرن في مكانه المجهز تحت البرجولة، ثم اتجه للبيت مستكملا كلامه حتى اختفى صوته.

دلوقت عندك ورشة عمل كاملة، عمك غالي بعت لك الفرن، اكتبي له رسالة شكر.

طلت رأسه من باب البيت،

ـ ما أنتي بتكتبي كل يوم.

كرهت ابتسامته في تلك اللحظة، اختفت فرحتي تماما وحل محلها الغضب:

ـ أنا مش عايزة اشتغل فخار، أنا باكتب. إنت ليه مُصّر اني ما بعرفش اكتب؟ إنت حتى عمرك ما قريت.

أخرج لي قلب وجه دهشته البريء الذي أعرف أنه مصطنع:

ـ أنا مش قصدي. دي هدية عيد ميلادك؛ أول عيد ميلاد لينا مع بعض. فكرت أعملك حاجة كبيرة.

لكن غضبي لم يتلاشى:

ـ مش المفروض تسألني؟ تراعي رغباتي؟ آه بس أكيد أنا هافرح بأي حاجة، كنت فين وبقيت فين؟ أنا مش عايزة هديتك دي، أنا فاهماك كويس، الطريقة دي مش هتاكل معايا.

لماذا قلب؟

دعوني أحكي لكم تاريخ هذه الرواية.

ولدت هذه الرواية لأبوين اثنين: لحظة وشخصية. اللحظة هي لحظة خروج قلب من السجن وتسلمه بريده الذي حُجز عنه لسنين، بريد من أناس عرفهم وأناس لم يعرفهم، كتَبَ له من تمنى أن يراسلوه وآخرون أدهشه أن يكتبوا. في تلك اللحظة التي انصلح فيها سوء الفهم، ولدت فكرة كتابة سيرة قلب في دماغي.

لسنوات ظن قلب أنه قد تم نسيانه وتخزينه في خلايا الذاكرة الأكسل لأحبائه، شعر بالوحدة والإهمال، شعر أنه منبوذ ومسكين. لأنه لم يعرف أن هناك من يحاول التواصل معه، يئس. كرائد فضاء ضل عن كوكبه، ظن قلب أنه نُسي ونُفي للأبد عن عالمه، ثم أتاه الإنقاذ حين استلم تلك الرسائل.

أما الشخصية التي ولدت منها هذه الرواية، فهي شخصية راسم الطريق، يتجول كعبيط قرية في مسلسل ثمانيني، حين نقترب من وجهه يصبح نسخة من قلب. شغلني التفكير فيه ساعات قضيتها متنقلة على الطريق الزراعي الضيق بين قريتي، التي باتت أضيق في كل زيارة، والمدينة التي تسميها لمياء «المدينة جائرة الإلغاز». أسرح

هربا من خطر الحوادث في خطوط بيضاء تقودنا في ظلام عواميد النور الشبحية، أفكر في هذا الملاك الذي أفنى عمره ليحدد للسائقين حدود أمانهم البيضاء تلك. كفى سخفا. أعلم أنها ماكينة التي ترسم الخطوط على الإسفلت، لكنى ما زلت أحب الفكرة الطفولية الأبعد لرجل منحنٍ على الطريق السريع يرسم وهو يدندن أغنية لنجاة أو وردة، وحيدا مع دلوه وفرشاته، يرتجل ببطء انحناءات الطريق، ينزلق من شمال البلاد لجنوبها، من غربها لشرقها. يعبره الناس ولا يقفون. هو أيضا لا يحتاجهم، ولا ينتظر منهم أن يعرضوا عليه بعضا من سندوتشات أو مياه مثلجة لا تخلوا منها عربة مسافر. لا يتوقع راسم الطريق أي اهتمام أو تقدير لعمله المتعب، يتساءل بصوت لا يشبه صوت قلب، كأنه قلب مدبلج بصوت الفنان يوسف شعبان، يكمل كلامه من عمق حنجرته الخشنة: أنا فقط أرسم حدود حركتكم، أنا فقط من يوجهكم إلى اليمين، إلى الشمال، أنا؟ من أنا لتبجلوني؟ لتحترموني؟ ها؟ أنا ولا حاجة، ولا حاجة أنا جربوع.

تستفزني نبرة التهديد في صوته، أقاطعه بثبات يدهشني، لأنه كان يخيفني حقا: ـ أو إلى قلب البحيرة مباشرة، زي ما عملت مع كارما في اليوم اياه.

يضحك طويلا ثم يتلاشى وتبقى ضحكته.

وجدها غالي تلك الليلة «سلويت» مبللا ومشعثا يبكي ويصرخ على جانب بحيرة حملت رياحها أصداء ضحكة تشبه ضحكة يوسف شعبان. تلفت غالي حوله وتأمل معها خطوط الطريق البيضاء منحرفة رأسا إلى البحيرة، لولا شباكها المفتوح على غير العادة كانت ستغرق ما فيش كلام. كان هذا ثاني لقاء بين غالي وكارما بعد لقاء إشارة المرور. تلك قصة سأحكيها لاحقا على أي حال، لكننا مازلنا في البداية مع

هذا الثنائي الذي نمت من لقائهما في دماغي تلك الحكاية: شخصية «راسم الطريق» ولحظة «استلام قلب لمكاتيبه المفقودة».

أنا نفسي ولدت في أعماق تلك الرواية، ولدت من مرض قديم، من ارتفاع حرارة صبي وهذيانه خلقت، وفي وحدة امرأة وأسرارها، وبين إحساسي بفقداني وتضخم فرديتي ترعرعت. لكن الحكاية ليست عني، ولا عن الشيخ قلب القبطي كما تعرفونه، بل هي سيرة قلب الأصلي.

راسم الطريق

يعيد طلاء الخطوط البيضاء على أسفلت الشارع مسببا فوضى خارقة، تنحرف السيارات من حوله وترتطم ببعضها وبعمدان النور في مشهد كارثي، يستمر هو في الصراخ: «عايزين يغيروكوا يا بهايم». وبحزن يضيف: «وانتوا بتتغيروا».

لم يكن يغير النص، فقط الإيقاع، السكتات والنغمة.

أنظر إلى المشهد المشتعل وترن في أذني أغنية: ورمش عين الحبيبة يفرد على بساتين، بساتين، بساتين. نغمة حزينة في حب فتاة مقتولة، في مسلسل تلفزيوني غناها عمرو دياب قبل أن يصبح هضبة، تحقيق طويل ومحبط مع أساطير الريف المصري المغلوب. يلقي النائب الحكيم نفسه ويفقدها مرات عديدة في مسلسل لا أتذكر منه أي شيء غير الأغنية الحزينة، ورمش عين الحبيبة يفرش على بساتين، بساتين، بساتين. تخرج الأغنية من راديو الميكروباص مكسرة ومثقوبة. رؤيتي لراسم الطريق كانت خاطفة لكنها مؤثرة؛ مازلت أذكر تلك اللحظة بوضوح؛ حضنتني أمي بشدة لتحميني من فرملة السائق المفاجئة،

متمتمة، بسم الله الرحمن الرحيم، يا لطيف، يا ساتر، يا ساتر يا رب، كنت أشعر بجسدها يخنقني لكني لم أتضايق أبدا، كانت تلك طريقتها في حمايتي، الالتفاف حولي وإحاطتي تماما. حين استحالت تلك الإحاطة جسديا حاولت الأم/ الجدة المسكينة أن تحاصرني فكريا، لكن الأم/ الجدة الأمية لم تكن تتخيل الأبواب التي قد تفتحها الكتب لعقل سواح كعقلي. وعندما فشل الحصار العقلي تماما وبدأت أحقق بعض الإنجازات الصغيرة في الصحافة، ماتت أمي، وهي تُحمّل نفسها ذنب عزوفي عن الطريق المنطقي الوحيد لفتاة ريفية بسيطة مثلي: الزواج.

يا راسم الطريق
بفرشاتك الذهبية تهب البياض ظلام الطرقات
يا راسم الطهارة على الإسفلت
عبر مصابيح العربات تلوح
يتدلى من كفك دلو ترفعه عاليا كهرقل
وتنزله أفقيا فتصير مسيحا أو ميزانا
لا يميز صرخاتك غالقو النوافذ والقابضون على ضوضائهم
غير العارفين لن يسمعوك.
يا راسم الطريق، «سيلويت» أنت دائما على الطريق السريع
لا يجد المتعجبون شجاعة ولا وقتا
ليركنوا إلى جانب الطريق ويستكشفوا هويتك المنيرة.
عرفتك حدود المدن بفرشاتك وانحناءاتك على الإسفلت،
بلمعة عينيك لما تمر الإضاءات على الطريق السريع
مصلوبا في ذاكرة كل من سافر مهتديا بلمعان خطوطك الزاهية
في وجدانهم دائما ما يصادفون دلالات مساحات وجودك
لتبقى شاهدة على عبث ذاكرتهم وطول الطريق.

كارما الكاتبة

منذ انتقالي مع قلب إلى الفيوم والمدعوة كارما تلاحقنا كروح قتيلة لم يُقتص لها. لم أعثر على خطاب واحد منها وسط خطابات السجن، لم تبعث كلمة لقلب في محبسه، ولا برقية واحدة معدودة الأحرف كالتي بعثتها له اليوم، لكنني لا ألمح حقدا في عينيه وهو يتحدث عنها، يدخل غرفة الكراكيب ويخرج بحقيبة سفر خشبية، من أين أتى بهذا الشيء؟

ـ أجيبلك مِشَنة أحسن، ولا أقولك، أُزرب بؤجة.

لا يضحك، يستمر في تحويل ملابسه من الصندوق الخشبي العريض على الأرض إلى الحقيبة الصندوق:

ـ إنت بتعمل إيه؟

يستمر في تحويل ملابسه.

ـ إنت مسافر؟

ـ جونفيف ماتت، كارما بتدفنها هناك ومحتاجاني، التذكرة اتحجزت خلاص بعد سبع ساعات، فين البالطو؟

ـ هناك فين؟

ينظر إلي بعيون فارغة كأنه يتساءل أين رأى تلك الفتاة من قبل.

ـ سويسرا.

يتحرك في الغرفة كأنه يبحث عن شيء ما، أقترب منه وأمسك يده الحائرة، يستسلم لي كطائر متعب، أخرجه إلى الشرفة وأدخل لترتيب حقيبته. كنا في أبريل حيث يسخن الهواء في الحديقة ويبرد، وقلب على الشرفة يرتعش وسط المشهد في الحالتين.

أعرف ماذا حدث في سفرته الأولى، لقاءهم القديم في سويسرا. عامةً تجديد الهواء سيفيده حتى لو كان محملا بالغبار. لا أحب فكرة انفراد كارما بقلب لكن ماذا أفعل؟ جونفيف ماتت ولا أستطيع منعه عن جنازتها. لست قاسية القلب، لكنكم لا تعرفون كارما بعد، صدقوني، فكارما رغم شهرتها لا يعرفها أحد، حتى قلب وغالي لم يعرفاها. ربما عرفتها جونفيف لكني لست واثقة. ما أنا واثقة منه أن كارما لا تعرف نفسها. هل أعرفها أنا؟ سؤال مخادع. هل يستطيع أي منا معرفة نفسه أو الآخرين معرفة كلية ووافية؟ لا أدعي ذلك أبدا ولو على سبيل المجاز. نحن صور ضخمة مقطعة وبلا أصل، وأنا لم أنته بعد من تجميع صورتي الخاصة، فكيف تكتمل لدي صورة كارما؟ الحقيقة أني لست مشغولة بصورة كارما الكاملة، فأنا لا أملك إلا بعض مقاطع من صورتي الخاصة، تظهر بخلفيتها كارما مرتدية بدلة رقص شرقية مثقلة بالأحجار المنيرة، كجارية مقاتلة ومرتفعة الثمن تقود إلى خارج الأسطورة فيلها الإفريقي المزخرف بألوان هندية نافثا من زلومته دخانا أزرق. تقترب من خلف قلب، تمسك بيمناها حربة، تقترب بعيون يملؤها الوجد وتغرس الحربة في قلبه، وتصدر بيسراها إشعاعا يعوق غالي. يلوح المسكين بذراعيه ويصرخ

قافزا في الخلفية بلا صوت ولا انتباه من رفقاء الصورة، بينما تتزلق جونفيف فوق رؤوسنا جميعا راقصة بعصا مشتعل طرفاها. لم أقابل كارما قط خارج هذا السياق ولا حتى في كتبها.

نهار داخلي

صالة شقة صغيرة، باب الشرفة يفتح أغلب الحائط، أمامه كارما جالسة على مكتب أحمر. ألوان، ألوان، ألوان، هذا ما يميز شقتها الآن. الصالة الصغيرة مفتوحة على صالة أصغر ملحق بها مطبخ مفتوح على الصالتين، وكتب تغطي حائطا وتتكوم على المنضدة الصغيرة وعلى أطراف المكتب وعلى الكنبة الصغيرة أيضا.

عينا كارما تتأملان عبر شباكها بتلات مسك الليل الرفيعة، تحيطها أشعة الشمس المحملة بشعر القطط، تتذكر أنها بعد وفاة والديها واستقرارها بشقة جاردن سيتي القديمة، احتاجت إلى وَنَس. بعد فشلها في اصطياد رجل، وقفت في شارع عبد الخالق ثروت تنظر لثلاثة قطيطات ضئيلات بائسات في قفص، تدير ظهورها للمارة في اكتئاب. تمد إصبعا من بين أسلاك القفص القذر فتنظر إليها القطة الصغيرة بحذر وكأنها تقول: لن أثق بك ولن أحبك، كلكم خونة. وتدير ظهرها لكارما التي حملتهم الثلاثة بعد لحظات مع شكارة من الرمل وعلب الطعام المخصوص ورجعت بهم إلى شقتها؛ من يومها تسود البيت سحابة دائمة، خليط من المرح وشعر القطط.

تسند قلمها على الورقة، تنمو بقعة الحبر أمامها، يمد القط يده ليخبط القلم من يدها، طريقته اللطيفة للفت انتباهها، سحب القلم من يدها بيد ناعمة وحادة كالخطاف، كأنه يصطاد سمكة، هذا الفهد البري، هذا الكتكوت، يقرقر القط السعيد ويتمرغ أمامها على الطاولة

فاركا بظهره الأوراق، تنتبه لسيلان الحبر على صفحتها، تقلب أربع صفحات حتى يختفي أثر بقعة الحبر، تكور الأوراق وترميها للقطط ليدحرجوها أمامهم كلاعبي كرة قدم محترفين، تقذف مع الأوراق المجعدة الملطخة أفكارها المحبطة وتقرر أن تنهي محاولة أخرى فاشلة للكتابة وتمرح مع قططها الرابضة حولها في نصف دائرة تراقبها بعيون مستعدة لالتقاط أي إشارة للعب، تمسك بخيط وتجري فيجرون ورائها. تبا ليومياتها خارقة التفاهة! لن تتجمع تلك الترهات أبدا في رواية، بالله لما قررت أن تفعل ذلك؟ لما أعلنت عن روايتها الجديدة، المختلفة عن كل ما كتبت؟ تتوقف كارما عن الجري بالحبل لاهثة فتعترض القطط بنونوات حادة ورقيقة، تسري بينهم النونوة كعدوى الأنفلونزا، يتبادلونها بالدور كفستان سهرة تملكه ثلاث أخوات أو كسيجارة حشيش. تتذكر أن لديها قطعة حشيش في الفريزر أخذتها من الأستاذ إبراهيم هدية تخرجها، ترمي الحبل للقطط وتهرول نحو الثلاجة. تشرب سيجارتها المحشوة وتنفث الدخان في وجوههم وتفكر، ملعون أبو القالب على أبو الإلهام؛ فخيالها يحترق بالسواد. تكتب شيئا ما، لكنه ليس رواية، تكتب شيئا بلا اسم ولا طعم لكنها مجبرة على كتابته.

تغيير المزاج

ظل الفرحة يتفاءل بي.
أُقنع نفسي من بين ركام الأحجبة المتحدثة حولي؛
من قال كآبة؟
لفظ أتلقاه بلا اهتمام
هدوء يشي بالعجز

وأفواه تخبرني عن التبرج
أغشية بكارة منزعجة إلى حد الهوس
وعشاق يفهمونك «غلط»
لكنهم يظلون في مرمى رؤياك
ذكريات تلعب في صدرك
وأوراق كثيرة تحجزك في غرفتك
تلملم أدواتك وكأنك ستموت غدا
تضيع لحظاتك كأنك ستعيش أبدا
رحلاتك دائما «رايح جاي»
بلا أماني حقيقية في البقاء
ولا هدف غير الابتعاد
تشب بذقنك كي تتنفس
لتغطس من جديد
تشد على يد
تعرف أنها ليست نظيفة تماما
وتحارب إحساسك بالملل.

بعيدا عن الغلب الرئيسي لكارما في تلك اللحظة، لم يكن عجزها عن كتابة شيء مفهوم هو ما يمنعها عن النوم، رأسها الفارغة كانت مشكلتها الحقيقية. مارست اليوجا لسنين ولم تنجح أبدا في إفراغ رأسها، لكنه فارغ الآن رغما عنها، تنظر حولها وتفكر، ليس هذا ما صليت من أجله، هذا ليس هدوءا، هذا موات. كيف تبدع كلاما ممتعا وهي مختمرة بملل مقرف؟ كيف تكتب شيئا أصليا وهي لا تشعر أنها موجودة؟ تحاول الفهم. ما الذي يزعجها ويمنعها عن الشعور بالراحة في هذا العالم الذي طالما حلمت بالعودة إليه؟ تعتبر نفسها من المحظوظين، تقسم أنها حتى في حيواتها الأقدم لم تواجه قط عنف البشرية في أقسى صوره. رغم غرورها، لا تتصور في نفسها

قوة التشبث بالمنطق الصحيح لو واجهت ضغطا غرائبيا أو ظلما عفيا كالذي تسمع عنه. جاءت مصر محملة بحكايات رومانتيكية عن الحضارة القديمة وأنفاس التاريخ العتيق، لكن عشقها لصفحات الحوادث قادها لحكايات جديدة ومرعبة، ومع كل قصة تعذيب تسمعها أو تقرأ عنها، ومع كل تحرش جنسي تتعرض له في الشارع، كانت تزيد من قلقها وحذرها، حتى قلت معدلات خروجها يوما بعد يوم، وباتت الشمس لا تراها لأسابيع، حتى حديقتها الصغيرة هجرتها. يبدو أن غلاف كارما كان حساسا ومخترقا في تلك الفترة، فهي تتحرك طوال عمرها بجدية داخل فقاعة غير مرئية تحميها من مدن لا تحبها ولا تستغني عنها، من قائمة مخاوف كادت أن تقتلها، ولم ينقذها من تلك القائمة المخيفة إلا جونفيف.

وجد طبيبها النفسي أن البوليس المصري، الحرائق العشوائية، العملاء السريين، الانهيارات المفاجئة وحوادث الموت المضحكة تحتل أعلى القائمة التي تنامت في السنين الأخيرة بعد وفاة والديها وعودتها لمصر.

هل تعتبر كارما نفسها متزمتة أم جبانة؟ لا أبدا، جريئة وغير متقوقعة، معقدة وحرة.

رأى قلب كارما كما ترى هي نفسها، صورة غير مكتملة، وأحب النقصان. على عكسه لم ير غالي فيها إلا قشرتها اللامعة تعكس الكون مكتملا بعاهراته وراهباته، لم ينتبه لإنسانة تخلع تلك القشرة فارغة، لم يفكر أبدا في إنسانة بلا زينة ولا غطاء، وحيدة بمناعة ترسم عريا حزينا لا مغريا. كارما لا تملك في بيتها إلا مرآة واحدة، وهي ليست ما تراه في تلك المرآة وليست ما يعتقد قلب، أو ما يظنه غالي أو ما أتصوره أنا عنها

مأزق كارما التي قد يراها الغرباء أمثال غالي في المواقف الحياتية الفاضحة التي تلعب فيها دور المجهولة الفاجرة، أنها في الحقيقة محافظة، متكبرة أو خجولة جدا لا تتعرى أمام جموع القراء الغرباء. لا تستخدم حياتها أبدا بشكل مباشر لتغذي قصصها، فبرغم إيمانها (المنقول) بالكتابة عما تعرفه فقط، أبدا لن تستدعي مشهدا من حياتها ولا فكرة. لا تخاطر كارما بالمكاشفة. أرجو ألا يفهم من هذا أن كتاباتها (نظيفة) أو محافظة، على العكس، فلطالما اتهمها قلب بالاستفادة من سمعة جرأتها في الكتابة كأنثى تتعرض لطبيعة العلاقات الجنسية في الشرق المنغلق، لتقدم كتابات شبقية سياحية. هكذا صنفها قلب، مشبها رواياتها بنسخة رديئة وعصرية من ألف ليلة وليلة، يستعجب: كيف تكتبين فقط عن كل ما تكرهينه في الناس؟!

تركز في كتابتها على إهانة شخصياتها وفضحها بشكل يضعها تلقائيا كراوية في المعسكر المضاد لشخصياتها. حين تكتب عن الساقطة التي تلعب بفرجها أمام المارين بالحدائق العامة، تتمادى في نقل إحساس بالقذارة وتصرح ككاتبة بمعاداتها. تجلب كارما بطقوس كتاباتها أرواحا مختلة وحاقدة إلى هذا العالم لتعلن للقارئ أنها تكرههم وأنهم يستحقون العذاب في الصفحات التالية، حريصة على إيضاح أنها في معسكر الطيبة والعدالة الإلهية؛ تبدعهم سفهاء ومن ثم ترجمهم حتى الموت لتعلن أنها أخلاقية تُعلي القيم الموروثة. تقول، هي التي لم تعاني قط كأنثى شرقية ـ فقد عاشت أغلب حياتها مع والدها الدبلوماسي في سويسرا ـ أنها تكتب معاناة الأنثى الشرقية! أضحك طويلا، أي شرقية؟ المرأة لم تعرف حواري القاهرة إلا من خلال مستشرقة!

الأطرف أن كارما تصف نهايات قصصها ـ صدق أو لا تصدق ـ بأنها نهايات سعيدة؛ الكل يتوب ويدفع الثمن برضا وهدوء. لن

أقتبس التفاصيل المقرفة أو الجريئة التي ساعدت على تحويل عدد من أعمالها لأفلام سينمائية؛ فقد وجد بها المنتجون خلطتهم الذهبية للربح، لكني سأقتبس من روايتها «أدرينالين»:

أختي ثناء

«متأرجحة بين اللوعة والفرح، ترتكز على سور البلكونة المختفية وراء طبقات ورق البونسيانا الناعم، تترقب أنوارا تتسرب بين أشرعة شباكه لتعلمها بوجوده، تتابع سمير ابن عواطف بائعة الخُضرة بشعره اللزج المفرود كيميائيا، يدخن سجائر البانجو مع جمال ابن سعيد السباك

ـ يقطن أسفل بيتي لسوء البخت، مع أبيه ـ صايع، ما فلحش في تعليم ويلم الحثالة حول البيت ليلة بعد ليلة.

كما تعودت أن تحكي لِرَيّسة صديقتها الوحيدة بالحي، يقف معهم زُورة، صبي الحداد من الحارة المجاورة، والذي يشاع أنه رجل لا مؤاخذة كما يقولون، هي لم تسمع من أحد، فقط تراه يبالغ في الدلع على أصدقائه كما تفعل ممثلات السينما حين يقمن بدور راقصة «مش ولابد» يقفون في الركن المظلم من الشارع أسفل بلكونة الباشمهندس محمد رفاعي، أبو حبيبها محمد. يوقره أهل الشارع لأنه يعمل في مصلحة المجاري، بسببه لا يُقطع الماء عن حينا، حين تنقطع المياه يقف الأهالي تحت بيته ينادون: يا محمد.

يطل الأب برأسه الأصلع وعينيه المضاعفتين تحت نظاراته السميكة. يضرب تليفون للمصلحة فتأتي المياه على الفور. لا تقطع المياه بسبب الأعطال، بل يقفلون محابس بعض الأحياء لأن المياه أصبحت لا تكفي الجميع، يقطعون المياه فقط عن الأحياء الأفقر،

الأحياء الخالية من المصالح العامة والسفارات والناس المهمين. ترى عيني سمير تركزان باتجاهها، والعياذ بالله عيونه تلمع مثل القطط. تصارح ريّسة، كانت تتبين عينيه كشعلتين مضيئتين في العتمة، بينما يصعب عليها تحديد أبعاد جسده المظلل بأجساد عديدة مختلطة في تلك الإضاءة. محمد كذلك عيونه تلمع، لمعة تعرفها جيدا ولا تُخيفها، لسعة من نور تضوي في عينيه حين ينظر إليها، فتعـ.ـي القلب مأخوذاً برعشة ملامسة نسيم بارد.

ألمح شقيقتي قادمة تتبختر كخيال ظل غراب في أول الشارع، ضامة فخذيها بقوة كأنها تُخبئ بينهما سرا ثمينا، ناظرة للدنيا «من تحت لتحت» كما يقول والدي، لا ترفع وجهها أبدا، تقول: البنت المؤدبة لازم تمشي ووشها في الأرض. وتتذمر بعدها:

ـ دا انا يا محجبة ما بسلمش من عينيهم.

تأخذ ثناء في تنسيق واستكمال ملابسها وقتاً معتبرا، تنتهي معلقة الأطقم المكتملة، مكوية ومتجاورة، في دولابها عديم الضلف، لتختار منها كل صباح.

اليوم ترتدي الطقم النبيتي، أراها بوضوح الآن من بين حبال المنشر. تخطو عتبة البيت بصندلها النبيتي، متشبثة بحقيبتها النبيتي، ضامة كتفيها ومائلة إلى الأمام. على الناصية «مُلة» القهوجي بالغ الطول والنحافة خفيف الدم يتأملها بتمعن.

أحسد ثناء لأنها تملك حق «المِجي والمرواح» باسم العمل. أما أنا، بعدما أنهيت الدبلوم، فإن الُفرجة من البلكونة هي آخر تسليتي، «يصوصو» جرس الباب فيهرع بابا إليه هاتفاً ليُسمعها:

ـ حبيبتي، حبيبتي جات.

يلتقط حقيبتها ويشد لها كرسي السفرة ويدعوها لتستريح.

أنا أقف في الخلفية «قرفانة».

أحضرتُ له القهوة منذ قليل فتناولها مني دونما نظرة. أما هي، هه! جالسا يخيط زر قميصه بتركيز جراح، لقد ورثت عنه ثناء حرص الاعتناء بالمظاهر. لو يعرف ماذا كانت تفعل حبيبته في بير السلم مع القهوجي! أراقب يد ملة ترتفع في تحية لظل مجهول وتنتابني غيرة غير مبررة، دمه يلطش، عدت لأنظر إلى الشارع. تقبض أختي ٥٥٠ جنيها في الشهر، لا تضطر لتسول المال من أبي لشراء أي شيء تريده، بل تُقرضه أحيانا مقابل حريتها. تخرج في الصباح للعمل وأحياناً في المساء مع صاحباتها لِأكل الكشري في وسط البلد بعد الشغل، ولو انتهزت الفرصة لشراء الطرح والأكسسوار المتوفرة على الأرصفة ترجع في العاشرة أو الثانية عشر، أكون أنا قد كررت كل أفعال النظافة اليومية، متنقلة بين أرجاء الشقة الكئيبة.

تنظر حولها وتفكر: لم يتغير شيء منذ سنين، كل شيء هنا يحمل آثار عراك قديم، لكثرة ما تعاركنا في هذا الأسرة. جريُنا إلى البلكونة حين ينتبه أحدنا لخلفية أصوات الشارع ويصيح: خناقة، يوضح إلى أي مدى نفتقد الإثارة في حياتنا، إثارة نحققها بمواجهاتنا اليومية الأشبه بتمارين رياضية، يتطور بعضها إلى حد التماس البدني الخطر، نخلق لحظاتنا المثيرة بأيدينا، نتمرغ فيها وندمنها بكل ما في الإدمان من ذنب واضطرارية. أفيق على نداء أبي بأن أُحضر الطعام للغلبانة العائدة، أستغفر الله وأعوذ به من الشيطان وأذهب إلى المطبخ.»

لا أعرف ما رأيكم، لكن كاريما نجحت في إنفاري من الأسرة بأكملها في هذا الجزء، رغم تعاطفي الواعي معهم، هم كجثة قط

صغير مدهوس على جانب الطريق تتعاطف معه لدرجة القرف الشديد من النظر إليه وتكره أن يُلفَت انتباهُك لتلك الجيفة المهترئة. أنهيت قراءة روايتها الرائجة ولا أتذكر نهايتها «السعيدة». لكني أتذكر شحنات القرف البارد التي احتجت أسابيع للتخلص منها.

لا أعرف كيف تجرؤ على وصف كتاباتها بالإيجابية، فكون حكاياتها تكشف بسهولة، كفيلم عربي ساذج ينبئك ببساطة عن مشهده التالي، لا يعني بالضرورة أن لقصصها نفس براءة أو عفوية الفيلم القديم. ورغم توفر الاثنين فقط بالأبيض والأسود وافتقادهما بهجة الألوان، فالفيلم حتما مظلوم في تلك المقارنة، لو كان له صوت لاعترض مدافعا عن نفسه أمام النقاد والجمهور، أمام كل من استخدم تلك المقارنة المفتراة:

ـ صحيح أنني متوقع وخال من الدهشة بالضبط ككتابات كارما، إلا إنني لا أدفعكم وأخبط صدوركم لأخذي على محمل الجد. لا أصرخ بتعقيدي الزائف وأنفاسي الكريهة في وجوهكم كما يفعل كتاب متكلف وصلب الغلاف. لست متعجرفا ولا كئيبا. لا أقاتل لأكون في المقدمة. على العكس، أنا لطيف وسطحي. أحب لعب دور خلفية مهمشة. لست صعبا أبدا، بل واضح للغاية ومفسر أكثر من مرة للتوكيد. حين أقول نهاية سعيدة فأنا أتحدث عادة عن زواج البطل والبطلة وليس عن مقتلهم في حادث مدبر وأليم، (يرمق الفيلم كارما بنظرة سريعة مُتهمة). أما كتب العزيزة كارما، فهي تطرح علينا إشكالية إنسانية نرجو أن تُفسر (يلتفت الفيلم القديم إليها بالسؤال مواصلا مرافعته): كيف لامرأة تحب أن تعرف بالنسوية أن تنتج إبداعا إباحيا وكارها للمرأة كذلك الذي تنتجه السيدة كارما؟ ماذا نجد في تلك الكتب؟ كل شخصياتها ضحايا غير معترف بهم، وكلهم تتوجهم بنهاية ندم قاتمة يسمونها سعيدة؟

على أية حال، بعد رابع نهاية سعيدة لها، بدأ كلا من النقاد والجمهور بالتململ طالبين منها التجديد. رفض الفيلم الأبيض والأسود التعليق.

الحكي

ما أسهل أن تكون شاهد عيان، لن تُسأل عن الكثير، فقط سيستدلون منك على موقعك في الحدث؟ ماذا رأيت؟ ماذا سمعت تحديدا؟ سيثقون في تقديرات حواسك بشكل مبالغ فيه، ويكتبون التاريخ بناء على رسائل كيمائية كهربائية أرسلها عقلك في لحظة غالبا ما تكون درامية جدا، مما يزيد احتمالات فساد تفسير تلك الرسائل، وتعلو نسبة الخطأ، ومع ذلك يظل شاهد العيان هو الحكاء المفضل والأكثر تضليلا للجموع. على الناحية الأخرى، سيتم سلخك وإغراقك بالتشككات والاتهامات لو أعدت حكي حدث ما لم تعاينه بنفسك، سيهين الناس نتائج أبحاثك وينتقدون اختياراتك وسيخوّنون مصادرك، لن يجدي معهم منطق تحاول بناءه وستشوى معلقا في سيخ احتمالات الخطأ والنواقص. ولهذا، ورغم كون حبيب جونفيف سريّ القصة والتاريخ، لم تجرؤ كارما أن تعطي نسخة قصتها عنه مباشرة للناشر، كانت تشعر أن هناك خطأ ما، مترددة قررت أن تُقرِأ قلب. هو ماهر في استخلاص الأخطاء على أية حال، وهي تعمدت أن تعري أخطاءها حتى أنها ابتدعت ذنوبا وهمية كتلك التي ترتكبها شخصيات قصصها، ذنوب لا تحدث بالصدفة نتيجة خطأ بريء أو عفوي، بل تحدث نتيجة زمن طويل

من التفكير الذهاني الملتوي. وبينما يؤكد غالي حتى آخر خطاباته لقلب أنه لم ينم مع كارما أبدا، فإن الأخيرة تفننت في نقش تفاصيل غرام أحمر على جبهة قلب، في لقاءين متباعدين ببرد سويسرا. طلب هو منها المساعدة في الأولى، غالي هو من طلب المساعدة من خلال قلب، فقد لعب الأخير دور دوبلير غالي بنفس راضية حتى وقع في حب كارما التي طلبت منه الدعم في المرة الثانية، وقادها شيطانها في المرتين لتكرر نفس الكذبة الهزلية؛ لقاءان اشترك فيهما النبيذ الأحمر والأحزان في جعل الحذر الفطري عند كل منهما يخبو ويعطي المغامرة بعض الاعتبار. في اللقاء الأول قبل السجن، كان حزن كارما على غالي ينافس حزن غالي عليها، أو هكذا بدا لقلب، قلب الذي يعرف أنه لم يفهمها أبدا حتى الآن لكنه يستشعرها جيدا، يظن أن لديه إمكانية النفاذ من السطح الخارجي الذي توقف عنده غالي، ليرى أنها تضحك رغم أنها موجوعة، لكنه لم يفهم أبعد. عن نفسي لا أظن أن شربها السريع للنبيذ وتحديقها في عينيه بتحد أمام نار مدفأة في تلك الليلة كان مرجعه حزنها لفراق غالي. لكن من أكون أنا لأقرر، أنا فقط أعيد حكي الحكاية، قلب هو شاهد العيان الوحيد وهو مقتنع أن كارما كانت تتعذب لافتقادها أحضان غالي حين بدأت تهمس له بتفاصيل أول ليلة لهما معا. لم يشك قلب لحظة رغم توقه للفكرة، أنها ربما تصف الليلة التي تحب أن تجمعهما ـ كارما وإياه ـ سويا. اعتصره الألم والرغبة ممتزجة مع النبيذ حتى كاد يفقد الوعي، كان يسمع اللمسات وينظر لشفتيها السكرانة بين زجاجات النبيذ الفارغة بينهما ويختلط عليه الأمر، لماذا عليه ألا يقبل هذي الشفاه؟ تعيده الكلمات الواضحة والتفاصيل المدهشة إلى الواقع الأليم، فكارما حبيبة غالي، وفيلم البورنو الممتع ذاك الذي ينساب بين شفتيها تم تصويره بالممثل الأصلي. ولما وضعت يدها على فخذه أبعدها ببرود رافضا لأول مرة أن يقوم بدور دوبلير غالي، ولم يكن الدافع الأخلاقي مؤثرا في قرار

الرفض بقدر تأثير الكبرياء، أو القرف، كمراهق يشترك مع أصدقائه في استئجار عاهرة ثم يرفض الدخول معها، رغم توقه لتجربة الجنس، ورغم نقوده التي لن يستعيدها ينسحب المراهق لأن زملاءه رفضوا أن يبدأ أولا.

اللقاء الثاني كان بعد السجن، أصبح قلب كهل النفس فلم يتأثر بحكاياتها، كما أنه لم يعد متأكدا أيضا إن كانت صادقة، أم أن غالي يكذب في خطاباته. ومع أن غالي كان يكذب في حياته كما يتنفس، لكن قلب كان ميالا لتصديق ما كتب، لقد اعترف الرجل بأخطاء مخزية لم يرتكبها فلماذا ينكر ليلة هامة يتوق إليها وتمثل انتصاره على فريسته، أو حبيبته كارما؟ جونفيف حديثة في قبرها ولم ينهوا بعد زجاجة النبيذ الأولى وكارما تصف كيف كان غالي يتفنن في التهامها. يختفي صوتها بينما يكبر وجهها ويقترب أمام عيني قلب، لازالت كما هي لم تتغير أبدا، حاجبان مرفوعان بشكل شبه دائم في دهشة خفيفة تعطي انطباعا خاطئا بالبراءة وخمول الخيال، لكن حين تدقق في عينيها تخبرانك أنها لا تهتم بك أبدا، فليدهسك قطار أمامها الآن ولتتفتت إلى ألف قطعة، كارما لن تتأثر أبدا.

كابوس الكتابة

ولأن أغلب الكتاب يرفضون أن يواجهونا بالحقيقة الكاملة، لأنهم يرفضون الاعتراف ببساطة أن ليس ثم رابط في كتاباتهم ولا مدلول ولا هدف كبير، يقعون في مأزقهم الخطير، كابوسهم المرعب.

الكاتب واقف على منصة ضيقة وعالية، عالية ربما أكثر من اللازم مما يخيفه قليلا ويدفعه للتوازن في المنتصف تماما. الجموع المحتشدة في كل اتجاه تحته تهدر بالسؤال، إشمعنى دا؟ إشمعنى دا؟ يتأمل الكاتب

الكتابة في الورقة المكرمشة في يده: أنا أؤمن بأنه إن كان لهذا الكتاب أي أهمية، فإنها تنبع من تلك الذات مليئة القيمة التي تعلو وسطكم، تلك الذات الفاهمة العطرة، ذاتي.

الكاتب يعلم أن الجموع لن تهلل ولن تبارك هذا التصريح المريض الذي يعلم الله كم هو حقيقي. ينقل الكاتب بصره بتوتر بين الجموع المهللة، تزيد من توتره العدسات والشعارات الملونة للقنوات التلفزيونية المكدسة أمامه في هيئة ميكروفونات تعكس الشمس وتحجب الرؤية، تفزعه طائرة عمودية تدور في الأعلى، ينتبه ثانية للورقة المتسخة المتآكلة في يده، لم تكن بهذا الاهتراء منذ ثوان، ماذا فعل؟ ماذا يفعل؟ يتجاهل الكاتب شعوره القوي بالغثيان ورجفاته مُقررا الحديث أخيرا للجمهور. لم تخرج منه الكلمات فخمة، متفاخرة أو شجاعة، لم ينه إجابته بنبرة عالية ومقطومة تثير التصفيق، بل قرأ الورقة المرتعشة في يده دون أن يرفع عينيه عنها نهائيا، تغلف جسده طاقة اعتذار مُحرَجَ وضعف حقيقي يظهر في صوت يأبى الخروج. كقائد يعترف بالهزيمة في فيلم صامت قبل أن تفتك به الجماهير، يكاد يبكي من المهانة والخوف. يصحو الكاتب مخنوقا من كابوسه ليكمل اختلاق أسباب لائقة للكتابة.

يوميات الغربة الواحدة قبل الألف

يوم ما (١)

كان قلب في زنزانته الضيقة قد بات عاجزاً منذ فترة عن تحديد الوقت، الضوء لا يأتي منذ شهور إلى قَلايته الساخنة. الآن يُضَيع الوقت في الهذيان، «أوبرا وينفرى» تقدم الحاصل على جائزة نوبل للسلام هذا العام. يظهر هو، بتواضع وخفة ظل فيحتدم التصفيق. يراقبه الحارس من فتحة مستطيلة ضيقة في الباب، يُحدث قلب نفسه بعظمة ويضحك بتثاقل رأس مهتز، يصفق بأعصاب مهزوزة كمن يحيي الجموع، يبعد الحارس عينيه عن الفتحة ويدس فيها رغيف عيش ضاحكاً:

ـ براوة ع اللي خلفتك.

قبل أن يقفل الفتحة تاركاً الرغيف على الأرض أمام قلب الذي استمر في الهمهمة والضحك:

ـ كنت متأكدة انك قاومت سحري لسبب وجيه.

قال طيف جونفيف واقفا على الباب المفتوح الآن على أضواء

راقية، فستانها يتطاير في الزنزانة بكل الألوان، تحمل كيسا ورقيا ملفوفا بعناية: ـ إنتي جايبة لي نبيت؟

تضحك جونفيف ضحكتها العالية:

ـ لا طبعا، دي شمبانيا... هنحتفل.

سهر قلب ليلتها مع أوبرا وينفري وغالي وجونفيف يرتشفون زجاجة خمر لا تنتهي أبدا. كان المرح سائدا والصورة في عينيه كأفلام الستينات المنزلية المشرقة الملونة المليئة بالعيوب. صراخ فرح، ألعاب، أطفال وجوائز ومفاجآت، بعض المناقشات العقلانية للبالغين، حفلات شواء في الجبال، والكثير من النبيذ هو كل ما استدعاه قلب ليبقى حيا في تلك الليالي.

يوم ما (٢)

لم أكتب منذ أسابيع، نجحت خطة قلب وانشغلت بالطين والدولاب عن قصصه وحكاياته. لا تختلف جلستي الآن وسط الفخار الملون الحار عن جلستي أمام الدفاتر المكدسة في غرفتي، كل ملف يحمل اسم شخصية وأجزاء منتشلة من ذاكرة قلب المكسورة. لا بد أن أختار الآن من سيصعد معي من هذه الشخصيات للجولة الجديدة، حيرة كبيرة.

يقول أن السجن كماكينة سجق كرتونية، تدخل بقرة من ناحية، لتخرج سجق من الناحية الأخرى، سجق يساوي ويحتوي على كل ما كون البقرة، إلا أنه لا يشبهها في شيء. يضحك كثيرا، أراه في صوره القديمة مطلقا لحيته، ثم كره عجزه عن حلاقتها في السجن، هو الآن حريص على طقس الحلاقة الصباحي، قلب الذي لم أعرفه دخل إلى المعتقل ليخرج قلب الذي أتعرف إليه الآن، لكنه لم يعد يتذكر نفسه.

يقول أنه لم يفقد ذاكرته، هو فقط لا يجدها مرتبة، ذاكرته مقطعة ومتناثرة في خلايا البقرة التي صارت سجقا. ذكرى واحدة تائهة، اثنتان أو مائة، لا يعرف تحديدا، لكنه يعرف أنها مخبأة في سجقة ما لا يُحمنها. يرفع رأسه ويتوقف عن الكلام مركزا نظره في نور المصباح، إما أنه سيعطس أو أنه يطارد ذكرى تستعصي عليه. يضحك ضحكة يأس مغتاظة من بين أسنانه المضغوطة ويقول: لا ليست تلك السجقة، لما أطبخ السجقة التالية سأجد الخاتم.

ـ أنت تخلط بين السمك والسجق، هل أنت جوعان؟

أحب مشاكسته كما يحب مشاكستي. تركني ليدخل في حاسوبه الحبيب؛ لديه مائة وعشرون ألف متابع على تويتر وصديق واحد حقيقي مغترب وصديقة بالمراسلة تدعى لمياء بالإضافة طبعا إلى كارما، التي ستُعرِف نفسها لأني لا أجد لها تعريفا. هي صديقة قلب فقط إذا ما ثبت إمكانية مصادقة الإنسان لمرض مزمن كالسكر، مؤلم كالصداع النصفي، أو منهك كالفشل الكلوي، ولكن هذا موضوع آخر. على الأقل قلب الآن خارج قوقعته التي وجدته بداخلها، أن يخرج مع كارما أفضل من أن لا يخرج على الإطلاق.

لو يخرج القديمُ أيضا من عتمة النسيان ويقدم نفسه إلي كما فعل قلب الجديد، لو يرمي أمامي كل تاريخه اعترافا أنظف من تلك الأوراق المتسخة: كسرات صور، تفاصيل حكي، وتداوين منقولة. رمى أمامي على الأرض حياته مختلطة بحياوات أناس لا أعرفهم، رماها غاضبا، عنيفا، كمن يشعر بالذل لإرغامه على السماح بانتهاك حرماتهم، وكأنه يفتح قبر الكلمات للنباشين.

ـ لو هتساعدك تشوفي لمحة تريحك من قلب الأصلي اللي عايزة تعرفيه اتفضلي، لما تخلصي تقدري تبدأي ساعتها في التعرف على البني آدم الموجود هنا دلوقت.

يقلب أمامي أكواما من الدفاتر والرسائل والقصاصات ويمضي.

يغضب. يظنني لا أقيمه كما هو، أُنكره كما أنكرت أمه أباه، أنكره لصالح رواية أخرى تعجبني أكثر، وتقنعني أكثر حتى لو لم تكن حقيقية، تماما كما اعتنق هو قصة والد غالي عن والده، تلك القصة التي تملك أمه نسخا عديدة غيرها، بعضها خيالي وبعضها به لمحة من حقيقة، إلا أن قلب اختار الحقيقة التي تعجبه وسكن إليها. أنا لست راضية مثله، أريد اختبار كل الروايات لتتكثف روايتي الخاصة. لا يفهم احتياجي لبناء قصته كاملة في ذهني لأسكن قصتي، البناء الموجود الآن تبدو خارطته كخطأ مطبعي كبير أو كلوحة لإيشر، غرف بلا مداخل، أروقة طويلة لا تفضي إلى شيء، سلالم تصعد إلى حيث تبدأ، مقابض بلا أبواب ونوافذ بلا جدران تحوطها، شلال يسقط لأعلى وزوايا ميل مستحيلة. لا يستقيم أن ترى نفسك رسما مربكا.

الغموض هالة ترتديها أمام الناس وتخلعها مع نفسك وإلا تتحول إلى سيف ناري، يقتطع منك أعضاء بت لا تشعر بها ليرميها في النيل، أو ليأكلها، لا فارق، هو الفقدان في الحالتين. أريد استرجاع إحساسي بتلك الأعضاء المفقودة مني ومن قلب، فالفقدان يورث كالسمعة والتاريخ، أليس هذا جزءا من معرفتنا لذواتنا؟ هل هناك بشر بلا تاريخ؟ حتى الآلهة يحتاجون تاريخا.

يوم ما (٣)

طرق خفيف على باب حجرتي، يسألني مباشرة:

ـ عايزة إيه علشان عيد ميلادك؟

أنظر إليه بقوة:

ـ مفيش اختيارات؟

يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ اخلصي يا حبيبتي.

أستجمع شجاعتي:

ـ عايزة أسافر سويسرا، عايزة أقابل غالي.

فجأة شعرت بمدى غرابة تلك الأمنية، ثواني الصمت التي تبعت سؤالي كانت هي الأثقل، تعبيراته غير مقروءة لكن من عينيه رأيت ذهنه يجري بسرعة في كل الاتجاهات. لم يقل شيئا، تحركت شفتاه بكلمة غير مسموعة ثم هز ذراعه ومضى. بكيت في تلك الليلة لأول مرة منذ سنين، لم أكن قد بكيت أمي بعد، لكني بكيتها تلك الليلة مع أشياء أخرى فقدتها.

يوما ما ـ غير مرقم

أخبرني أن جونفيف قالت أن والد كارما أهداها سيارة في عيد ميلادها، سيارة صغيرة وسريعة، صفراء ككتكوت ناضج، كانت تسرع بها على كورنيش جنيف ومنحنيات برن. كان ذلك بعد وفاة والدتها الأكثر تزمتا. تعلمت الحرية لما تعلمت القيادة. بدأ الأب يندم قليلا على هديته حين تأخرت كارما عن موعدها التاريخي للوصول إلى المنزل، موعد سندريلا ناقص واحد، الحادية عشرة. تحررت من مواعيد المواصلات العامة وطارت بعربتها من طريق لآخر تحلم بصور مجنونة. تضحك جونفيف، لكن أوان الندم كان قد فات، تماما كما فات زمن الأب العجوز الذي ضعفت صحته

وهمته فلا يقف أمام الشابة العفية ومات بعد شهور. باعت عربتها وجاءت إلى مصر لتكتب هذيانها المجنون، تضحك جونفيف عاليا. دائما ما كانت تضحك ضحكة رائقة ولامعة حين تتحدث عن كارما، وتدعوها بحبيبتها، تستكمل: الأستاذ إبراهيم كان رجلا مسكينا وضعته الظروف أمام تلك المجنونة، كانت تجلس بجانبه وتتحرش به حتى مل الرجل الشريف، فرماها فريسة لغابة السيارات المذعورة ليشغل يديها وعقلها بشيء آخر غير العبث بجسدها بلا مبرر غير إثارته، قادت السيارة بسلاسة ضايقت الأستاذ إبراهيم المسكين. عرفَت كارما الأستاذ إبراهيم على جونفيف لاحقا، كان أعزب لم يسبق له الزواج، لكننا لا نعرف كيف امتدت علاقتهما ولا كيف انتهت.

سحر الكلمة

ظهرت الكلمة نايا سحريا عملاقا يعزف نفسه ويتمايل فتسقط منه كلمة تتبعها كلمة. تلتقط الإنسانية الكلمة ويعجبها الطعم، كلمة وراء أخرى يخلفها الناي وهو يتحرك، فتنكب وراءه على طريق تعلمت أنه الأمام المحبوب المتخيل، تغترب منحنية تتبع الناي تاركة وراءها الطبيعة تبكي الجهل والخيبة. الإنسانية لا تهتم لنواح الطبيعة، لا ترى السحر في الناي ولا تراقب نفسها، تغتر بالكلمات وفنونها فتغرق بعيدا عن أصول ذواتها.

أمسك كتابه الأخير وأندهش، كيف يكتب عني وعن نفسه وكارما بهذا التعري، كيف يتخلى عن كل شعور شخصي بالمهانة ويفضح احتمالات نقصاننا بهذه الشجاعة، شفقتي عليه زادت مع كلمة قرأتها من يوميات غربته، يؤلمني استعداده الكامل للتخلي عن عالمه ليجمع الكلمات، يمشي بالفعل منحنيا وناظرا بين قدميه. تبدو لي الكتابة الآن فعلا شريرا ومؤذيا، قلب يحب الكتابة ويخشاها، كممارس للسحر الأسود يعلم أن مع كل انتصار لسحره يعمق قبره ويقترب منه. أنا على العكس، الكتابة في حياتي ظهرت كالرقية

والبخور، تبعد الأرواح الشريرة وتسلسلها، أنا لا أمارس سحرا سفليا بالكتابة، بل أحاول إبطال هذا السحر.

رجع الصوت ـ التواصل هو الحل

كتبت لمياء في إحدى خطاباتها لقلب «أكره الشارع والناس» لا عجب أنها تعيش الآن في الأدغال، تقول:

«إن انعدام المنطق يقتلني، أفهم أن لكل تصرف ما يبرره من منطق، قد يكون منطقا معيبا، منحرفا أو مشوها لكنه يظل منطقا، غير مفهوم وبعيد، يحرقني عذابا إلى أن أجده وأتعرف عليه حتى لو لم أستسغه أو أتعاطف معه، فقط أحتاج لمعرفة ماهية هذا المنطق الملعون.»

«لعنتي أنا يا قلب ليست الخجل، بل الغضب. أنعزل عن الناس لأنهم ينفخونني بغضب أسود ثقيل، يملأني كما ثعبان محشور في جلد وَجَبَ تغييره. كلما عزَ علي فهم منطقهم يطغى علي الغضب فيؤلمني، ولطالما أغضبني حبي لك.»

«قد يفسد يومي أو أسبوعي حادث واحد عابر يعتبره سكان المدينة اللغز صغيرا، ملعونة هي النفوس التي لا تتسامح، يأكل الغِل أحشاءك ويقترب العنف الذي تكرهه ويبدأ ودودا وجسورا، تبكي نفسك مرات عديدة على صدره وتفقد الرغبة في الفعل، هذا ما عانيته في مدينة لا ترحم أحد. أصبح اختفائي أمنية، حين بات من العسير تحمل رؤية الآخرين.»

أقرأ الخطاب وأتذكر خيرية، جاموستنا الأحب إلى قلبي. لكم كانت أنيسة تلك البهيمة ومبهجة! كانت آخر عهدي بحب الشوارع والمشي فيها، كنا نسير جنبا إلى جنب، فتاة مراهقة بضفيرتين، وجاموسة

شابة بقرنين. لم أكن أسحبها كما يفعل باقي العيال بجواميسهم، فخيرية لم تكن كأي جاموسة أخرى، كانت كالحمير تحفظ البيوت والعناوين، كانت تقف أمام باب الزبون فأنادي أنا على اللبن. أخرج مع خيرية في أيام الجمع، عطلات المدرسة، أيام الانتخابات والعيد، أمشي بجانبها فخورة وآمنة؛ كانت تحرسني ككلب، تخور بزومة مخيفة كلما ضايقني ولد. كانت خيرية آخر عهدي بالاطمئنان. كأية جاموسة أخرى، بيعت في السوق بعد أن شح لبنها وخلفت لنا ثورا وجاموستين تم بيعهم جميعا. رحلت خيرية فلم أسم جاموسة بعدها أبدا، وكلما تخيلتها تذبح في تجمع بالسوق، أعاف أكل اللحم، هكذا صرت نباتية.

عقدة الراوي ـ الكذب هو الحل

الجموع تفضل التصريحات الكاذبة الصحية، كما تفضل رواية ذات ترتيب نموذجي وبناء متوقع. افتتاحية تبدو مشوقة وتبدو لي مصنوعة، ثم سلاسل التبريرات. أسميها عقدة الراوي، الراوي المسكين يريد أن يكتب قصصا عن أناس لا يعرفهم لسبب يجهله تماما، يُرجع من حوله ركونه للكتابة إلى كسله وعدم حماسته للخروج إلى العالم ليبحث عن عمل حقيقي، تماما كما وُبخ إنسان الكهف على إضاعة وقت الصيد الثمين في جمع الألوان.

الكاتب يريد أن يجدد ويندهش، يريد أن يغوص ويلمس ويصور تلك الكائنات الخرافية التي تعيش على عمق كيلومترات تحت سطح النفس البشرية، أن ينشر الدهشة عبر عكس عوالم لا يود بالضرورة الاختلاط فيها، وأيضا دون تواصل حقيقي مع من يدهشهم. يريد كتابة رواية جديدة جدا إلى الحد الذي لا يُغضب الأساتذة الذين

سيناقشون ما يكتب لدرجة تُرمى بها روايته من جنة تصنيف الرواية إلى المجهول.

يسائل أخونا الراوي نفسه كثيرا ويجاوبها، هل أعرف حقا ما أكتب عنه؟ نعم، نعم أعرف ما أكتب عنه. صاحبنا المبلبل مشغول بتبرير ولعه بالتأليف لقرائه ولأصدقائه ولنفسه عن الكتابة نفسها.

كابوس كارما

أكثر أحلامها رعبا دخل حياتها مع تعبير الثورة المضادة، تبدو بشعرها المفرود وبذلتها كموظفة غالية ومتحفظة، ابتسامتها تتأرجح بين الخوف وبرود أدب خادمي العملاء. لا أرى المحقق لكن كلماته تلتف حول كلماتها كثعبان، كمحام ضلالي تتقمصه روح صوت عبد المطلب. المشهد الأول والأخير: كارما على كرسي مكتب تنزلق في أرجاء مكان، حوائط عالية لا يظهر لها سقف، مقسمة إلى شاشات، ونوافذ مغطاة بسلك معدني وقضبان ومن خلفها لا شيء، مكاتب كثيرة تتناثر في المكان ولا تملؤه. تتأمل في انزلاقها الأضواء الملونة في فراغ السقف المظلم بوجه طفل رضيع ويد تحرص ألا تطير تنورتها، مذهولة في ذلك المكان الذي تتجمع فيه صفات زنزانة، استوديو تصوير، ومكتب إداري تتزايد فيه معدلات الانتحار. فجأة يغمرها ضوء قوي، ترفع كفيها لتحمي عينيها فتفاجأ بنظارات كبيرة، كعدسات ضخمة تلملم كل الضوء لتضرب شبكيتها. كارما لا تلبس نظارات، قلب يلبس النظارات... تتوجع فيختلط أنينها بصوت مجسم وعال يشع من كل مكان: ثابت، أكشن، سبيد. فورا يتحرك بها الكرسي لبقعة محددة على الأرض، علامة إكس كبيرة وحمراء تقف عليها دون أن تراها. ورغم عماها المؤقت، تتخذ وضعية مذيعة أخبار

على الهواء، مشدودة الظهر وجامدة الوجه، عيناها المفتوحتان لا ترين أبعد من شاشة أمام وجهها. رعبها يظهر من انتفاضات جسدها، تظن أنها ستموت نتيجة قصف مفاجئ للاستوديو.

تعرض الشاشات أمامها مشاهد لكائنات خرافية من أعماق المحيط ودببة قطبية. تحافظ على مظهرها أمام كاميرا لا تراها وتسمع هدير الجماهير، صوت المحقق/ المذيع:

ـ دي مش أول مرة نتقابل، اتقابلنا قبل كده، في مواقف مشابهة، مشابهة قوي.

تكاد تسمع ابتسامته الخبيثة. تتردد قليلا، لا تفهم إن كان الصوت لمحقق يسأل أو لمعلق رياضي، تتعالى أصوات الجماهير كل مرة في نهاية حديثه، تتغير الصور على كل الشاشات إلى بطاريق تتدافع وتسقط من أعلى صخرة مهيبة للمحيط، تتزاحم على الشاشة بطاريق مجبرة على القفز ومذعورة تدفع بعضها بعضا في اتجاه الهاوية. لحظات من الرعب يعيشها البطريق المقذوف من أعلى حتى يلامس الماء ويفهم أنه لم يمت، فينطلق عائدا إلى الهواء ويسبح بفرح الناجين من الموت.

يوقظ كارما صوت الجماهير الخفية السعيدة، هيييه هيييه، ثم يهدأ كل شيء. يقول الصوت بأداء المحقق:

ـ لكن اليوم غير أي يوم.

صمت.

ـ ممكن تقربي؟

تنظر حولها ولا تعرف إلى أين تتجه، فصوته ينبعث من كل اتجاه. آمرا، قربي، قربي كمان، كانت كل كلمة منه تحمل وقع اتهام خطير ومثبت. كان تعرق كارما يزداد مع تصلب ظهرها في محاولاتها إيجاد

البقعة التي يقصدها الصوت. تتبع بقع الضوء المتغيرة على الأرض مجدفة بقدميها إلى أن تضرب إحداها هاوية، يختل توازنها وتقفز من الكرسي قبل أن يسقط في العمق الخرافي وتقف سريعا. ضحكات مسجلة وأخري حية. في الظلمة خلف الأنوار يجلس جمهور ما أو يقف. يضربها جسم من الخلف، تلتفت للكرسي ذي العجل ذاته الذي سقط في هاوية. الظلام يعود إليها، تنظر حولها، ليس ثم شيء غير الفراغ، لكنها تشعر بأنفاسهم خلف الأضواء المبهرة. تنظف المقعد بطرف جيبتها قبل أن تجلس على طرف الهاوية وتتأسف للصوت. تشعر بالضعف. يضحك الجمهور ويقول الصوت بأداء معلق كروي:

ـ ما يهمكيش، لكن يهمنا نعرف

بنبص عليكي ولازم نعرف، إيه يا ترى اللي

اللي جري؟ وإيه يا ترى اللي

ياترى حصل؟

تهز رأسها، لا شيء يحدث معي، أنا أكتب مسرحية. فكرت كارما فرد عليا الصوت كمن يعلن فوزه في مباراة هامة:

ـ إذن فصديقتنا تكتب قصة. تنطق كارما أخيرا:

ـ مش قصة، باكتب مسرحية.

يضحك الصوت ضحكة خليعة ويصمت الجمهور، تختفي المكاتب والأرض وتحتجزها بقعة الضوء اللعينة وتربط كفيها وقدميها بالكرسي اللعين، تدفع الكرسي أيادي خفية فتجري عجلاته بلا فرامل، تصرخ من الخوف ويصفق الجمهور على الإيقاع المتسارع للاستعراض. يتوقف الكرسي المتحرك فجأة كما يتوقف تصفيق

الجمهور، كأن يدا برزت من الأرض وثبتت كارما، ثم أدارتها لتواجه الوجوه الشامتة لجمهورها، يقول الصوت:

ـ هل تعلمون مما تستلهم صديقتنا روايتها؟

تهمهم:

ـ مسرحيتي... يقاطعها الصوت:

ـ اخرسي، أيتها الفاسقة.

ويدور الكرسي حول نفسه بسرعة مستحيلة. في طريقها للإغماء كان هناك غثيان شديد، سمعت الصوت يعلن عن علاقة ما تكتب بمواقع الاعترافات المشبوهة، وعن إدمانها كشف أشنع عورات الناس. ولما زادت شهقات الجمهور وصيحات استنكارهم، لمحت صورتها الضخمة تستمني على الحائط بينما تقف جدتها في الخلفية مبتسمة بود. يعود الغثيان وتظلم الدنيا، تصحو كئيبة ومحملة بالذنب فتحادث قلب لتسلى.

وقع العادة

لا أحب كارما لكني لن أحاكم كتابتها كما يفعل قلب، فقط أحاول أن أعرفكم عليها من خلال كتابتها. ليست كتابتها في ذاتها، بل عن طريق تحليل عاداتها في الكتابة؛ فلكل كاتب طقوس محددة للكتابة قد تتكشف منها شخصيته. أنا مثلا أكتب على الورق باللون الأزرق، تلك طريقتي للانفصال عما أكتبه وإعادة استقباله بهدوء، بتفادي اللون الأسود شديد الوضوح والتضاد مع بياض الورقة. واللجوء إلى اللون الأزرق، الذي يبدو أكثر بهتانا وأقل تحديدا خاصة على الورق المصفر قليلا، حيلة أتجاوز بها علاقتي بما أكتب وأنفصل عما يتسرب مني إلى الكتابة، فلما أعاود قراءة ما أكتب، لا يضايقني كونه محض هراء؛ فاللون الهادئ هذا يليق به كثيرا ويضفي عليه مسحة هزلية، فلا شيء أسوأ من هراء مأطر بالأسود البارز السميك، حتى الكتابات الفضائحية تفقد الكثير من رخصها حين تكتب بالأزرق؛ يصبح الرخص سريا ولذيذا كتلصصك من شباك خلفي على جارة تستحم، أو كخطابات غالي الذي كان يكتب بالأزرق. عشيق جونفيف أيضا كتب دفاتره بالأزرق. قلب كان يكتب بالرصاص والآن يكتب مباشرة على حاسوبه. أما كارما، ولأنها منفصلة أصلا عما تكتب، فهي تفضل قلم الحبر الأسود الثقيل، تكتب على صفحة

وتترك صفحة لتشرب بقع الحبر. لكنها مؤخرا، ومنذ عودتها من سويسرا، وحدها بقع الحبر تملأ دفاترها. قبل أن تقابل جونفيف عجزت عن الكتابة لشهور، لكن تلك قصة أخرى.

عادت كارما إلى القاهرة في نفس اليوم الذي التقيت أنا فيه قلب، يا للمصادفة! للأسف، كلما طالت رحلتي في ذاكرته كبر حجم المساحة التي تحتلها تلك الكارما في كادر حياتي.

المقارنة معي ليست مجدية، فأنا لست كاتبة محترفة مثلها ولم تنشر لي كتب من قبل، قلب مثلا لا يعتبرني كاتبة على الإطلاق، هو يصر أني خزافة.

حسنا، فلنأخذ عاداته هو في الكتابة كمثال، سنجد اختلافات فارقة وكبيرة بين قلب الكاتب وكارما الكاتبة: هي تدخل المعارك في حياتها الواقعية وتتجنبها حين تكتب، تكتب لتبتعد عن حياتها الآنية لربما تلتقي نفسها في عوالم أخرى، بينما يكتب قلب ليقترب من عالمه الآني لربما يفارق نفسه ويتحد بالعالم، يكتب ليواجه ويفتح معارك خيالية بديلة عن تلك التي يهرب منها في واقعه. ورث الهروب من أبيه كما ورث حقيبة سفره الخشبية، كان متشابها أكثر مما يجب مع أب لا يستطيع تذكر ملامحه خارج تلك الصور المتآكلة النادرة التي كبرت معه، لكنه كان يكتب ليستعير صفات بطولة شخصية ذلك الأب المفقود. عندما يكتب يقبض كفه بتوتر تماما كما كان غالي المراهق يفعل حينما يسير إلى معركة، يقبض كفه بقوة ويكتب بإيقاع كالإملاء، متتابع، منتظم وواضح، مصدرا جبهته للأمام كتيس يستعد للنطح. جسده يختلف حين يتحدث إلى الناس، يرجع رأسه قليلا إلى الوراء كأنه يستقبل كرة طائرة بالرأس، يضع وجهه في الأرض حين يكون غير مستعد لاستلام أفكار محدّثه، لا أراه يكتب إلا في مكان ضعيف الإضاءة، يجلس وحيدا مستحضرا روح أبيه لينفصل عن العالم

ويطفو فوقه كطائرة ورقية لا يربطها بالأرض سوى خيط، كثيرا ما شعرت أنني أصبحت هذا الخيط الذي يعيده لعالمنا بعد كل تحليقة، كنت أشعر أني من ينقذه من مصير طائرة ورقية رقيقة تمزقها أيادي الريح دون أن يشد خيطها أحد.

عكسي، جلست كارما مفصولة عن العالم في كبسولتها تراقب سقوط الطائرة الورقية، في مكان لا تبصره كمن يتابع سقوط شهاب، هي التي اعتادت الكتابة في زحام المقاهي محمية في غلافها الوهمي، في سفينتها الفضائية الخيالية، تحب أن تعيش وسط الناس كغريبة غير ملحوظة لتسهل خداع أرواحهم؛ فهي تعيش لتسبي أرواح الناس وتحبسها في زجاجات صغيرة معلقة في خصرها ثم تُعيد تدويرهم في عوالمها الغريبة. في المنزل تكتب جالسة في حديقتها الصغيرة أو أمام شباك مفتوح، أي مكان يسمح لها بالتوجه بوجهها إلى السماء، كأنما تستلهم الكتابة من أقربائها الكائنات الفضائية، ترتعش مغمضة وتهمهم بتعويذات غير مفهومة، سرعان ما تترجم إلى قصص على الورق.

لا يعتبر قلب كتاباته انعكاسا له أو حتى تعبيرا عن خصوصيته وتفرد وجهة نظره بالضرورة. أبدا، يؤمن أن الأفكار تنثر على الأرض بلا تمييز لتلتقطها أدمغة محظوظة، متواضع جدا. لا أستطيع تخيله يغني لصورته في الحمام عازفا على جيتار وهمي: ما حصلتش يا واد يا واد محصلتش. أبدا، رغم أنه كان يشعر أحيانا أنه ما حصلش. عندما يكتب كان يُملأ بالفخر، ينتشي بامتلاء الصفحات واحدة بعد الأخرى، حتى لو لم ينشرها، حتى لو لم يقرأها أحد غيره. لا يهتم قلب بنقل هذا الفخر والتفاخر به ـ فخر الكتابة ـ لأي كان إلا لروح أبيه. قايض حياته ليستبدلها بحروف مرتبة تطارد ذكرى أبيه أينما حلت. لم يتأكد أبدا من موت أبيه، لكنه يعرف أن روحه قادرة

على التجوال حتى لو كان الجسد التعيس مازال حيا. الكلمات مصيدة جاهزة دوما لملاحقة روح أبيه وأسرها كصديقة.

بمجرد أن ينقل الفكرة إلى الورق، يشعر أنه قد أنهى مهمته، ويتحول الكتاب إلى إنجاز له كينونة منفصلة لا فضل له عليها، فهو تغير والكتب لا تتغير. عملية الكتابة هي ما كانت تصلها، وعند انقطاعها تنقطع العلاقة بين قلب وكتابه. لا يعتني بنشر كتبه، لم يراجع غلافا قط ولم يهد أو يحتفظ بنسخ من كتبه أبدا، بعكس كارما التي تتدخل في كل فنيات الطباعة وتطلب تعديلات للغلاف مرات عديدة، لا تشعر بالفخر إلا بعد أن تباع آخر نسخة وتصدر طبعة ثانية وثالثة. كان فخرها للاستهلاك الخارجي فقط، تقرأ نقدا إيجابيا في أغلب الصحف لكنها تعرف أن كتابة أخرى حقيقية تحيا في كتب قلب وتخرج لسانها لتغيظها قائلة بين دخان وسحب تغطيها:

ـ تحيين الكتب فاخرة الطباعة رغم ثقلها؟ إذن فلتحملي قيمك وكتبك إلى الأبد.

تنهي الكتابة كلامها بنفخ سحابة لامعة لتبلع كارما التي تحاول الهروب يسبقها سعال قاس واختناق، حمل ثقيل يئن تحت جلدها الذي ينمو في كل الاتجاهات رقيقا كصفحات الكتب أو متكلسا كأغلفة أنيقة من الأظافر. كان الشعر يبرز من مسامات الصفحات راسما المئات من العيون المنمنمة الدقيقة، كل كتب كارما نمت زوائد فوق جلدها وبدت بشعة كوحش.

نهار خارجي

تتعلم كارما قيادة السيارات، تركب سيارة توحي بالارتخاء والبلادة تماما كمدربها العجوز، وجهه بلا تعبير على الإطلاق، وجهه الأسمر

يناقض شعر رأسه الأبيض المرتفع ككومة من القطن. تفاخر في أول درس بعلاقة عائلية تربطه بمنير وسب الحكومة ثم التزم الصمت من يومها، فقط بعض التحذيرات والتعليمات يقولها بنفس النبرة والأداء، كأنها رسائل مسجلة لأفعال أمر: خدي شمالك، كسرتك، لمتك، مرايتك، لمي، اكسري، لمي، إشارتك، يمينك، فراملك، اطلعي منه. اسمه إبراهيم، كان يعرف نفسه بأستاذ إبراهيم. حيته كارما يوما: صباح الخير يا إبراهيم، ضاقت عينا الرجل وجمد في مكانه. شعرت كارما بسخونة الإحراج وأُجبرت على الإعادة: صباح الخير يا أستاذ إبراهيم، فرد تحيتها بهزة بطيئة من رأسه ودار حول السيارة ليترك لها مقعد السائق. ارتعبت، جلست أمام المقود وهي تعرف أن الأستاذ إبراهيم ينتقم منها بتعجيل هذا الدرس. تربط حزام الأمان وتتنفس، تشعر أنها غير مستعدة لكن كبرياءها يمنعها من استجداء الرجل الصلب على المقعد المجاور. بعد دقيقة من الصمت مدت يدا ثابتة ووضعت المفاتيح وأدارتها.

كان إبراهيم هو المعلم الثاني لكارما، الأول كان سيدة تدعى وهيبة، لطيفة للغاية بنظارتها الكبيرة ووجهها وجسدها المستديرين، كانت تسخر وتضحك من نفسها كل مرة تنحشر أمام المقود بجانب كارما: معلهش، همة حصتين وبعدين تيجي مكاني، قعدتي أسهل جنب السواق.

لكن بعد شهرين من الدروس كانت نصيحة وهيبة لكارما أن توظف سائقا وتتوقف عن التعلم. سكتت قليلا حين رأت خيبة الأمل على وجه كارما واستطردت، عليك وعلى الأستاذ إبراهيم.

اندهشتُ؛ كنت أتخيل أن كارما بنت الباشاوات تقود السيارات كمحترفة منذ طفولتها المتأخرة، لكن يبدو أنها تعلمت القيادة في

مصر على عربة فيات ١٢٨ لا أظن أن أحدا ممن جاوروها سابقا في قطارات سويسرا قد توقع هذا المستقبل للفتاة الهادئة ذات الملابس الغالية على المقعد المجاور، أن تتعلم قيادة السيارات في سيارة أثرية في مدينة عشوائية. حين تقرأ وصف غالي لكارما وعلاقتها بسيارتها تظن أنها قائدة ماهرة. كلما قرأت ما كتبه غالي عن كارما أتأكد أنه لم يعرفها أبدا كما أتأكد أنها مخادعة.

الكينونة كلمة

أحببت الكلمات لأننا نادرا ما نعاصر موتها، أستوعب أن الكلمات لن تكون أبدا بديلا عن البشر وأننا نحتاج لوجود البشر رغم كونهم يموتون فلا بديل عن الفقدان، لكن البشر يعيشون محملين بالتاريخ، الذي هو عادة مجرد كلمات منزوعة الروائح والملامس... منزوعة الواقع، لذا أعلم الآن وأنا أتصفح قصاصات قلب أني لن أصل لحقيقة كاملة، لكن استشراف ما قد يكون احتمالا للماضي قد يساعدني على اختيار مستقبلي، لن أزين لكم نواياي ولن أخدعكم، الواقع أني لا أكتب لأريكم العالم سحريا كما يكتب قلب، بل أكتب ببساطة لأراني. بمنتهى الأنانية وضيق الأفق أفكر في نفسي فقط بكل سطر في هذه الرواية، لن ألفق ترابطا للأحداث، فقط لأثبت مَقدِرة وتَمَكُنا، ولن أجيب على أسئلتكم المشهرة في وجهي، لماذا أكتب؟ لماذا يستحق ما يُكتب ثمن الورق والطباعة؟ والأهم، هل يستحق الجلوس أمامها وتأمله لساعات كما فعل الإنسان الأول أمام رسم بحر بسيطة؟

كتب غالي في أحد خطاباته: «الآن أفهم أنني لم أكن مؤثرا في حياة كارما، هزمني شيئان متناقضان في حياتها، اسمها وسيارتها؛

كانت كارما تركب تلك العربة المكشوفة فتتحول من المراعاة الفائقة لقواعد المجتمع إلى الحرية الفاجرة، كأنها دخلت إلى غرفة نوم أو إلى الحمام. كانت تغير ثيابها في الإشارات بحرية وترفع قميصها لتضبط صديريتها بجرأة غريبة، المقود يشعرها أنها متحكمة وأنها قوية ويقنعها أن إشارات المرور ما هي إلا لحظات مخلوقة لإطلاق الجنون والنزوات. كانت عربتها تمثل الجزء البرجوازي المدلل في شخصيتها، الجزء الذي يحب الإفلات من العقاب، الجانب المبهور بالقوة والسُلطة. كانت تتعمد اللعب بعقول جيران الإشارة من الرجال بنظرات وحركات إباحية. فعلت ذلك وأنا بجانبها فيما بعد. أزعجتني جدا تلك الحركات لكني كنت أضحك؛ لم أكن أريد أن أظهر عظم اهتمامي وضعفي. تحكي كيف بدأ حبها للسيارات، كانت في الثالثة، تُلقن الإنجليزية والفرنسية إلى جانب المصرية، استنتجت أن اسمها يعني «سيارة ما» «كار» بالإنجليزية و «ما» كما هي بالعربية، كار ما = سيارة ما؛ ظريف ها؟ على أي حال، بعدما عرفت المعنى الحقيقي لاسمها «العاقبة الأخلاقية»، ظهر العامل المؤثر الثاني، الذي ظلت أسيرة معناه، فانشغلت كمراهقة بتبادل الطاقة مع محيطها، وأمضت ساعات في التأمل والتحديق بالسماء، حتى بعدما كبرت ودخلت حياتي، كنت أراقب عينيها تلمع بالتفاتات سريعة، وتثبت طويلا أحيانا أخرى، حائرة بين السرعة والخمول، بين حب الخطر وخطر الحب. عندما رأيت في عينيها تلك النظرة، وعندما رأيت شعرها الملفوف بلا عناية، الساحر بالتواءاته الناعمة، فهمت أنها أنا، وفهمت أنها المرأة الحلم، المرأة التي بشرتني بها القديسة فيرينا في كل حلم. أعلم أنك لم تؤمن أبدا بالقديسين، فقد اخترعت للقديسة المسكينة سببا آخر لمعاناتها غير حب المسيح في كتابك اللئيم عن الكتيبة الطيبية. أنا شريك في تلك الجريمة على كل حال، أعطيت حياةَ القديسين بروتستانتيا متشككا في كل ما لا

يستوعبه عقله البشري المحدود، قديس لا يؤمن بزملائه القديسين. تواضع أم غرور يا قلب؟ لم أستطع الحكم أبدا طوال تاريخنا معا، لكني حكمتُ فورا أن كارما هي المرأة التي سيقع الرجال من الغيرة حين يلمحونها مزروعة في صدري، بتلك الضحكة الرقراقة والنظرة العازمة، مزيجا مكتملا من الإغواء والعفة، بلباس عتيق تشبه زوجات الخمسينات، وسلوكيات قد توصف أحيانا بالشائنة. آه يا صديقي، لم أبحث عن الصليب في صدرها، لم أفكر في دينها أبدا، لقد بعثتها إلي قديسة وعنى هذا كل شيء بالنسبة لي. كل ما كنت أفكر فيه حين وجدتها في ذلك البار، أنها تلك الفاتنة التي تعرت بجانبي في إشارة المرور، تلك الغارقة في بحيرة قارون، أوصلتها لبيتها ليلتها في أعماق جاردن سيتي وظللت أدور بسيارتي في الحي لأيام، علني أتعرف على بيتها وأراها ثانية، لكن كان هذا مستحيلا، ملعون من صمم تلك الشوارع الدائرية. يقولون إن الإنجليز خططوا الحي بتلك الطريقة ليضللوا الغرباء، ومع ذلك ها أنا ذا أقف أمام كارما التي بدلت صباحي الكئيب، وجعلتني مسرورا لاستيقاظي مبكرا ربما لأول مرة في حياتي. أكتب إليك الآن ما خجلت أن أحكيه قبلا، لم أردك أن تَحكُم عليها، فقد كانت رائعة، أرجوا أن يكون السجن قد غيرك قليلا لتكون قادرا على تفهم روعتها، آسف، تلك جملة غبية، اعذرني، على أي حال. كان هذا أول لقاء بيننا، لم أحكه أبدا: تصور معي، أنا في سيارتي وذراعي بالخارج، التكييف عطلان ودرجة الحرارة تظهر أمامي تسعة وثلاثون درجة ومازلنا في مقتبل الصباح، ملعون أبو المُجمع، ذكريات الطوابير وتحكمات الموظفين مع توقف الكوبري تخنق صدري فأشعل سيجارة. أرى كارما تعدل صديريتها بجانبي، تراني أراقبها فلا تحول عينيها ولا تتوقف عن ضبط ملابسها، بل تتحول ناحيتي كليا وتتحسس صدرها بشكل فاضح. ما تزال تحدق في عيني وهي ترفع بلوزتها. يا ربي! أنظر حولي مذهولا، كم كان

حدثا مفرحا، لم أشعر بتلك الإثارة منذ... آه، لقد وعدت نفسي أن تكون تلك الخطابات كاملة الصدق، لذا أعتقد أنه قد حان الوقت يا قلب لأخبرك باعتراف آخر مزعج:

أريد أن أصارحك بأن أعمق وأجمل وأول إثارة جنسية في حياتي كانت لصالح والدتك. نعم، نعم. أعلم. أنا آسف وحيوان ولكن خجلي منك وعاري لن يغيرا من الحقيقة شيئا. كانت أمك ـ قدس الله روحها ـ تمثل لي كائنا بريا يتوق لمن يفك كباحه ويطلقه ليطير، وأنا كنت أصغر كثيرا من حلم الاقتراب وأكبر قليلا من ألا أنتبه. كنت صغيرا هائجا ومازلت؛ سامحني يا صاحبي، لم يكن هناك أي فعل في تلك القصة، صدقني لم أحاول، إلا في خيالي طبعا، زاد التوتر بعدما انتقلت والدتك للعيش معنا. كان الأمر مربكا؛ مئات من العصاري قضيتها أحلم بها، وفجأة صرت مجبرا على مناداتها بأمي، قرف، على أي حال لماذا أذكر ذلك الآن؟

آه، لأنني محبوسا في إشارة المرور ذلك الصباح رجعت فتى في الرابعة عشر يشعر بإثارة عميقة وبلا مستقبل، فأين سأعثر على تلك الفاتنة التي ستتوه مني في المدينة العملاقة بمجرد أن تفتح الإشارة نهاية للقائنا وتطلقنا لشوارع ربما لن تتقاطع أبدا، حدقت في براءة عيني كارما وفحش فعلها مصدوما وسعيدا. دائما ما سببت لي كارما تلك الإثارة التي تغمرني لترفعني، إثارة تبدأ في جسدي وتنتهي في روحي لتجمعهما معا في كيان واحد نادر الظهورات؛ كيان طائر ومنفذ للضوء والهواء. في نهاية علاقتنا تبدل هذا الإحساس قليلا، لم أعد ذاك الشراع الزجاجي المرن المحلق الذي اعتدت أن أكونه، أسقط أمام نفسي في مرآة الحمام لوفة عملاقة لا يستخدمها أحد، خشنة ومخوخة، لا أنفذ الضوء رغم امتلائي بالأنفاق الملتوية، تتسرب مني السوائل وتتراكم بداخلي بكتيريا العفن.

لكن هذا لم يحدث إلا لاحقا. في تلك الليلة تجمدت أمام كارما في البار غير مصدق حسن حظي، لقد وجدتني ثانية بعد أن ضاعت مني مرتين. لم أكن أعرف أني وجدت الفتاة التي ستجمعني لتكسرني.

مقطع غير هام

تستطيع تخطي هذا الجزء.

لو أجرينا تجربة على كارما وقلب، وأعطيناهما ورقة بيضاء وأقلام تلوين وطلبنا منهما أن يرسما نفسيهما، سنراقب كارما ترسم نفسها في المنتصف كيانا واحدا غير مفصل، مجرد خط خارجي لا ينقطع يحدد وجودها، ثم ستمسك القلم الأسود لتملأ الصفحة من حولها، فلا يبقى غير سطوع بياضها في المنتصف وسواد المحيط، أما قلب فسيسرح راسما عالم كعوالم إيشر الذي يحبه، ثم يرسم نفسه في ركن سفلي للصفحة بخطوط مهزوزة وغير ممتدة، يرسم قلب نفسه ناظرا لأرض أو سماء وأعلاه أسطح المدينة تتواصل بعلاقات لا معقولة. ستكتفي كارما بالحد الخارجي دون الدخول في التفاصيل، بلا ظل وبلا لون، فقط بقعة فارغة في محيط أسود، ستضع القلم وتشعر بالانتصار. على الجانب الآخر سنرى قلب يعتني برسم تفاصيل مشهد المدينة السريالي كما ينقل عيوبه الشخصية بأمانة؛ فنرى نظارته وصلعه الخفيف إلى جانب أطباق

الاستقبال التلفزيوني وغيّات الحمام ولن يضع القلم حتى تطلب منه ذلك. باختصار، كارما لوحة مساحات بلا خطوط، قلب لوحة خطوط من غير مساحات.

يوميات غربته ـ بتصرف

١

يتأمل كارما، هو الآن يعرفها كما لم يعرفها قبل سجنه، خطابات غالي قالت أشياء لم تقلها. لم يقرر أبدا إذا ما كانت تحبه أم لا، إن كانت لطيفة أم لئيمة، لم يطمئن إليها رغم حبه وهي لم تعطه أمانه، فقط صنعت أمانها الخاص بنظام يضمن وجودها في حياته بقدر حاجتها وبقدر حسن تصرفه، أدمنت ترويض وتدريب قلب الوديع.

تقف، في مرآة الحمام ينعكس وجهها محاطا بشتى الصور والذكريات، عاشت عمرها تجمع حاجات، تجمع شخصيات، عملات، وتجمع بالأخص الذكريات. رشت العطر واستنشقته، فحصت انعكاس وجهها من اليمين للشمال ومن الشمال لليمين، تأكدت أن كل شيء كما يجب. أمسكت حقيبتها والمفاتيح، نظرت حولها للمرة الأخيرة قبل أن تغلق الباب، داخل الشقة بدأت قططها في مواء لن يتوقف إلى أن تعود. اليوم عيد ميلاد قلب المناضل المعروف. يطلق عليه أصدقاؤه وتلامذته الذين لا يعرفونه إلا حديثا: الشيخ قلب القبطي. استحوذت على مسؤولية تنظيم الحفلة والاختيارات،

حفلة مفاجئة تنظمها مع شابة لطيفة من مريديه سيتبين بعد فترة أنها ابنته. حرم قلب من الترفيه لسنين وحان وقت مفاجأته بحفل. لم يكن هو فقط من خرج من السجن، كارما أيضا كانت مسجونة، كما حكت له فيما بعد:

«لسنين ظل الحلم يراودني، قلب يرسم لي طريقا أمشي عليه، بعد أن سجنوه لم أنم ليلة لم أره فيها، حاملا جرداله وفرشاته، يرسم خطوطا بيضاء على الإسفلت، لم يقل لي شيئا لسنوات في هذا الحلم، لم نقف معا ولم أر عينيه أو وجهه لأتأكد، لكنني كنت أعلم أنه هو وأنه ينتظر مني شيئا ما. أصحو مذعورة، مرعوبة، أقضي يومي قلقة أتساءل، لم يكن عندي أدنى فكرة عما يحتاجه مني وهو لم يتوقف عن طلبه اليائس».

٢

أتجول في شوارع سويسرا، خارج مصر لأول مرة، أشعر بحرية تجتاحني مع البرد. يقول المثل: البلد اللي ما تعرفش حد فيه شلح واجري فيه. كنت أشعر أنني أستطيع أن أشلح ملابسي ولن ينتبه لي أحد، مشيت في شوارع مبقعة بالثلج أدخن سيجارة وأشرب من زجاجة نبيذ صغيرة. لم أكن أتوقع أن أسافر حقا، كنت متأكدة أن قلب لا يملك النقود، كنا لا نزال متخاصمين وكنت أعمل على دولاب الخزف بالفعل. سافر إلى القاهرة وعاد بعدة آلاف من الجنيهات، فهمت مصدرها لاحقا حين رأيته في حلقة من برنامج آخر حوارات المدينة. قلب يكره الإعلام. وضع النقود أمامي:

أنا كلمت غالي هيبعتلك دعوة، كارما هتبقى هناك بعد أسبوع لو عايزة تشوفيها، انبسطي.

وخرج.

أضحك لشاب جميل يصر على التحدث معي بلغة لا أفهمها، لو كنت في القاهرة لكانت تلك مصيبة. أجلس على عشب مبتل بذكرى الثلوج وأتمدد في شمس ساطعة لا تحرق أمام الناس مخاطرة بسمعتي؟ أي سمعة؟ أتلفت حولي، بشر متناثرون، ولا واحد منهم ينظر إلي أو يراقبني. أنفث دخان سيجارتي في السماء وأتنفس وجها جديدا للحرية، حرية أن تكون موجودا كما تحب أن تكون، دون مبالغات ولا افتعال، دون أحكام عامة ظالمة ودون عيون متطفلة ومتهمة: لماذا أنت هنا؟ لماذا خرجت من بيتك؟ في القاهرة دائما أمشي وكأني على موعد هام، أمشي بسرعة، تقريبا أهرول، وكأني أنفي تهمة التجول بلا هدف. فكرة التمشية محرمة على الفتاة في شوارع القاهرة. لم أتمش ببطء في الشوارع إلا طفلة، لكن المراهقة الخجلى من تكوينها لدرجة التحدب، والطالبة المكافحة أيضا لم يتهاديا في الشوارع أبدا ولم يشربا سيجارة أمام نافذة متجر. في سويسرا لا أهتم بمظهري، شعري منكوش وملابسي غير متناسقة، لكنني أشعر أني جميلة ربما لأول مرة في حياتي. أتلفت حولي ثانية ويزيد شعوري بالأمان، لا أحد ينظر، حتى ذاك الفتى الذي لم أفهم ما يقول، عيونه كانت لطيفة، عيون لا تخترقني لكنها تستأذن باحترام. كانت عيونه تقول: أنا أراك جميلة جدا وأود مغازلتك وليس: لماذا تتمنعين؟ ما أنت إلا عاهرة تتوقين للـ... أرى رجلا في آخر الحديقة عند البوابة يشبه الصورة التي رسمتها لغالي.

غالي رفيع ومبالغ في طوله قليلا، جاذبيته لا تنبع من شكله بل تتكامل معه وتنفذ عبر مسامه مواد كيميائية طيارة، طالما سخر في شبابه من العيال المنفوخة، ما فيهمش زقة، يضحك مع قلب الطفل وسيجارته بين أسنانه، واثقا كراعي البقر الذي لا يُقتل في أي فيلم

رغم خوضه كل المعارك. فهم سر حرص الأولاد على بناء تلك العضلات المعتنى بها لمواجهة أي خناقة، هم جبناءُ يبذلون المجهود والوقت في التدريب ليرسموا أجسادا ضخمة ومخيفة تمنعهم من خوض أي قتال، فمن المجنون الذي يريد قتال ذلك الوحش؟ غير غالي لن تجد، هو متخصص في هزيمة أي حملة تسويقية لقوة متوهمة. كان يدرك قيمة السمعة، تنقل طالبا بين مدارس أسيوط الحكومية والخاصة لصعوبة مراسه، وكلما حل في مدرسة جديدة كان ينتقي أضخم التلاميذ ويفتعل معه شجار ويضربه، فيقضي على أي مشاكل قد تحدث له في المستقبل. لم يفهم قلب أبدا إن كانت كارما قد هزمت غالي أم هو قد هزمها، لكنه رآه يعب الويسكي كما شرب المراهق غالي زجاجة المياه الغازية ورمي عقب سيجارته أمام فتاة تلبس مئزر مدرسة البنات الأزهرية المجاورة، كان منديل رأسها منزلقا على كتفيها وكان شعرها ناعما، غامقا، وطويلا. تتمهل البنت أو يبدوا لهم ذلك، وتخطو فوق بقايا السيجارة المشتعلة ضاغطة إياها ببطء حتى تطفئها، يبتهج الشباب حول غالي، طفتها يا عم غالي وليلتك بيضا. تقول الأسطورة أن البنت التي ستطفئ سيجارتك ستشعل أنت سيجارتها. لم يتقافز مع زملائه، كان بصره معلقا بعيون الفتاة الجريئة. وسط اللمزات والضحكات أعطته ظهرها ومشت لكنه كان يعرف أنها ستنظر ثانية نحوه، كان ينتظرها لتراه يحدق في إثرها. فعلها ثانية ونحن كبار بتأثير الويسكي وانتهى أمرنا بمعركة بين صديق الفتاة وبيننا، كسر فيها زجاجة على دمغ غالي الذي أقنعني ليلتها ـ بتأثير وجهه الدامي ـ بالسفر خلف كارما بحجة إنهاء كتاب الكتيبة الطيبية.

ميراث السمعة

المصري مشغول بالخلود من قديم الزمان، كره القتال فاخترع قوة الإعلام. بنيت المعابد الفرعونية ضخمة ووجهها يتجه للغريب الداخل إلى الأراضي المحروسة، إن كنت مسكينا ستفكر أنهم قوم عظام وقد يعطفون عليك ويساعدونك، لو كنت قائدا لجيش قبائلي محدود، ستتجمد مكانك ثوان متأملا حجم البناء المعجز، ثم ستلتفت لرجالك رافعا يدك بإشارة الانسحاب، آمرا رجالك المذعورين بالرجوع من حيث أتوا، فمن يسكن تلك الديار قوم عماليق ولن نسلم في المزاح معهم.

حتى الديانات التي مرت على المصري بجلت السمعة، السيرة، ربما تطرفوا قليلا وباتوا يدفعون حيواتهم للتاريخ. لو أطاع رجال الكتيبة الطيبية أوامر قائدهم، ما كانوا قُتلوا، وما كنا سنعرف شيئا عنهم، لكنهم اختاروا حلم الخلود في رواية تأثيرها لا ينسى، اخترع المصري الحكي لأنه أحب ألا يُنسى.

السجن

يقول قلب أن دخول السجن تغير دراماتيكي كركوب آلة الزمن، تخرج منه في مستقبل لا تعرف فيه أحد، تخرج منه عجوزا من الماضي بمظهر شاب ودواخل عتيقة. بالطبع تفرح بالتقدم، بالتغيير وبالخروج من آلة الزمن الضيقة الكئيبة تلك، لكنك تظل تشتاق لعالمك الأول، لشبابك حين كنت تشعر أنك أنت، للمكان الذي انتزعت منه ولن تعود إليه. لم يكن قلب في لقائه الثاني مع كارما هو نفسه قلب الأول، بينما كارما كانت هي هي في الحالتين.

إذن هي حفلة وداع صغيرة لجونفيف، قلب العجوز الذي فقد إيمانه للمرة المائة، يجلس بجانب كارما الشابة التي تكذب بلا رادع والمتصالحة تماما مع عالمها الآن بفضل ظهوره، فحتى نوبات القلق والإحباط التي لازمتها لفترة انتهت نهائيا منذ رجوعه إلى الدنيا، ورغم حدادها على جونفيف إلا أنها كانت مرتاحة بوجوده، ترتدي فستانا أبيض، بسيطا ومحببا كفستان طفلة، شعرها غير متساوي الطول لكنه أنيق. تستقبل قلب في المطار، بحذائها الأحمر وابتسامتها تماما كالمرة السابقة. منذ خروجه من السجن دائما ما يرى كارما ترتدي إما حذاء أحمر، شالا أحمر، أو تضع طلاء شفاه أحمر، كان هناك دائما عنصر أحمر ناري في مظهرها. لا تجيب وتلف بأناملها على حروف كأسها التي لم تصدر أي صرير، زجاج عادي، تعلق مندهشة، المكان ليس رخيصا، يرتفع صوتها، أين الكريستال؟ يبدأ الناس حولهما في استراق النظرات، لا يتحرج قلب، تعود إلى فضائحها، يرجع بها إلى الحذاء الأحمر، تقول أن الحذاء يمثل جونفيف، تضحك طويلا لانعقاد حاجبي قلب، ليس الحذاء ولكن اللون أيها السخيف، تلك البقعة الحمراء الدافئة اللعوب الواثقة، تلك اللمسة التي تميزني، هي بالضبط ما تصف دور جونفيف في حياتي، لم تكن مجرد صديقة أو شخصية فريدة أوحت إلي بكتاب، جونفيف أوحت إلي بحياة جديدة كاملة ومرغوبة بديلا عن واحدة زهدتها، منحت حياتي طلة جديدة مثلما يفعل هذا الحذاء الأحمر. فهمت؟

كانت تنظر إليه نظرتها المتحدية التي سأمها كما سأم الفقاعة التي فرضت عليه منذ خروجه ومنعته عن الدنيا التي يعلم الله كم يشتاق إليها، لم تعد ألعابها تلهيه. حمدا لله، لكني لم أخترع ألعابا أخرى قادرة على انتشاله من كآبة غرق فيها حين تذكر كلامها القديم: أنت يا قلب لا تعيش من الحياة سوى الآلام. ينظر إلى كارما السكرانة ويسرح، متى يعيش تلك الحياة التي لم يلامسها، يمد كفه ببطء ويلمس

وجنتها، يمسها بأطراف أنامله كمن يلمس مخلوقا نورانيا، يلامسه محبوس الأنفاس وغير آمن من الاحتراق لكنه مدفوع بفضول موروث، مدفوع برغبة تفرضها جيناته، يفرضها سحر أو شيطان. لم يعد يبالي، وبعكس المرة الأولى، كانت كرامته الآن أن يستكشف تلك المرأة ويتواصل معها حتى وإن حدث هذا تحت ظل رجل آخر مختلق. عرف وهو يتحسس وجهها ويطبع بأنامله صورة مجسمة لمنحنيات أذنيها أنها لا تريده بديلا لغالي، الحقيقة أن غالي تبخر من بال قلب مع تبدل النظرة في وجه كارما، كانت تلك أول قبلة في حياتهما.

إعادة حكي وجيهة

ـ دي رواية عظيمة.

جالسة ونظرها مثبت على قلب، غير فاهمة؛ يقول لها «عظيمة»؟ لم تره ينطق تلك الكلمة أبدا، فقلب لا يلجأ لوصف الأشياء بتقارير قصيرة ومنتشرة مثل كبير، عظيم، ظريف، فكلها تصف عوارض أولية واضحة لكنها غير مخصوصة وغير أصيلة، تلك التعبيرات منعدمة في قاموسه، قلب ينفذ إلى العمق ويروي رؤيته المتفردة وملاحظاته الذاتية. اعترضت برأس مائل ونصف ابتسامة استنكار:

ـ عظيمة؟ إنت بتقول لي روايتي عظيمة؟

أومأ برأسه، ولم تفتها لمعة بهاتين العينين الماكرتين.

ضحكت، تهز رأسها غير مصدقة:

ـ إنت ما قلتش على ماركيز عظيم!

ـ مش عارف أقولك إيه، دا إحساسي، أنا فعلا شايفها رواية عظيمة.

كانا يتكلمان بنبرة لطيفة، لكن مستويات التوتر كانت في العالي.

ـ أنا بس مستغربة، عادة مش بتقيم الحاجات بالسهولة دي:

ـ أنا كتبت لك ملحوظات وهوامش، فنيات بسيطة، بس فضّلت تقريها بنفسك.

أعطاها نسخته المطبوعة، يعلق أنه يفضل النسخ الإلكترونية، تسأله إن كان تعلم الكمبيوتر في السجن، يرد على سؤالها بجدية، كأنه لم يكن سخافة:

ـ لا، لم يكن هناك كمبيوتر في ذلك السجن، لما خرجت تعلمت، يبتسم، لو تحبي نتكلم بالتفصيل أكتر، يلا بينا.

أمسكت الرزمة بين يديها وملأها الفضول بالإثارة، ترى ماذا يظن قلب في هذا الكتاب؟ تعرف أنه يكره كتبها الأخرى لكن هذا كتاب جديد، هل فهم أنها تصفه في كل كلمة؟ هل وصلته رسالتها؟ لا تصبر على الانفراد بتلك الرزمة الورقية لتفحّص كل فكرة كتبها والبحث وراء كل كلمة وكل تجعيدة، فربما تجد دلالة أو خيطا يقودها إلى نفسها التي لا تعرفها، والتي تتمنى أن يكون قلب قد عرفها وفهمها كما تتمناها:

ـ لا، خليني اقرا الأول وبعدين نتكلم، متشكرة.

غيرت تلك المقابلة الكثير في علاقتهما حتى لو لم يعترف بذلك، فقلب الذي لم يستطع تفسير اختفاء كارما المفاجئ، عاد للتفكير في لمياء بعد أسابيع قضاها في انتظار كارما التي رجعت ممسكة بأوراق روايتها. بعث فعلا للمياء خطابا لم أعرف إن كان تلقى له ردا. هروب كارما منه في ذلك اللقاء بفظاظة تقريبا ولهفتها للعودة لمنزلها لقراءة ملحوظاته عوضا عن الجلوس معه شخصيا أكد له أن أفكاره

أكثر إثارة لكارما من وجوده الفعلي، هي واقعة في غرام عقليته لا في غرامه، كما يظن أنها لا تدرك أنه واقع جديا بغرامها. قرر بعد هذه المقابلة أن ليلته معها في سويسرا كانت نشازا عن لياليه الطبيعية واستكمالا لطبيعتها المتحررة. يردد من أيام: كارما مجرد صديقة وستظل كذلك. أستعجبُ، ما الذي يمنع الرجال عن فهم أنفسهم؟ كيف يبدو عبقريا في لحظات وكيف يصبح أبلها في لحظات أخرى؟ لكني لم أقل أي شيء بالطبع.

لم تحك له عن دفتر المذكرات الذي أعطتها إياه الراقصة السويسرية العجوز إلا بعد موتها وبعد اكتمال الرواية. عرف قلب جونفيف من أيام بحثه الأول حول الكتيبة الطيبية، نشأت بينهما صداقة بالمراسلة، رغم كونهما يعيشان في نفس المدينة، عرّفها على كارما لاحقا كأساس جيد لقصة عن العوالم الموازية. تتذكر كيف وصفت كارما جونفيف بأنها تعيش في بعد آخر. في ثاني زيارة لها وقفت مرتبكة قليلا أمام أكوام منظمة من الخطابات، مئات وربما آلاف من الأظرف المرصوصة أبراجا أبراجا، سألتها:

ـ قلب هو اللي كتب لك كل دا؟

بالطبع لا. لم تسمح لها العجوز بقراءة خطابات قلب. في الواقع كانت تبدي بعض الغيرة من علاقة كارما وقلب. كارما لم تعتبر ذلك أكثر من نزق عجائز، لكن حين رأتهما معا للمرة الثانية، حين مرضت جونفيف وأتى قلب لزيارتها، فكرت كارما وهي تتأملهما، في ظل حكاية ابنته الجديدة، إذا ما كانت الصداقة فقط هي كل ما جمعته مع تلك العجوز في الماضي.

ما زاد شكوكها أنه بعد رحيله في تلك الليلة، تحسنت حالتها كثيرا، عزفت البيانو، غنت، وشربت القليل من النبيذ.

محب العجائز، تشاكسه مؤخرا بتلك الكلمات. تقولها مخرجة لسانها في آخر حرف لتغيظ قلب الذي يضحك في طيبة. كعادتها تكون جونفيف معهم وليست معهم، يقطن نصف عقلها في الماضي فلا تكاد تتكلم إلا عن ذكرى، وقبل أن تنام، قالت لكارما:

ـ أعرف أنك تكتبين كتابا عني، كما أعرف أنه سيكون كتابا عظيما، وأعرف تماما ما قد يساعدك. أعطتها ثلاثة دفاتر:

ـ كلها لماتيو، كتبها بنفسه، يحكي عن نفسه، عن المكان الذي التقينا به، وعن نساء، لكنه بالطبع لم يكتب عني حرفا واحدا، لم يكتب عني.

كانت تبكي، مادة يدها بالدفاتر، تهزها وتبعدها عنها وكأنها تتمنى أن تزول نتيجة الهز أو تختفي.

أحاول تهدئتها:

ـ لقد كتب عنك ذلك الجزء الذي قرأته لي سابقا، أتذكرين؟ كما أنه أعطاك تلك الدفاتر، ألا يعني لك ذلك شيئا؟

أتناول الدفاتر كمن يحمل عنها عبئا

ـ لم يعطني إياها.

ـ عفوا؟

ـ أنا سرقت الدفاتر ولم يعطني إياها، أخذتها دون علمه، لم يكن يستطيع أن يكتب عني على أي حال، فقد رأيته مرة واحدة، قضيت معه تلك الليلة الوحيدة وسرقت دفاتره، لكني كنت في هذا المكان المجهول، لا أعلم كيف سأجده ثانية، ذلك المكان الذي لا أعرفه، كان يجب أن أمسك شيئا ماديا يؤكد لي بعد رجوعي لعالمي أن ما حدث لم يكن حلما أو كابوسا، لم يكن يعرف أني أتكلم الفرنسية، فهمت كلامه، وأحببته، ماتيو.

ـ هل أنت واثقة أن هذا اسمه؟

ـ نعم فهو موجود بالدفتر، يوم تقابلنا... لم يقل لي اسمه. بون نوي.

«لم ير أحد غيري تلك الدفاتر أبدا، كانت كنزا صغيرا بالنسبة لي، سرا دفينا في تلك الأوراق لن يعرفه غيري، كنت أفحص أوراق الدفاتر باحثة عن دلالة كل أثر، فأنا تبهرني الأسرار والطب الشرعي، أحب الاطلاع على مكنونات القلوب والمعلومات الممنوعة. جونفيف تصر أن ماتيو يكتب عن المكان الغامض الذي تقابلا فيه، يسميه هو المعسكر، أراه أنا يتكلم عن مصر، لكن إقناعها بذلك كان مستحيلا، على أي حال رواياتها مثيرة للاهتمام أكثر من روايتي؛ لقاء جنسي ملتهب في معسكر مفقود مع رجل غامض لم يبق شاهد على كونه حقيقيا غير بضع دفاتر، ولولا اختلاف الخط المكتوب عن خطها لظننتها زيفته، جنفيف العزيزة ليست شريرة لكنها مجنونة كفاية لتتبنى الوهم.

أنهت كارما كلامها بالنبرة المناسبة، كان إلقاؤها رائعا، منتهى الثقة في نفسها، ابتسامة مرتاحة، فلئن إن كانت كتابتها أنيقة كمظهرها تلك الكارما، أبتسم في وجهها بشدة:

ـ أتمنى أن تكون جونفيف مبسوطة بالكتاب زيك. كلي بفتيك يا طنط.

أقول ببساطة فتهتز ابتسامتها وأنا أملأ طبقي بالخس اللذيذ. تثني على اللحم وتضع قطعة في طبقي، أتوقف عن الأكل ويصيح قلب بأنني نباتية.

ـ مثل بابا.

تقول كارما.

والد كارما دبلوماسي شاب تزوج من فتاة لا يعرفها تقريبا ليسافر فورا ملحقا بسفارتنا بغانا، يعود إلى القاهرة مع زوجته ليدفنا والده ثم يسافرا ثانيا لسفارتنا بسويسرا، وبجانبهما في الطائرة تجلس كارما في الرابعة من عمرها. ناجي من أسرة عريقة، فجده الأكبر خولي الباشا القديم، كان مسئولا عن جمع جباية نصف غيطان الفيوم، وكان الباشا يستأمنه ويعامله ككلب، ليست تلك معاملة سيئة، فهو كلب محبوب ولا ينقصه أي شيء، كلب محبوب بطاعته ووفائه، إذا نبح أو جن باعتراضات صاخبة، يتم ببساطة التخلص منه واستبداله، وذلك لم يحدث على أي حال، فالجد الأمين كان يخزن العظام في أرضه خفية عن عيون سيده، يقال أن زلع من الذهب وجدها الحفيد في باحة الدوار، لكن أحدا لم ير الذهب بنفسه، لأن الأسرة انتقلت بالكامل إلى الإسكندرية وتبدل كل شيء. بدأ جد ناجي حفيد الخولي تجارة ألبان بالإسكندرية، كبرت معامله وتوسعت مزارعه فتضخم كوم الذهب، تعلم أبناؤه جميعا إناثا وذكورا، وبات لعائلة الخولي صيت ونسب يختلط بالعائلات العريقة كما قوت صلاتهم الاجتماعية عبر الأجيال وتشابكت. لم يكن صعبا على ناجي الخولي أن يلتحق بالعمل الدبلوماسي بخلفيته المشرفة، ولم يكن صعبا أن يستقيل لاحقا ويشتري عددا من الشقق في جنيف ليأجرها ويعيش على ريعها ملكا، كما لم يكن صعبا على ابنته أن تقتحم عالم الأدب باسمها اللامع بعد عودتها من البلد البارد محملة بموارد لا تنفذ. جاءت كارما الخولي إلى مصر بعد رحيل الأب ومن قبله الأم التي كانت مجرد نسخة أنثوية أكثر عنادا وقوة منه، ومهما وقعت كتبها باسم كارما ناجي، فإن الجميع يعلم أنها خولية، وكان لهذا ثقله.

بالفوشيا الفصيح

بقلم كارما ناجي

في الرَجُل/ مخطط

حتى هي كانت تتلعثم حين تتكلم عنه، هو الذي يطوف بحياة كل هي. الرجل من مواضيعها المفضلة والكئيبة، بجسارة مدهشة تخلط بين طباع أبيها وأحبائها، تستخلص النتائج بأغرب التحليلات الشاعرية، رغم شغفها الضاحك آلت بها قناعاتها في النهاية لتلك الوحدة. بلغة مُفصِحة وخجلى تحكي التفاصيل دون أن تكشفها، تخلط توقها للحدث بالدوران حوله، كحبيب يلف حول بيت حبيبة لا يراها، ودون النظر للوراء تمضي في حكيها والحدث يتابعها من شباك في الخلفية. لا أدقق في منطقية تتابع الأحداث المعيبة في حكيها، الذي لولا فداحة ارتباكه لصدقت، أحترم نبل عريها حين تنساب دموعها على ثبات وجه التمثال العجوز الشجِن، أذكر نفسي وأنا أمسح دموعي، أنها فقط تهذي.

ترقص الآن في الشوارع والمقاهي لتوعية الناس، تلم النُقطة

والجنيهات وتعيش، تقول بيزنس وعمل تنموي، لديها معاش أيضا، تثرثر عن كون الفن يحسن الوعي وأنه ضرورة حياتية على حد تعبيرها، ولكنها لا تزال تلاحظ الرجالة الحلوين بحسرة. أضحك، كيف لمخلوقة تعدت التسعين ببنية مومياء مرنة أن تقاوم شهوتها، أسألها فتحكي لي عن ضبط النفس.

ولما سألتها صراحة لماذا لم تتزوج، اصطادت قطها المراهق تقبله مترددة:

«ما خلاص لقيت حبيبي، كان صغيرا جدا هذا القط حين وجدته، نعمة من الله، تغطي ما أحتاجه من حب وضحك لأعيش. كل الأحباء سكارى والسكر ليس أنسب حالة لاتخاذ قرارات هامة.»

تغيم نظرتها، عيناها دائما ما تلمعان، لكنهما تلبدتا الآن بقصص حزينة. أعلن أفكاري فتقوم لتأتي لي بكراسة مذكراته. علّمت بمربعات متناسقة فقرات بعينها طالبة مني قراءتها. كان الأمر مهما لها كما يبدو وكانت متحمسة. نشرت مذكراته في كتاب. كان موهوبا، تقرر لي، فاعتدلت في جلستي وأشعلت سيجارة لأقرأ ما كتبه عنها.

«عشت معها أوقاتا فهمت خلالها سر انبهاري، كانت تبذل كل جهدها كي لا تبدو ظاهرة وتحافظ على كونها «سادة» بكل الطرق الممكنة. هي دائما الفتاة التي جاءت من عالم لم يعد رائجا. واعية بكونها مرئية تتوتر وتظهر عصبيتها في نبضات أسفل عنقها وعرق نافر على جنب الجبين، ترقص الأصابع بينما كثافة من الطاقة تميزها بفجور. لطالما استسغت النساء اللاتي تعمل عواطفهن ضد مصلحتهن الخاصة. أتسلى بمراقبتها وأقترب سكران، مشغولا باستنشاق عبقها الذي يمتد إدراكه كاملا لدهور، عبق ميزت تطوره لاحقا مع حالتها العاطفية، التصق بي وحفظت تدرجه تحديدا، استطبت أطواره حتى

بات من العسير التقدم إلى رحيق جديد دون إجراء مقارنة تكسب فيها ذكرى الرائحة الأليفة.

أصنفها في حياتي هوسا جنسيا خفيا، تعلو على جسدها وتحاول تجاهله، بينما يرسل جسدها رسائله الخاصة في كل الاتجاهات ليتحدى مهارتي ويصيبني بنشوة خاصة، نشوة جسدية خارجة عن السيطرة بدرجة مخزية، أنصعت لها بالكامل، كالمراجيح تثير غثياني وإدرينالييني فأنتظرها بشوق رغم الألم.

هي لحظة الارتفاع القصوى في حياتي النسائية المفترضة، اللحظة التي يتبعها هبوط. هي مخدري وحافزي وكان مقدرا لي حبها، أو على الأقل كنت ملزما بالاعتقاد بحبها.

انتهى نص الرسالة ولم ينته تحديقها بي. ماذا تتوقع تلك المجنونة؟ هل خانها؟ تنصلت من الإجابة ولم تنف أنها نامت معه، ثم وصفته لاحقا بجردل النساء وأشادت بموهبته، كان شغوفا بدفتر مذكراته ويحبثه. مازالت تحبه العجوز الملعونة، بعد كل تلك السنين! لم أسأل عن مصير هذا العاشق، شعرت أن أعصابها لن تتحمل السؤال، تحولت إلى السخرية من مغامراتها كراقصة في التسعين يخضع لها الرجال، ضحكت حتى سالت دموعها.

«أنت ساذجة كالرجال تماما، الراقصة الحقيقية لا يجرؤ الرجال على ملامستها جسديا بل يدلهون في غرام إيقاع حالتها، الرجال مخلوقات سطحية، تبهرهم الأثداء والمنحنيات والدلايات الملونة البراقة، كالفراش يلتصقون بالوجه الملتهب من المشهد، الراقصة الحقيقية هي التي تغوص بهم من السطح المشتعل المضيء إلى أعماق رطبة، باردة، مظلمة ومليئة بما لم تر عين. تستقطب الراقصة شوق

الرجل لأمه واحترامه لعمق المحيط وخطورته، توقظ لديه رغبة قديمة لعبادة أنثى. بطن الأنثى الذي يتلوى أمامه ذاك، من المتعة أو الألم، في الحالتين يقدم للرجل رمز خصوبة يقدسها وعهرا يحبه، لكن الراقصة ليست عاهرة، الرقص مهنة شريفة».

لفت ودارت في المكان وأكثرت من البذاءات، عايرتني بكعبي الخشن وشنباتي، ثم قلبت محطة الراديو على فالس هادئ وحضنت شخصا وهميا، واستمرت بالرقص. أكدت لها قناعتي أنها تستدعي في خيال الزبائن حنان الجدات ووقارهن ولسانهن العف ثم خرجت من بيتها سابحة في عجائب خلقه.

في الطفولة/ ملصقات فراشات

هي لا تذكر طفولتها أبدا، وما تذكره يبدو منقولا عن شخص ما. أتأمل العروق الزرقاء في كفيها المتحركتين وألاحظ ما بيننا من تشابه، فكلانا عاش طفولة الأماكن المغلقة، التي تفرض عليك الخيال حلا معقولا لكل هذا الملل وتعويضا عن كل الأحلام. تشابهت معها في هذا وصرت أغرق في كوابيسها وأضحك وأنا استرجع بعض بلاهات الطفولة. تثن معي من الضحك: «يأتي الأطفال بكل أنواع العجائب ونحن نحارب إبداعهم دوما ككفار».

في الرابعة من عمري ألفت ولحنت أغنية «طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة، يلا بنا نملا ونحلب لبن الجاموسة»، كنت فخورة جدا بإبداعي وكنت أعرضه على الجميع، الأشخاص المعدودين على أصابع اليد الواحدة الذين أقابلهم أثناء زيارات الأقارب النادرة التي أنتظرها بحماس رغم كون معظمها حزينا للكبار كمأتم جدي الذي

لم أعرفه، فكنت أقف في منتصف الصوان المنصوب أشدوا بسروري وكبريائي، في لقاء نادر مع الجماهير طلعت يا محلى نورها.

تتشابه طفولتانا في مظاهر الحبس والسذاجة، كلانا رباية شقق ببهجات صغيرة، كيس مجوهراتي من قصاقيص القماش، وكيس ماساتها الصنوبر الخشبية، اليوم المفتوح في التلفزيون/ الشاي باللبن، الفلافل دافئة في الفينو/ الفلافل المزيفة من ثقب بالمرتبة القطن، القصص المصورة/ الروايات، زيارة وحيدة لحديقة الحيوان مع الأسرة/ رحلة تزلج وحيدة مع العائلة كسرت فيها أمك ضلعا/ برنامج عالم الحيوان/ العلم والإيمان/ جلسات الشطرنج/ المسرحيات المسجلة، فواصل الكراهية/ الفضائح والشياطين، ألعاب مصنعة من خامات منزلية/ قدرة فائقة على التصور.

وهكذا يُطبع في تلك الصالة الضيقة ما سيظل أسعد ذكريات حياتك، لأنك كنت صغيرة جدا لا تتزلجين أو لا تتذكرين زيارة حديقة الحيوان، فقط تذكرين رموش النعامة الطويلة تكلل عيونها المدورة السوداء الكبيرة تجري في اتجاهك على منحدر ثلجي بينما تأخذين لها صورة، سيتكاسل والدك عن تحميض الفيلم لسنين فتحتفظ به أمك للذكرى محروقا.

«الأماكن الضيقة تخلق إبداعها، دائما ما كنت طفلة دراماتيكية، أخلط بين الواقع والأحلام، عنيدة بشكل ملحوظ. رغم عاداتي أكره الملل والإرغام، طفلة متمردة على العرف تستمد عوالمها من كتب قد التهمت عقلها، على حد وصف أبي. مر وقت طويل الآن وأستطيع أن أرى كيف أن كل شيء كان متصلا، فلا تستطيع مخيلتي فصل طفولتي عن ما أنا عليه الآن، وأنا سعيدة جدا بي، فكيف أنبذها؟

انتبهي، نفس التشكيك والإلهاء سيمارس منك أولا ضد هذه الطفلة إلى أن تتحدا سويا، ستمرين برحلة طويلة إلى أن تصلي كل ذواتك معا، كفراشة تقدر وضعها كدودة سابقة، ولو لم تُعجبي بكلك يا آنسة، عذرا! أنت في ورطة. ما أنت إلا انعكاس متكامل مع تلك الطفلة، فلا تتعالى عليها ولا تقدسيها، هي لم ترحل فعليا ولم تعد موجودة تلك الطفلة، بل تناثرت حولك غيمة وصحيّ لك أن تتنفسيها».

صنعنا القهوة تركية سوداء، كنت أعرف أنها تخطب، وأن حقيقة الأفكار في دماغها شيء آخر، سألتها بوضوح إذا ما كانت تعتبر طفولتها سعيدة، صمتت طويلا ثم قررت «بالنسبة لناس كتير تعتبر سعيدة.»

ـ بالنسبة لك؟

ـ دايما الطفولة سعيدة.

ـ مش بالضرورة.

تضحك: دا بس لأن طفولتك مازالت قريبة. بعد خمسين سنة ستفهمين ما أقصد. الطفولة شيء ثمين.

ـ لماذا إذن لم تنجبي؟

أنا لم أتزوج.

كنتِ تقدري على الزواج، من كاتب الدفاتر إياه، وتنجبي طفلا وربما اثنين.

غبية وملعونة بِكِبرك، هل تظني أني لم أرد هذا الهراء كله؟ ولكن انظري: العالم مليء بأطفال لم يحظوا بلحظة حنان وحيدة. ماذا لو ولدته ثم دهستني دبابة بالخطأ؟ لا، لم أرد تحمل تلك المسؤولية،

ارتعبت من فكرة طفل يخصني، وأشفقت عليه من التجربة رغم شوقي لحبه.

ـ لكنك أردتي إنجاب أطفال.

تحركت إلى الشباك، مازالت تنبض ببقايا سحر، بتنورتها الواسعة المستعدة للرقص بخفة، تختار ملابسها من خامات عالية التهدل. بدون لسانها هي أرق من حلوى الغُريبة.

«لقد دفنوا مشيمتي تحت شجرة وليدة في سويسرا، غرسوها أمام قبر جدي في حديقة مازالت تخلع ثوب الثلوج. عادة قديمة ابتغاء للصحة وطول العمر. في حضن شجرة بندق يقبع جزء مني، تخيلي خلايا ارتباطي بأمي تسرح من الأرض أفرعا يحجل عليها سنجاب في جو ساقع، هههههههه الدنيا عجيبة. استلمت برقية منذ يومين، أمرت البلدية بإزالة تلك الشجرة، وأزيلت فعلا من أسبوع. لا أعرف نهاية الأسطورة، هل نهاية الشجرة دلالة على نهايتي؟ ربما سينتهي الجسد، لكنى مقتنعة أن تلك الطفلة الراقصة بداخلي ستعيش إلى الأبد، وستستمر في دفع ثمن أخطائي لأتعلم على طريقتها الخاصة طرق الطيران، وللإجابة عن سؤالك: من لا يحب الأطفال يكره نفسه أو حاله، وأنا أبعد ما أكون عن الحالين.»

بعدها طردتني بلطف بارد متنصلة من موعد في اليوم التالي. أخذت وضعية درويش سلم كفيه للسماء ودارت، تظهر حولها نجوم تحول صالتها إلى قبة سماوية ترقص معها رقصة الروح. ظللت ساكنة أراقبها تدور حتى اختفت أمام عيني. قفلت الباب ببطء وخرجت إلى الشارع نصف مرتعبة.

عن الصداقة / أكواد وشفرة

توجهت إليها دون موعد سابق لأول مرة؛ ستة أيام مضت لم ترد فيها مرة على الهاتف، أظن أنها تتجنبني. مصممة على إنهاء تلك القصة شجعت نفسي، دققت بابها. لا أستطيع التوقف الآن، ليس بعد كل ما تحملته، ونقمت عليها في صدري. فتح الباب أخيرا فتنهدت، كنت قلقة عليها أيضا فيما بدا. أدخلتني بلا قبلات، عندها برد، مظهرها كان بائسا. بعد ساعة كنت أطعمها الشوربة في سريرها وألاحظ.

ـ أليس لديك أصدقاء؟

كان سؤالا تقريريا، نفت بشدة:

بالطبع لدي أصدقاء، ماذا عنك؟ هل مازلت تعتبرين نفسك مجرد صحفية، لا يا عزيزتي لا، لقد حدثتك عن مكنونات فكري كما لم أفعل مع صحفية قبلك.

صححت لها: «أنت لم تجر أي حوار صحفي من قبل وأنا لست صحفية.»

«آه، نعم. كاتبة، أفهم. أنا مريضة ولست بلهاء. بالطبع لدي أصدقاء، كوني لا أراهم لا يعني أنهم ليسوا أصدقاء، نحن نساند

بعضنا بأمنيات صادقة وثمينة، الصداقة شبكة علاقات روحية إيجابية من النوايا الطيبة، وما الصداقة إلا ذلك؟»

طلبت سيجارة، تجادلنا قليلا ثم دخناها. أسألها:

ـ أليست العلاقة الدائمة الوثيقة والاشتراك في صنع الحكايات والتفاصيل هي ما توثق الصداقة وتوطدها؟ الأمنيات الطيبة ليست كل شيء.

تناولني السيجارة وهي تتأملني برأس مائل: «هل راسلتي أحدا من قبل كصديق بالمراسلة؟ لا أظن. عموما هي علاقة رائعة صداقة المراسلة تلك، نوعي المفضل من الصداقة، عشرون سنة من الأخبار والمعرفة والتواصل خالية من الفظاظة والقبح، كل الأخبار المفاجئة الحزينة والمبهجة تتشارك ورقا جميلا وملونا يحمّل بالتحيات العطرة والمنسقة بديباجة فاخرة، دون ابتذال الدموع العاطفي ودون متاعب الأنوف السائلة.

إن استطعت مساندة هذا الصديق النموذجي البعيد بأي طريقة ستفعلين، وإن لم تستطيعي فلن تتكبدي عناء الشعور بالذنب أو النذالة، لأنك أبعد من أن تتلقين أي لوم. صداقة المراسلة هي العلاقة الإنسانية المثالية، لا توقعات أكبر من قصاصة ورق منقوشة ببعض سطور، لا مسؤوليات ولا إحباطات، بل تواصل يقود لمعرفة فعالة، ستعرفين صديق المراسلة حق المعرفة، تعرفينه كما يحب هو أن يُعرف، فهو لديه كل الحرية ليكتب كلاما ثم يقطع الورقة ليبدأ من جديد، وتتخطيا في علاقتكما كل مساوئ التواصل الشفهي اللحظي الخانقة، فتختفي التهديدات، المبارزات والتنافس. بالطبع الصداقة العضوية ليست سيئة جدا، حين تكونين موجودة بجسدك مع صديق، تكونين مفيدة في نواح أخرى. انظري إليك ماذا تفعلين أنت الآن؟ يا للبُنية العطوفة، تحضرين لي الشوربة، تطعمينني وتدللينني، ولست حفيدتي

حتىٰ، عطف؟ نعم، فالصداقة تقتضي الكثير من العطف ولا عيب في ذلك. صدقيني، من سيضيع وقته ليكتب لنا رسالة أو يصنع لنا شايا أو حتىٰ يطيب خاطرنا إلا صديق عطوف؟ لأن هناك أصدقاء قساة القلب أيضا، تلك قصة أخرىٰ.»

ـ قد يكون أحمق لا يقدر قيمة وقته.

سكتت الراقصة العجوز وطلبت شاي أعشابها المخصوص. تقول إنها مهدئات أسيوية، وأنا أقول إنها مخدرات. صمتت تماما حتىٰ أنهت فنجانها ثم ناولتني إياه ببطء مفعوله،

ـ أفضل أن ألقبه بالصديق.

بت ليلتي في شقتها، أعطيتها الدواء والليمون ومنقوع الجنزبيل، مسدت قدميها وذراعيها بالمراهم، ساءت حالتها في الليل وتحسنت في الصباح، صحوت علىٰ رائحة خبيز كيكة الليمون الذي تراكم بأدراج الثلاجة. أمضينا نهارنا مسترخيين ندخن ونتحدث في شمس الشرفة.

لمياء

سُحب كثيرة تغطىٰ السماء، إضاءة أحبها، وسيجارة بطعم الكرز، أعرف أنني حين أرجع لن أستطعم «الكليوباترا» ثانية. أحمل معي فقط ما أحب، موسيقىٰ الوطن. لا أفضل التواصل مع الذكريات الأخرىٰ المحملة بالمهانة والضوء القوي، أستمتع لأول مرة بتعريف الناس لي كـ«غريبة»، أدندن بصوت عال أغنية نوبية لا أفهم معناها وأطوح ذراعي بحرية.

الشجر الآن يتلون بدرجات أحبها، الأحمر يدفئ قلبي، كالآخرين ألبس نصف كم، درجة الحرارة أقل من أي يوم شتوي في بلادي، أتقبل بخفة فكرة أن الغربة لا تشعرني بالبرد.

يحط سرب أوز في الحقل المقابل. هانئة تمشي الطيور الضخمة متأرجحة بثقل سيُفقَد خلال الهجرة الطويلة، مثلي من قارة لقارة يعبرون، مثلي يطلبون الدفء في مكان آخر.

محاولة كتابة خطاب لقلب

رغم أن كارما لم تبعث خطابا واحدا إلى قلب إلا أنها كتبت له مئات المحاولات. مزقت بعضها واحتفظت بالبعض، لكنها لم ترسل إليه أيا منها. لم تكن تملك الشجاعة، همست لقلب وهي تناوله الرسائل. لكنك تملكين الشجاعة لتظهريها الآن أيتها المخادعة، الآن بعدما أصبح قلب شهيرا، بعدما أصبح غالي مطاردا، أهمهم بالإنجليزية وأنا أقرأ ما كتبت: pitch.

ليل خارجي

أتبختر في الأيام الموعودة التي لا يتبقى فيها أحد، أزرع بداخلي فصولا عديدة، ويظل الخريف ساعات فسيحة عقاربها أبراج مشيدة على فراغ. دقات قلب الحذاء العالي على الرصيف المتدئ هي الصوت الوحيد القريب، افتتاني غير المقصود بمفارق الوحشة والظلام تدفعني للوحدة، عند كل منحنى أتوقع الأسوأ لكن الكون يضمر لي السلامة، حلم سري بالتبختر أو المصارعة، أتلفت دوما للتأكد ـ

غير واثقة ـ أني في أمان، أغطية البالوعات الفخمة تلمع بانعكاسات بعيدة ورطبة تثير في نفسي قلقا وحنينا، وحين أعبر الإسفلت ووجهي في الأرض أكون قد خنت حذري بسبب تعاستي في بعادك.

تمزيق.

ليل داخلي

أبقى واعية بتلك الحُمى، بذلك المرض يركض حولي من حجرة لحجرة، ألمحه مارقا ليختفي في الظلال. غيرتُ كل مصابيح الشقة وضاعفت عددها، لو ماتت الظلال سيموت المرض وسيدفن معه التهديد بالفناء ويبعث الوعد بالراحة. لذة ساخرة تلك التي تقيدني وقت أفكر فيك، ملتفا بوشاحات أُلفة وحنان، كأبي تضحك لي، كوحيي الأعمى تسبقني بخطوة فألتقط آثارك ولا أبصرك، في حياتي أنت كقارئ أفكار أو كمشعوذ قديم، تسكن في مكامن ضعفي لتعزز قواي. وكما تعودنا الحلم لا يتبخر، أنا أواجه واحة الكون الصحراوية وأنت تتمركز في قلبي أخضر، أهيم حولك ولا ألمسك. رغم أنك تجذبني حتى الامتلاء، لن تفهم أبدا عما أتحدث.

تمزيق.

كارما وغالي

حين قررت كارما أن تتصرف باتساق مع نفسها أخذت غالي معها للبيت، وضعت مشاعرها القلقة لتهدأ بأمان في الثلاجة لكن البرودة لم تقتل قلقها ولم تهدئه، فقط حافظت عليه طازجا، وأول ما فتح غالي باب الثلاجة، انفجرت مشاعر كارما في وجهه قيئا مقرفا.

تركت سويسرا منذ شهور وتركت معها كل ما تألفه، لا تشعر بالراحة في وحدتها بالقاهرة فتهرب للناس، تقرر في عصرية يوم حار أن تنفتح على الدنيا؛ هل كانت حرارة الصيف الذي لم تحمل عنه أي ذكرى مصرية غير مرح البحر أم أنه الملل الذي يشجعها على التغيير؟ تقف وتدور حول نفسها، تتأمل شقتها. لا يوجد أي مرح في هذا المكان، كل الأسطح تأكلها رطوبة كئيبة. قررت وهي تتأمل جدران شقة والديها أن طاقة المكان التاريخية تعوقها عن الكتابة، ذلك القدم المتسرب على أسطح الجدران يصب عليها طاقته السلبية، فقررت أن تعيد تزيين شقتها. لم تتجاهل أن الكتابة عصية عليها لأنها وحيدة وفارغة، فقررت أيضا أنها تحتاج إلى رجل، ولم يكن في مرمى بصرها غير غالي، ذلك المعتوه الذي يخرج لها من كل صندوق، فليصبح ذا فائدة أخيرا.

في سويسرا كانت تتغلب على مشاعرها بالذهاب لصالات اللوتو ولعب الشطرنج مع والدها أو الطبخ مع أمها، كانت تعيش مع والديها بنفس عادات وتقاليد أي أسرة مصرية تعيش في جاردن سيتي أو شبرا. تصنع أمها الطعمية وتدمس الفول وتطبخ القلقاس في المواسم. كانت أمها تصوم أغلب أيام السنة وتحظر عليها مصادقة الفتيان الذين كانت تواعدهم سرا. لكن منذ عودتها إلى مصر، يعاملها الجميع كخواجاية، حتى في أوساط المثقفين كان الرجال يصنفونها فريسة سهلة ومتحررة بالضرورة. بالغت كثيرا في ردود أفعالها حتى عرفت بالشراسة. تعرف تلك السُمعة التي تلازم بعض المبدعين؟ أنهم مخابيل ولا يُحتملون، كارما تملك تلك السمعة. كافحت كي تمنع الرجال من استغلالها لكنها لم تتردد في استخدام غالي.

حاولت جاهدة أن تخرس الأصوات الهامسة في عقلها والتي تفح: كاذب، كلما همس بمجاملة في أذنها محاولا إدخالها في «الجو»، يهمهم أنها أدفأ امرأة قابلها وأنها جميلة فيتصلب جسدها بين يديه. لم يقل أنها أجمل نساء العالم لكنها ظلت عاجزة عن تصديقه، هو أيضا كان يبالغ بزيادة. كان يغمض عينيه كثيرا، تقول لنفسها أنه يتخيل أخريات بالتأكيد وتبدأ في طقوس «النفسنة». من قال إن الرجل فقط يختبر العنة؟ لقد فهمت كارما معنى أن تكون عنينا في تلك الليلة مع غالي، حين استفاقت في صباح اليوم التالي، جزئيا من تأثير الفودكا والحشيش، كان إحساسها زفت. غالي كان ما يزال هناك ورائحة الأوملیت تملأ المكان، اقترب منها ممسكا بالمقلاة الملتهبة مثنيا على دخول الشمس شقتها. لم تكن قد لونتها بعد وكانت أكثر كآبة قبل القطط. لم تتمالك نفسها وتقيأت عليه فجأة.

لم تكن غلطته، كان يحاول أن يكون لطيفا، لم يكن يعلم أنها لا تتحمل الروائح القوية في الصباح. على أي حال، انتهى الموقف به

يحاول تنظيفها، نفسه والأرض. تقاطعت الاعتذارات وشعرت بمزيد من الزفت، نامت وصحت فلم تجده. ودت الاعتذار إليه. تفكر: لابد أنه ظنني مجنونة، فلماذا أجرجر رجلا إلى غرفة نومي لأكلمه عن الأخلاق؟ أي حماقة! لكن النوم غلبها ثانية.

حاولت أن تعتذر لكنه لم يكن مستاء، تكونت في عينيه نظرة اعتذار أعمق من إحساسها بالذنب. كان وديعا جدا وهو يؤكد لها أنه يتساءل إذا ما كان محظوظا في تلك الليلة حين رفضته. قد يكون هذا هو الحل، اعترف لها غالي، أن يغير شكل علاقاته النسائية لتتبدل نهاياتها القريبة. وإذا كان عدم النوم معها هو التعديل المطلوب في شكل العلاقة لتستمر وتنمو كما لم يحدث معه في أي علاقة سابقة فلا مشكلة، فقط يريدها أن تتركه ليأخذ حيزه الطبيعي في حياتها. قال لها كل ذلك متخليا عن صورة الرجل المسيطر التي عاش حياته يرسمها باستماتة.

تلك كانت لحظة أخذته فيها على محمل الجد، تخيلته للحظة شريكا محتملا في الحياة، فغالي الذكوري الواثق الذي حام حولها لشهور كمصارع ثيران متفاخر، يُرقص لها قماشته الحمراء ويظهر لها من باطن الأرض لم يجذبها أبدا، إلا لنطحه بقرون الثور الذي لا يستمتع بلعب دور ضحية المفترس المحاصَرة. أما ذلك الطفل التائه الذي يظهر الآن بجانب الحلبة، مادا يده لأم تنظفه وتغير ملابسه التحتية الغارقة في فضلاته، ذلك الدلدول هو من كانت كارما تتمناه دوما.

الدلدول

تستخدم هذه الكلمة لوصف الرجل الذي لا رأي له، الرجل المنقاد، خاصة من زوجته، فهو رجل دلدول. المعنى الأصلي في اللغة

العربية لكلمة دلدول هو حيوان أشبه بالقنفذ. إذن فالرجل الدلدول قد يكون هو المنكمش في نفسه كقنفذ، لكني أظن المصريين ابتكروها من أصل الفعل دلدل، مدلدل، فهو دلدول، أي معتاد على التدلي. والشيء المتدلي يتحرك بحرية كرد فعل لحركة حامله وليس له في ذاته إرادة أو قدرة على الفعل، في ثقافة تقدس كون الرجل صلبا، يصبح الرجل المتدلي عارا. لكن كارما كانت تعرف أنها لن تُعمِر إلا مع رجل دلدول، أو كما اعتادت أن تصارح جونفيف، عايزة راجل تكون الكلمة عنده كلمتي والشورى شورتي. كان هذا ردها الوحيد على ذكورية المجتمع الذي سافر معها وعادت إليه ليعزلها عنه شيئا فشيئا. كانت تحلم في سويسرا زمان بشاب قوي وطويل، به كل مواصفات فارس أحلام الأميرة البلهاء، يخطفها بحصان يعلو فوق الملل والمخاطر. لم يكن موجودا هذا الفارس، لمحته لحظات يعبر الشارع أمامها، أو يختفي في نفق المترو، تجري وراءه وتخبطه في ظهره، ولما يلتفت بوجهه لا ترى فارسها. لكنها في مصر، كرهت الفرسان وارتعبت من فكرة أن يخطفها أحد، أن يقودها أو يلغي وجودها أحد. دعونا نلاحظ أن معاناة كارما كانت اختيارية كعودتها تماما، فهي دائما تستطيع العودة للمعيشة في إحدى شقق أبويها في سويسرا وتعيش من ريع ميراثها، لكنها تريد الخلود، والخلود طريقه أسهل في مصر. هي تكتب بالفرنسية نعم، لكن المنافسة قوية جدا هناك. هل تعلم عدد الكتب التي تصدر بالفرنسية في السنة الواحدة؟

بعد وفاة والدها، رجعت إلى مصر بخطة لاقتحام الوسط الأدبي المصري، إلا أنها لم تفعل لشهور. بعد عدة زيارات استطلاعية محبطة، انعزلت داخل شقة والديها القديمة بالقاهرة. غيرت فيها الكثير لاحقا لتفرحها، ساعدها غالي الذي عمل بالمقاولات بعد هجره الخزف. أسأل قلب إذا كانت كارما دفعت له أم لا، يقول لا أعرف، ويغير الموضوع. أظن أنها لم تصرف مليما على تجديد تلك الشقة، لها

باب جانبي يفتح على حديقة صغيرة جدا، تحولت إلى مكان رائع للاسترخاء بعد إحاطتها بالحصير لتُعزل عن أنظار المارة. تراقب كارما غالي واقفا أعلى سلم يدهن الحائط، لا يعمل بيده غالبا وهي تعلم جيدا أنه يتصيد الفرص لقضاء الوقت معها. جعلته يركّب أيضا الحديد على كل الشبابيك. لم تكن تعلم مما تخاف بالتحديد، لكنها كانت تعلم أنها خائفة وتحتاج إلى رجل يحميها لا ليقيدها. تمسك لغالي دلو الطلاء وتفكر في احتياجها إلى رجل يلتزم لها دون أن يُلزمها، يكون موجودا دون أن يثقلها بوجوده.

ولكن هل غالي حقا هو ذلك الرجل الدلدول؟ لو كان غالي متهدلا لاستمرت علاقته بسلاسة مع كارما ولعاشا بسعادة إلى الأبد، على العكس تماما، فلهفة غالي العاشق ورمانسيته في الحب التي تُؤثر في النساء لم تنبع أبدا من سراب حب عظيم يأبى كل قيد ويستعصي على التحكم، أبدا، بل يحركها تهور ذلك المصارع المسكين الذي عادة ما يموت فداء المخاطرة تحت أقدام أحد ثيرانه. لكنني أعذر كارما على تقديراتها اللحظية غير الدقيقة عن غالي، فقد رآها الرجل تتعرى على الكوبري، ثم أنقذها من الموت بعد أن رماها راسم الطريق في بحيرة قارون، أوصلها إلى بيتها، أطعمها وغطاها لتطرده، قابلها ثانية ترقص في أفتر إيت وتجاهلته، جرجرته إلى بيتها مرة أخرى بجزرة جنسية لتؤنبه لساعات وتتقيأ عليه، وها هو واقف أمامها يزين بيتها بألوان تحبها. يجب أن أعترف، غالي كان ولسبب مجهول يتعامل مع كارما كدلدول أصيل. دعونا نتذكر أيضا أن غالي لم يتصرف مع أي من حبيباته السابقات كدلدول، بل كان وغدا أنانيا قاطعا كحد السكين ولنا في شيرين عبرة، سكين يتطابق مع تصوره عن رجولته المنشودة، صلبة وقاسية، سلاح معدني قادر على القطع والسحق ويجب التعامل معه بحذر، فلماذا اختفى ذاك السكين مع كارما وحلت محله قطعة حرير متهدلة ورقيقة؟ هل يرجع ذلك

للحب؟ هل ينسخط المصارع حين يحب إلى طفل تائه وسط حلبة المصارعة؟ هل يغير الحب الرجل إلى دلدول بشكل أوتوماتيكي؟ أم أن لهذه الحكاية خصوصية لا تصلح للتعميم؟ أعتقد أننا لابد أن نتحرى إجابة بعض الأسئلة لمعرفة ذلك، أولها: هل أحب غالي كارما فعلا؟

هذا نقاش قد يطول، فالقصة طويلة والتفاصيل كثار. لو سألت غالي لأقسم أنها المرأة الوحيدة التي أحبها، ولحُلّت المعادلة وباتت: رجل × الحب= دلدول. لكن مهلا قليلا، قلب أيضا أحب كارما، أو هو يظن أيضا أنه يحبها، لكنها لم ترَه أبدا كدلدول. قبل السجن كانت كارما أحيانا ترى قلب كدلدول، دلدول غالي وليس دلدولها وكان هذا يغضبها، فقد سافر قلب وراءها لآخر الدنيا بوسوسة من غالي، أغلب لقاءاتهم كان مرتبا لها من قبل غالي، كانت علاقة كارما بغالي هي مدخل كل حديث يدور بينها وبين قلب ومغزى كل لقاء، أو هكذا حرصا على التظاهر. كان قلب يلعب في حياة كارما دور رسول غالي للغرام، دلدوله الموثوق المخصي الذي يؤتمن على الحريم لانعدام دوافعه للخيانة. فقط بعد خروج قلب من السجن اختفى غالي من سماء علاقتهما، ولم تعد كارما تراه دلدولا لأحد، فطمعت أن تجعله دلدولها الخاص.

دعونا نلاحظ أن قلب لم يصارح كارما بمشاعره تجاهها قط. إذن ربما لا يتحول الرجل إلى دلدول بمجرد أن يحب امرأة، ربما يجب عليه أن يصارحها بمشاعره ليبدأ في التحول إلى دلدول بشكل تدريجي حتى يصبح دلدولا متكاملا. فهل تتغير المعادلة إلى: اعتراف/ مشاعر (رجل×حب) =دلدول؟ لا لست راضية أبدا عن تلك المعادلة، من نخدع؟ كلنا رأينا رجالا يقعون في الحب دون أن تتهدل أكتافهم وبغير أن يعلقوا في جيب سترة سيدة. إذن ربما يولد الإنسان دلدولا أو غير

دلدول، ربما الدلدلة تركيب جيني يورث، وكان غالي طوال الوقت دلدولا يحرص على التظاهر بعكس ذلك، كشاب يكره القتال فيربي عضلاته ويضخمها ليبدو كمحارب، بينما داخله طفل لا يعيش إلا خلال لحظات حياته الأكثر شفافية والأقسى، لحظات الحب النادرة، حين يحلم بفيرينا أو بكارما، فيظهر الطفل الحائر باحثا عن أم تنظفه. لكن الحقيقة أن غالي غير واع أساسا باتساخه، غالي يرى في قاذوراته شيئا طبيعيا وغير مؤذ، لذا يتكرر السؤال، لماذا تصرف غالي مع كارما كدلدول؟ أنا أقول السبب الكلاسيكي، هو لم يملكها أبدا، لم تهبط في خياله من مرتبة القديسة إلى شريكة فراش، صعدت حين رفضته ولم تهبط بإصرارها، فغالي يقدس التقاليد والعهر بنفس الدرجة، أعجبته احتمالات عهر كارما في البداية كما قتلته في النهاية قدرتها على الصمود. هذا تفسيري وقد يفسر ذلك أحلامه بفيرينا القديسة التي يحرص على تسميتها ظهورات، وقد يفسر افتتانه بزوجة أبيه فيرينا في نفس الوقت.

بائعة اللبن

خوار يسبق خبطتين على حديد الباب، صرخة غير مفهومة لكنها عالية وموسيقية، حليب يا لبن، حليب. تنادي بائعة اللبن بصيحة ملوية ومحرفة لكنها مبهجة وبيضاء. بعد ثوان تراقب عيون قلب الزرقاء تقفز هابطة السلالم، تجلس بائعة اللبن تحت الضوء المائل وتحلب جاموستها مباشرة في الكسارولة الألومونيوم. لم تنجب أبناء وتحب ألوان وجه قلب واسمه، يسرح أمامها كل فجرية متأملا ضفائرها القطنية ووشم ذقنها الأزرق، على الذقن ثلاث خطوط رأسية وسبع نقاط، رقمان مقدسان. قرأ قلب مرة أنها عادة فرعونية قديمة، يرى ابتسامة في الكحل العميق لعينيها تذكره بوجه ملكة فرعونية في كتابه، عيونا عسلية. يأخذ اللبن ويصعد ببطء مبالغ فيه، لا تحب أمه أن يسكب اللبن. تراقبه بائعة اللبن في ظلام المدخل ثم تخرج ليتطاول ظلها بجانب باقي ظلال الشارع المنزلقة على زوايا البنايات القريبة.

فلننتحر في مكان آخر

في أحد خطاباتها لقلب تكتب: الموت مخنوقا بمفردك أخف من الموت مخنوقا وسط الزحام، مريح أن تجد لذراعيك مساحة ليلاطما هواء بات عسير على التنفس، ستكون محظوظا لو وجدت إنسانا شجاعا كفاية ليرافقك في تلك الرحلة الأخيرة المقرفة، دون أن يحاول دعمك، دون أن يمسك كفك عنوة ويشد عليه، من غير أن يزعجك بمشاعره ويسقط عليك مخاوفه الشخصية من الموت، فقط يناولك الماء ويحرك الهواء أمام أنفك لعله يتسرب إلى رئتيك، بلا شعور بالذنب، بالعطف أو بالبطولة.

أريد أن أتخلص من هذا الإرهاق، من هذا الإحساس الدائم بالتعب، كأني قضيت حياة قديمة أجري. لأولد في حياتي تلك أبتغي الراحة والسكون، فبعد أن تجري طوال عمرك يصبح ثبات الموت نعمة، حياتي التي أريد أن أتخلص منها الآن هي نعيم ذلك الموت، هي موت ذلك النعيم، وحين أصحو منها، فإني أعود إلى الحياة في موتي؛ هل تفهمني؟

حين سافرت في بعثة دراسية إلى أمريكا سكنت مع فتاة أكرهها، كنت أتمنى من الله ألا أموت خلال تلك السنة هناك، معها، ألا تكون تلك الخنقة إلزامية حتى النهاية، ولما أحببتك تمنيت أن أدفن معك. ما علاقة الموت بالحب؟ يقول الناس أحبك موت، بمعنى الحب الشديد، فهل الحب الشديد موت؟ أعرف أن حبي لك لم يمنعني من التفكير في الموت.

منذ رجوعي وفكرة الانتحار تراودني. أعجبتني فكرة أن أتحكم في موعد ومكان موتي، في ظروف نهايتي وآخر ما تقع عليه عيناي.

تعمدت لمياء أن تسير الأمور ببطء في ذلك النهار. عندما قفز

الضوء إلى مقلتيها ليوقظها، عرفت أن هذا هو الصباح المناسب لتنفيذ حلمها النهاري المغوي، ستؤدي ببطء هذا الصباح لتدرك كل تفاصيله احتفاء بتميزه، وأيضا لأنها تريد أن تتذوق جيداً ما قد يكون آخر عهدها بنوعية معينة من الأنشطة. كانت «الشبورة» تضفي تأثير الباستيل على كل الألوان، مسحة بيضاء مجسمة تغلف كل شيء، وكان هذا الحال أيضا أمام باب كنيسة مارجرجس، عساكر حراسة قريبون تميزهم كأشباح بفعل الضباب. تدخل الكنيسة وتوقد شمعتين، تجمدت تتلو صلاة طويلة مر خلالها خمسة أفواج سياحية وفرادى كثيرون، جميعهم نظروا إليها وخُيل إليهم لوهلة أنها ميتة، تجمدوا لأجزاء من الثانية يحدقون في جثة واقفة تصلي وتضيء الشمع وعلى وجهها تلك البسمة التي يرونها في وجوه الشهداء الراضين المرسومين خلفها. ينفضون جميعا رؤوسهم ويرجعون الخدعة لعوامل الإضاءة، يساعدهم كون المرأة واقفة على قدميها. لا أعرف لما أوحت لهم لمياء أنها ميتة، ربما ثباتها، ربما لونها المقارب للون الشمع الذي تحدق في باقاته. أُرجح أن السبب كان في ارتخاء جسدها وراحته، فقد كانت في تمام الرضا والاستسلام، كجسد مناضل يؤمن أن مصيره الجنة، جسد راض بحقيقة أنه بلا مستقبل، كجثث الموتى مرتاح تماما.

أخيرا حركت لمياء عينيها، حول المكان ظلام آمن ورطوبة، تتسع ابتسامتها وتتجه في جولة تنتهي بجوار صندوق زجاجي مليء بالأوراق المئنية وقطع النقود الصغيرة، تقف طويلا، تتبين الكلمات القليلة الظاهرة من خلف الزجاج، كبئر أمنيات مصغر يرمي فيه الناس شكاواهم وهمومهم، تتبين «يا سيدي خليها ترضى؟ ترعى؟ أوجاع كثيرة وذنوب لعل مارجرجس العظيم يشفع ويساعد، بمساندة كتيبة من القديسين ذوي القوى الخارقة، أمها تعتقد في ذلك. تقسم أمها أن مارجرجس زار خالتها الكسيحة في

الحلم وأجرى لها عملية في المنام صحت بعده تجري، تعاكس لمياء أمها في زياراتها المتباعدة للبلد، لماذا يشفي مارجرجس المسيحي المسلمين؟

ـ خالتك ارتدت عن الإسلام يا امه؟

تطل أمها بوجه حاد جدا وبصوت جاد تلوم لمياء:

ـ أقعدي خرفي كده ومش عارفة ليه بتبوري وبيعفك العرسان؟ دي ناس واصلة يا حبيبتي ما تبصش غير في القلوب، بالك السيد البدوي لو مسيحي ساقه هيرده؟ بس يا خايبة، التعليم ما طمرش فيك.

تكتب لمياء لاحقا بغرفتها في القاهرة هيكلا دراميا لمسلسل كارتوني، سيحبه منتجو هوليوود ربما، لا منتجو بلدي الحساسون للأديان، بطله قديس خارق، أو سوبر شيخ. نعم نعم، لنجعله مسلما هذا الكاراكتر، سيهاجمونه بشدة ويكفرونني بسبب شخصية الشيخ السوبر، سأغدو نجمة المنتديات الفنية المعتدى عليها والمهددة، صاحبة الرأي اللاجئة السياسية، ستحظى شخصية السوبر شيخ بشعبية جارفة وتقود ثورة.

تقف بجانبها امرأة تغطي شعرها، تضع في الصندوق ورقة مطوية وتهمس بقراءة الفاتحة:

ـ وحياة النبي يا لبطل الروماني، اشفعلي واشفيهولي، زوره يا سيدنا واقتل المرض زي ما قتلت التنين، يا مارجرجس يا عظيم، حلفتك بجاه النبي وطهارة العدرا، ساعدني يا بطل.

تتذكر لمياء حكاية مضحكة لا تعلم إن كانت شاهدتها في فيلم أو قرأتها، امرأة عجوز هدم بيتها تحكي في لقاء تلفزيوني عن ملابسات عيشتها في الشارع. لجأت لكل موظف بالحي حتى وصلت للمحافظ ولم ينجدها أحد. أنهت العجوز حوارها بأنهم ـ المتضررين ـ اتفقوا

سويا ورفعوا شكوى فتعجبت المذيعة لمن أرسلوها بعد المحافظ، فردت السيدة بانفعال كبير: لسيدنا الحسين هو اللي هيقدر عليهم.

كادت لمياء تقهقه ضاحكة لولا ما تلمحه حولها من أطراف كلمات تروي كثيرا من المآسي التي تمنع القلب الحي من الضحك، فاكتفت بابتسامة متعبة.

تتمشى حول المكان وتخرج إلى الشارع المسجون، تلمح أعلى الدير دش ضخما، تقرر أن تدخل المعبد اليهودي. كانت تظن أن الأديرة دائما ما تكون منعزلة وأنه لا حاجة لراهب في تلفاز. ترجع ثانية إلى داخل البوابة، دكان صغير يبيع منتجات الدير، تشتري العسل الأبيض الذي تحبه والمِش، تتعجب من البرطمانين الزجاجيين في يديها وتركز ضامة حاجبيها: ألم تكن تنوي الانتحار؟

ـ مش لازم يبقى نفسي في حاجة.

ردت على نفسها.

سألتْ الراهبة عن «الدِش» فردت أن هناك تلفاز وحيد في المكتب يستخدمه الآباء لمشاهدة الجزيرة والقنوات الإخبارية.

تبادلا البسمات واتجهت لركوب المترو الذي تكرهه.

فيرينا الحلم ١

يتجه غالي في الحلم إلى الحمام، يجرع كأسا مستديرا ثم يقذفه ليغوص في ظلام المرقص المتلون، تختال أمامه في الطرقة الضيقة السوداء فتاة تلبس حمالات رفيعة وتقف فجأة، يشدها غالي الحمالات فترتد لاسعة كتفيها، يستدير فمها في تعبير شبق عن

الألم، يتعانقان أمام باب الحمام المغلق في خلفيتهما كالبرواز، رأساهما يتمايلان ملتصقين كزوج يهام. تقفز الفتاة وتتعلق أطرافها الأربعة بغالي فيهتز كل شيء. تقاومه فجأة بغباء، يتراجع تحت عنف ضرباتها وينظر، غالي لا يفهم؛ بدلا من عيون الفتاة الجائعة تظهر عيون عاتبة للعذراء. يرتعب غالي، مريم؟ يا للمسيح! هل أغتصب العذراء؟ فاصل من اللطم على الوجه وضرب الرأس بالحائط قدمه غالي ليدلل على ندمه. يسقط فتجره القديسة وتضعه على شيء طري. يا إلهي، تمسح دمه بكفيها، تهز القديسة رأسها نفيا، لست العذراء مريم. يقل رعب غالي لكنه لا يختفي، يعلم أنها قديسة. تحرك شبيهة الأم العذراء شفتيها، يشعر غالي بالإثارة ثانية ويبكي من الذل والغضب، كيف تثيره قديسة؟ هل هو ضال لعين؟ أنا فيرينا. تتسع عينا غالي ويفكر في قلب. فيرينا تبدو هشة وسحابية، لكن الضعف في نظرتها كان أقوى ما اختبره غالي. يستمر بكاؤه في الحلم بينما تواسيه بصوت مخملي، بيننا بحر وثلج وجبل، بيننا رحلة وعودة دون لقاء، بيننا موت وحياة، بيننا أساطير ونقص شديد في المعلومات. كانت القديسة تحكي لغالي عن كل ما يفرقهما وهو ممدد بجانبها يكاد ينفجر من الرغبة ويموت من الذنب. لم يكن يستطيع ترك القديسة ممددة على السرير الحريري المستدير الناعم بمفردها، فهي قديسة بحق السماء، اختارته لتتواصل معه، لكن عندما لمست شعره، ابتل سرواله وسقط ثانية على أرض الحمام المعدنية ليصحو في سريره مغمورا بالعرق.

إعادة حكي متعاطف

تجلس كارما أمام دفاتر ماتيو تحاول التواصل معه فكريا، اختياراته في الكتابة كانت غريبة، كتب عن نساء قابلهن لدقائق، يرسم أجسادهن ويطيل وصف طريقتهن في تحريك أيديهن وتصميم حليهن، يحكي عن رجال فاسدين يحكمون ومهمة جاء فيها. مسكينة جونفيف، لن نعرف أبدا ما لذي كان سيكتبه عنها. تفكر أنه ربما كان لن يكتب عنها شيئا، أو أن ذكراها كانت أثمن من أن يكتبها في هذه الدفاتر بجانب كل تلك التفاهات. أحيانا ما نكتمه يكون أصدق وأغلى مما نعرض، فكرت أن تطير لتحكي لجونفيف عن نظريتها، توقعت أن تتراقصا وربما تشربا بعض النبيذ الأحمر، لكنها تذكرت أنها غير موجودة، ربما هي معه الآن، ماتيو حبيب القلب في جنة ما قريبة من معسكرها المجنون الذي لازلت أعتقد أنه مصر.

أوصت أن تدفن تحت شجرة بندق وليدة، لتنتهي حيث بدأت مشيمتها، رفضت التابوت وأصرت على الدفن مباشرة في التراب مما أخر دفنها، فالأمر احتاج لتصاريح عديدة. لم يكن هناك الكثير من الناس، ونتف الثلج تنقي قلب كارما وتعلق بوجه جنفيف المسجاة

وشعرها، آخر ما أهيل عليه التراب كان بسمتها الواثقة المرتاحة. لم تكن هناك دموع في تلك الجنازة، فأبناء أخواتها كانوا متعاطفين لكنهم لم يفتقدوا خالتهم المجهولة لدرجة البكاء، وكارما كانت مجمدة، قلب بجانبها، يسندها في طريقهما للدخول إلى المنزل عبر الحديقة التي تناثرت فيها عدة شواهد لأفراد من العائلة، أخرها كان على هضبة صغيرة حيث وقف الجمع الصغير أمام قطعة رخام كتب عليها:

لن أنساكم

جونفيف ستونزي

عاشت أفضل السنين

موتوا بغيظكم

هكذا بلا تاريخ ولا أعوام. كم هي ظريفة تلك المرأة، كأنها تنعينا نحن، كأنها تخرج من قبرها وتخرج لسانها للجميع، هاي أنت، لماذا أنت حزين؟ فكها يا شيخ. ابتسمت كارما سعيدة برجوع قدرتها على البكاء أخيرا فأجهشت.

جونفيف هي من أطلقت عليه لقب الشيخ القبطي، انتشر الاسم بسرعة ليصبح أشهر من اسمه الحقيقي. عرفته في مولد، كان يتبع رقصها من مولد لمولد، أول ما بدأت كلامها قالت له يا شيخ، كانت تظنه تابعا صوفيا. عرفت بعد فترة أنه مسيحي فلم تغير لقبه، فقط أضافت لنهايته صفة القبطي، ليصبح الشيخ قلب القبطي. يقال أيضا أن الاسم أطلق عليه في المعتقل، كان السجناء يسمعون حكايات عن السجين المعذب، يرونه في الحمام أحيانا ولا يجرؤون على الاقتراب

منه. غير مسموح الاقتراب أو الحديث مع السجين المسكين الذي لم يبد عليه أنه لم يعد يراهم أو يشعر بهم على أي حال. كانوا متأكدين أنه جُن من الحبس الانفرادي سنوات في زنزانة الجحيم، كانوا يقولون الشيخ المسكين، ثم عرفوا اسمه الأول. تشجع سجين في يوم وهمس مدعيا التبول بجانبه في الحمام، اسمك إيه؟ قلب، الشيخ قلب، ثم عرفوا أنه ليس معتقلا إسلاميا رغم ذقنه الطويلة وليس مسلما، فأسموه الشيخ قلب القبطي. لكن ذكريات السجن تبدو بعيدة عنه وهو يجلس بجانب كارما كما جلسا معا من سنوات طوال.

نفس المطعم ونفس الفندق، حتى النبيذ من نفس النوع. الآن قلب بجانبها لكنه أبعد من خط الأفق. كل ما أرادته في تلك اللحظة هو أن تخطفه، تكون هي فارسته، تهمس له ببساطة أنها تحبه، وأنها تريده، لكنها عوضا عن ذلك اخترعت له حكايات فاضحة عن غالي وبالغت في حكي تفاصيل جنسية مختلقة. لا تعلم لما فعلت ذلك، كانت سكرانة ومغتاظة، كانت تذوب أمامه وهو وجهه أجمد من الحجر. اقتربت منه وتفوهت بكلمات وهي تنظر في عينيه، عساها تلمح غضبا يريحها، لكنها شاهدت تلك الكلمات ترتفع بينهما كحاجز زجاجي لا تستطيع تجاوزه بجسدها لكنه لا يحد بصيرتها، تحاول ألا تلبس فيه فينكسر على دماغها، فتضطر للمشي بمحاذاته سكرانة. يا ربي لماذا هو مثالي إلى هذا الحد هذا القلب لماذا؟

جونفيف

أحبت كارما، امرأة لا تخجل من لفت الأنظار لأنوثتها العجوز. رغم أن فارق العمر كان لصالح جونفيف، إلا أن كارما دائما ما حسبتها صديقتها الأصغر والأكثر حيوية، دون إنكار حكمة عمرها الطويل، فهي التي تلبس الألوان القوية والمتعددة، التي لا تستحي من الرقص والصياح في الأماكن العامة، لم يكن عمرها يخشى البرتقالي الفاقع ولا الأخضر الليموني المنير. كارما التي لا تكاد تصل لنصف عمرها تلتصق بألوان لا تفصح عن نفسها، ألوان لا يمكن لطفل أن يسميها، ألوان غير بسيطة تتعالى على وضوح الأزرق وبريق الأصفر بتعقيدها، تتعالى على الطبيعة. نظرت إلى دولابها الباهت وشقتها القديمة، وقررت تلوين شقتها كبداية واحتفظت بحيادية ملبسها. لم تكن جونفيف بحوائطها الباهتة وخزانة ملابسها البراقة مجرد انعكاس مقلوب لكارما أو مصدر إلهام لكِتاب أعاد كارما لقائمة الكُتاب المفضلين فحسب، لكنها أعادتها أيضا للتفكير بقوائم أصدقائها التي تكبر على مواقع التواصل الاجتماعي وتنعدم في الحياة الواقعية. بعكس جونفيف التي تصاحب طوب الأرض ولا تتعب ركبتها العجوز من المشي، كارما كانت مفاصلها تنقح عليها بشدة وهي تزحف لفا ودورانا خلفها، تعبر سكك قطارات وتخطو

في حضن شوارع تخفي مداخلها تلال القمامة. تقودها في شبكة من حواري القاهرة لتُعرفها على معالم وشخصيات لم تقابل مثلها أبدا من قبل، ثم تختفي تاركة كارما تحاول الخروج من المتاهة وحيدة. كم كانت مجنونة تلك الجونفيف وملهمة!

يقول قلب أنه رأى جونفيف لأول مرة تدور بالتنورة في مولد السيدة، لم تتوقف عن الدوران لساعات واستطاعت الجموع أخيرا ملاحظة قدميها ترتفعان عن الأرض. أقسم قلب أمام تشكك نظرات كارما أنها طارت أمام الجميع في ذلك المولد، بجناحها الدائري العملاق ارتفعت ودارت حول مئذنة الجامع وعلت فوق الشوادر المنصوبة، كطائرة رش مبيدات أو كسفينة فضاء ملونة انخفضت في السماء وارتفعت، ثم أضاءت كشعلة أو لمبياد أو كمصباح فنار معجز. كانت تلك إشارة للجموع الغفيرة على الأرض لتعلي الهتاف، الله حي، الله حي، يهتف قلب معهم ويسري حول جسمه حبل من نور يربطه بمن يقف بجانبه. يتذكر كل من أحيا مولد السيدة تلك السنة هذا الحبل الذي تحزم به الجميع، ذاك الشعاع الذي خرج من جسد جونفيف الدائر ليرفعهم في ذيل طويل يلف حول تنورتنها التي قادتهم في رحلة عبر سماء القاهرة. طافت بهم ذيلا نوراني لطائرة ورقية عملاقة تدور حول نفسها كنحلة مرصعة بالناس الألماس البراقين. طاروا فوق الأهرام وفوق القلعة، عبروا النيل وهضبة المقطم، قرع الهواء البارد رؤوسهم ببهجة دق الكنائس لأجراسها احتفالا بظهور أنوار القديسين. في السماء تحول الهتاف الذي كان راعدا على الأرض إلى همس كوني رقيق، كَعِتاب مُريح يزيل كل توتر، الله حي، الله حي.

انتهى العرض وهبطت التنورة وهبطوا معها مغسولين بندى السحاب ومنكوشي الشعر من هواء الرحلة. لا، جونفيف لم تُقدم أبدا على الرقص البلدي في الشوارع. كارما الكاذبة هي من أطلقت

تلك الشائعة. أحبت الرقص الشرقي لكنها لم تجده أبدا، إنما كانت تدور بمهارة ساعة سويسرية لا تتوقف.

فيرينا الحلم ٢

يسقط غالي بسرعة كبيرة وتتخبطه غصون جارحة، لا يفهم ماذا يحدث لكنه خائف جدا ويشعر ببوله الدافئ ينساب بلا تحكم، يحاول الإمساك بأي شيء، كل ما حوله فتات، رذاذ ثقيل وبرودة، يفتح عينيه ثوان ليرى بياضا في بياض، يغلقهما وينام. يصحو من البرد، جسده لا يتحرك وليس هناك من صوت، يرى قدمه أمام وجهه ويستعجب الأعشاب الخضراء وسط الثلج، يشعر بالتعب ويتمنى لو كان ميتا رغم يقينه أنه على وشك الموت، يغمض عينيه عله ينام حتى البعث فلا يتعذب، توقظه لمسة على جبهته، وصوف بلا لون يلتصق بوجهه ويكتم صراخه. ظل يصرخ من الألم حتى رأى وجهها الرائع وشم أطراف شعرها اللامع بالزيوت، توقف بعينيها وجع عظامه، تصلح بيديها كل عظمة في مكانها وتهمهم بمعجزتها وهو معلق بعينيها حتى قامت، اعتدل هو الآخر دون أن يعي معجزة غير جمالها. لا يستطيع وصفها لكنه يقول أنها رائقة ومنعشة كماء العطِش، رقيقة كياسمينة، راقية كفرع تيوليب. يقول أن زائرة أحلامه الذي يدعي كونها القديسة فيرينا، خيرة كأرض وعميقة كمحيط، حنكة كالطبيعة وخفيفة كالهواء. يصر بثقة أنه لم يطارحها الغرام بأحلامه، فهو ليس وغدا إلى هذا الحد، يعتدي على حرمة قديسة بعقله الباطن؟ مهما كانت مغرية وشهية؟! لا، لكنه يكرر أنه كلما زارته يصحو محتلما. الآن وهو يعيش بالقرب من رفاتها يحلم بها كل يوم، أدمن الأحلام فبات في انتظار الليل ملولا. يقال أنه ينام ستة عشر ساعة

في اليوم ليلاقيها، ولكن في هذا الحلم اختفت فيرينا وتركته وحيدا وسط الثلوج، التفت يائسا فهجمت عليه أنياب كلب كبير يأخذه ويسقط. خلف الكلب الذي كان يلعقه الآن بود كبير يرى أناسا كثيرين يحتفلون في خضرة حديقة ويلبسون ملابس صيفية. لم يجد ثلجا إلا على معطفه، يلعقه الكلب مستمتعا. نظر خلفه ليجد ملصقا ضخما لجبل ثلج، ينظر ثانية للشمس الحارقة فوقه، يشعر بدوار شديد ويصحو مجهدا.

للموت هيبة لا يراها إلا غريب

على سيرة الصوفية والقديسين، لو كان قلب حقا قديسا كما يصفه غالي فلمياء هي أقرب أتباعه لقلبي، ربما لأننا متشابهتان قليلا، كلانا تربى في بيئة تحيرت بين الحضر والريف فجمعت أقبح ما في كليهما، نشأنا بالقرب من المدينة نفسها، هي نِفَرِيَة مثلي ومثل قلب وكارما،، والدها الذي سافر للخليج اغتنى قليلا، لكنها لا تحرص على العيش كامرأة غنية، ليس مثل كارما ذات الأصل الرفيع، التي في أسوأ حالاتها ماتزال تبدو كابنة باشا حقيقية. لمياء الآن في إفريقيا تخالط الحيوانات البرية، وأنا في قرية في الفيوم أقابل أشباح قلب أو أشباحي. أضحك من نفسي، ليس هناك تفسير لمشاعري، لكني حين قرأت رسائل لمياء شعرت أني أثق بها، وإذا كان لا مفر من زواج قلب فليتزوجها، القرار ليس لي، لكن لا خطأ في الأمنيات مهما كانت سيئة، ولمياء ليست سيئة أبدا، بالتأكيد هي أفضل من الست كارما.

لمياء في المترو

تخنقها الرائحة الكريهة في العربات المكدسة وتهينها نظرات الناس برغم وجودها في عربة السيدات. تعمدت إخفاء كل ما تستطيع من جسمها رغم رفضها الحجاب. لا تحتمل أعصابها الانتقاد. في شبابها كانت ماتزال قادرة على المقاومة، أما الآن فتقدر ضعف أعصابها وتتحسس قربها من الانهيار ولأول مرة منذ عودتها تفتقد أمريكا التي لم تحب الحياة فيها.

الحياة علمتها أن العيش قد يكون أقسى بكثير من والدها الذي كرهته، الذي رغم مساه مع مرضه وعيوبه الشخصية، كان مجرد فُتات مُرّ وعطوف من خشونة الدنيا. قسوة الأب لدنة لا تصل إلى العظم لكنها تحرق الجلد وتشوهه، لتسم علامات مستديمة وظاهرة، تتجلى في تحكم سيء في الأعصاب وتأرجح بين قلة ثقة بالناس والنفس وإفراط بحسن الظن بهم.

أما خشونة الشارع، فشيء آخر لا يخطر ببال، وما يروى من قصص تعنته لا يصدقها الدهماء باعتبارها مبالغة من الراوي، مع أنها أحداث ليست بعيدة ولا مستبعدة، تقع يوميا تحت أنوفنا لكننا نرتدي نظاراتنا الشمسية حتى لا نرى الدم، ونضع سماعات عالية في آذاننا حتى لا نسمع عويل القتلى في الشوارع القريبة من منازلنا.

تنظر لمياء حولها، من الشارع تصعد إلى النافذة، تسمع الخلفية العدائية من حوارات البشر في الشارع، فتتمنى الزوال من جديد. لا تشعر بالراحة في شقتها المراقبة بعابدين لكونها امرأة تعيش بمفردها، تتطلع عيون الجيران لأي سبب للتحكم بحياتها. الشقة صغيرة ورقيقة الجدران بدرجة فضائحية، فالسكان يخمنون عشاء كل منهم من أصوات حمامه في اليوم التالي. لمياء مراقبة أيضا في بيت أهلها، أمها لا تتركها دقائق تنعم بوحدتها، دائما فوق رأسها تعطيها أمرا أو

مهمة للتنفيذ، تؤنبها على تأخر زواجها وتقَطِمها. كلما تضيق الحياة بها تكتب لقلب، دفاتر عديدة من الخطابات تراكمت حتى بعثتهم مرة واحدة لما راسلها.

عزيزي قلب

لا بأس في الحياة من الأخطاء شرط الحفاظ عليها صغيرة.

المكان: شقتي

الزمان: عصرية أول يوم قابلتك فيه، أو هكذا ظننت وقتها.

من خَلف شيش بلكونته يَمتد مشتل فسيح إلى الأهرامات الحالمة في الضوء الغارب، عاملات الزراعة ينهضن من قرفصة طيلة النهار يحملن «مشنات» قش ذهبية ممتلئة بالزعتر والريحان العُضوي، بجلابيبهن المنقوشة الزاهية يمشين في اتجاهها في طريقهن للعودة. في تلك اللحظة، وهى تَشُم عرقه يَتبخر من فوق جلدها بفعل الحرارة، يَتسرب إليها يقين أنهما (هو وهي) مُقدران أحدهما للآخر، أدركت وهى ترتوي برائحة أمانه تُعشش فيها أنها تحبه بكل خلاياها وأنها...

تدفقت التفاهات من جِهة شيرين راقصة في أركان الغرفة إلى أن ركلتني فلم أستطع التحمل:

ايه يا بنتي، فلاحات التلفزيون فقط من يلبسن تلك الجلابيب الزاهية، الفلاحات الحقيقيات يلبسن السواد، وجلابيبهن الملونة منغمشة ومنحولة وزائلة الألوان وبيشيلوا مقاطِف أو قفف، مش مشنات، إنتِ بتخرفي.

لاحظتُ أنها تُحدق في بنظرة تُشبه تلك التي تُواجهني بها حين يكون علي إيقاظها في الصباح الذي تَكرهه، نظرة تصرخ، أنا أكرهك لأنك غبية، لم يصلها حس دعابتي، حس خائب على أي حال، أُضيفُ محدقة في عينيها مباشرة:

ـ شيرين ممكن تقولي لي ثلاث أسباب تخليكِ تستمري مع غالي؟

كُنتُ ساعتَها غاضبة للغاية أحاول البقاء هادئة. اعلم يا عزيزي أن كل ما يخفى علي معرفة سببه أو مصدره يُغضبني في النهاية، ويحصل باستحقاق على نقمتي النادرة مثل حُبك، يكون مصدراً لغضبي أحياناً، لأنني لا أستطيع تفسير ذلك القدر الدقيق وتلك الدنيا الصغيرة. هذا موضوع آخر، فلن أراك ـ ثانية ـ إلا في ليلة تلك الجمعة ومانزال في الظهيرة، في تلك اللحظة كان موضوع شيرين وغالي هو ما يقلقني حقاً، ظَلت شيرين تُحملق بي غير مصدقة، تزيح شعرها «الكانيش» الطويل إلى الخلف هامسة بينما تتجمع الدموع بعينيها:

ـ إنت عارفة ان انا بحبه، ما حبكتش تعملي مخرجة عليَّ، دي حياتي مش مشهد في فيلم.

أقترب وأجلس بجانبها، أفهم ألمها لكني ما زلت استنكر تخاذلها.

ـ إنت عارفة ان دي برضو مش أسباب للاستمرار.

كانت تحدق في عيني دون أن تطرف. تقف ببيجامتها المنقطة برسوم بوكيمون، بعينين مترقرقتين بدموع الحقد والغضب وأنف محمر، تماما كما أتذكرها، طفلة في السادسة بجدائل طويلة وعناد يؤلم، تبدو لي فخورة بدور ضحية الحب البائسة، تظهر غبية بفجاجة مقارنة بذكائها المعتاد، على وجهها ذلك التعبير اليائس المخنوق، يصور الحب قدرا لا يمكن الهروب منه، مرضا لا دواء له. أجلس على الكنبة وأستريح للخلف، كانت تتحول عندما تتحدث هكذا عن حبها لِغالي إلى عجوز من قريتنا، تؤمن بأن عفريتا يعاشرها في ليالي القمر، كأن الحب الذي يظهر لها خرافة، حظ أو لعنة، وكان هذا يغيظني. لم تبد أنها قد فهمت بعد. لذا أضفت:

ـ مش بيحترمك.

ظلت ثابتة لثوان ثم انتفضت واقفة وظلت تدور باحثة عن سجائرها في أرجاء الغرفة قليلة الترتيب، توقفت فجأة لتقول بتحدٍ وهي تجفف دموعها ببكرة مناديل أخذتها من الحمام:

مستحيل تِخرجي المشهد دا، دا مشهد عاطفي وانتِ عمرك ما حبيتي.

لم أكن قد أحببتك بعد، لذا جرحتني ملحوظتها.

ـ إذا كُنت فاكرة إن الحب هو «السرحة» مع رجالة مستحيل نتجوزهم أو نطمئن معاهم تِبقى غبية.

قلتُ خاطفة من يدها بكرة المناديل الورق ومشيت إلى الحمام، يوقفني صوت الباب يُغلق في عنف.

لم أرض أبدا عن الطريقة التي تنتهي بها الحوارات بيننا، لكني أعجز عن تغيير ذلك أيضاً كما أعجز عن تغييرها، دائما ما تأخذ تناولي للأحداث بشكل شخصي، وتبدأ هجومها بالدفاع. أنا لست مُحاربة بطبعي، لكني من أنصار الانتقام السريع، فهو أقل شرا، انفعالي، بدون تخطيط ويَسهُل حسبانه خطأ عابرا، نعتذر عنه وتُستكمل المسيرة بلا ضغائن أما شيرين فقد كانت على العكس، تُؤمن بأن الزمن كفيل بكشف الحلول، تُضيع وقتَها الثمين في انتظار جودو، الذي سيظل يُرسل إليها العلامات ولا يأتي أبدا، كما ستفعل أنت معي لاحقاً، دون أن تَدري حتى.

قبل أن أصل إلى الحمام سمعت جرس الباب، فتحت فارتمت شيرين باكية على صدري.

هل أحسد شيرين؟ ربما، ولم لا؟ فقد حصلت على فرص لم أكن

أجرؤ على الحلم بها: تعليم محترم، بيت جميل وغرفة خاصة، حازت على جميع أحلامي الكبيرة والصغيرة لكنها لم تستفد منها شيئا، ليس كما كنت أنا سأستفيد بالتأكيد. ها أنا ذا أكشف نفسي. نعم، أنا أغار من شيرين، وربما تتجمع بداخلي طاقة سلبية تجاهها، تنبع من حكمي عليها وتصب فيه، حكم مبني على حظها من الدنيا، حظها الذي تمنيته، وش السعد كما يدللها أبي. كيف أسمح لنفسي أن أحاكم شيرين بهذا الشك؟ أواسيها حتى تضحك وأضحك معها، ندخل المطبخ، نحضر الفيشار والنسكافيه، نفتح التلفاز ويمتد حبل «الرغي» بلا مقدمات إلى تفاصيل عديدة أغلبها غير مهم، إلى أن توقفت لحظات عن الحديث، مكثت في مكانها لحظات تتأمل وجه القط المرسوم على فنجانها، صامتة أنا الأخرى أترقب شيئا أسود في طريقه للهبوب، قالت أخيرا دون أن تحول نظرها عن الفنجان:

ساعات باحس إنك مش متعاطفة معاي خالص.

الآن عيناها في عيني.

ـ أنا عارفة انى باعمل حاجات غبية من وجهة نظرك ويمكن غريب ان حد يطلب التعاطف. بس...

ضحكتُ بلؤم، تقصد أني بلا إحساس، نفس الاتهام المتكرر.

مش فاهمة. انت عايزاني اعطف عليك فاضحك عليك؟

في فرق كبير بين العطف والتعاطف.

أرد مغتاظة من بين ضحكات:

ـ طب ما احنا في تعاطف أهو يا حلوة، أمال إيه دا؟ قاعدين بناكل فيشار ومبسوطين، بكينا واتخانقنا، تمام يعني. اللى انت بتطلبيه ده اسمه العطف.

حين أرى تعبير وجهها المصدوم، أدرك أنه يجب معالجة سخافتي المزمنة، أتمنى لو أن بمقدوري حذف جملة أو جملتين من ذاكرتها، لكن هيهات، فذاكرة شيرين كذاكرة الجِمال، لا تنسى الأذى، تُخزنه فقط إلى حين لتجتره،

أنا غبية، آسفة!

غالي عايز يتعرف عليك

قالت بنغمة لم تطمئنني.

ـ ياه! اشمعنى دلوقت يعني؟ غريبة ما انتوا متصاحبين بقالكوا فترة. لا انا اعرفه ولا هو يعرفني ولا اصحابه يعرفوك ولا أنت تعرفيهم، إيه بقى اللى غير طبع سيادته على كبر كده؟

صمت.

ـ يعني انت عايزاني معاك الليلة دي؟ حاضر أي خدمة تانية؟

لم أكن أعرف لحظتها أن شيرين كانت قد وعدت غالي ألا يتقابلا منفردين، تمهيدا لقطع علاقتهما، أو كما صاغت لي شيرين لاحقا: حتى يروا إذا ما كانا يستطيعان العيش دون حبهما. أُنصت لها وأنا على يقين أن غالي يعرف جيدا إجابة هذا السؤال وأنها الجاهلة الوحيدة في تلك الحكاية، لكني أخرستُ نفسي إرضاء لصداقتنا.

استعرت حياتك
صحوت بعد تمارين اليوجا
بلا أفكار
نجحت تمارينك في خلق الإخفاق بداخلي
بلا أفكار أفقت مرتدية جلدك في المرآة
أغني ورأسي خاوي

حين استعرت حياتك
وولعك بصف الأشياء
طارت خطوط أفكاري بعيدا
صارت جبهتي بيضاء
أجثو في انتظار ترام
أُلغِي منذ زمن
ميكروباصات أحلامي تدوي بنداءات مزعجة
وأنت على الرصيف الآخر
تقف ولا تشير إلي
أنت: اتجاه حلوان
أنا محشورة في عربة سيدات المرج
فسيفساء قبيحة وظروف تنطوي علي خطر
تبدو مختلفا
وأبدوا لك غريبة

أنت تعرف شيرين يا قلب، ولا تعرفني جيدا. على الرغم من كوننا أختين، فإننا مختلفتان تماما، كنت أقدر صداقتي مع شيرين بشكل خاص، صداقة تشعرني بالأمان، تُطمئنني فكرة أني سأكون جاهزة لها دائماً في حالة احتياجها لِسَنَد، هي لم ترَ أسوأ ما في الحياة بعد، كنتُ أُشفق عليها وأستعجب في نفس الوقت لاختلاف اختيارات كل منا لسبب معاناته. لا تنس أني مخرجة، أحب سراب التحكم في الأقدار فما بالك بقدري الخاص؟ والسينمائيون «ملاحيس» كما صرحت أنت لاحقاً في تلك الليلة بأداء يصح للجد وللهزل، مما رفع أدائي الواثق إلى أداء شديد التكلف لأعوض الانهيارات الداخلية المتتالية. بدأت حديثي معك في تلك الليلة بدافع صرف انتباهك عن الأصوات التي

تصدرها معدتي، والتي بدت لي واضحة في ظل الصمت الرابض بعد انسحاب غالي وشيرين. ألمحهما يرقصان في آخر المكان وأشرب جرعة كبيرة من كأس النبيذ، يبدو غالي سكران، مستسلماً ضاماً شيرين إليه. أحياناً يكدرني عبء الاهتمام بها. مثل هذه اللحظة، وأنا أراقبها معه، أقف بجانبك وأشم عطرك عاجزة عن التدبر، علمت أن أي محاولة مني للتخلي عن مسؤولية شيرين تعني شقائي، لم أتمكن من اختيار سبب معين لذلك، لكني آمنت أن حمايتي لها باتت جزءا من أمني الشخصي الذي يتزعزع فور شعوري بأي تمرد على صداقتنا، التي أعتبرها خط دفاعي الأول ضد الأزمات المحتملة، لطالما كانت حالمة، ولطالما اهتمت لكلامي وسمعته، لكن ليس بعد الآن، ليس بعد غالي، فأختي الصغيرة التي أحبت السينما لأنني أحبها ودرست التمثيل لتلتصق بعدستي، شقتي، وحياتي، أختي التي تخطط لتصبح نجمة، الفتاة الصغيرة التي تشجعني وتراني أجمد مخرجة في الدنيا اختفت الآن، وحل محلها تلك المحاربة العدائية، أفهم أنه اختفاء مؤقت، لذا أصررت على موقفي وأكملت كلامي:

ـ بس بجد الحكاية مش مستاهلة يا شيرين. إنتِ أقوى منه، صدقيني مش محتاجاه في حياتك، والموضوع كده كده في حكم المستحيل، آه، ممكن تسافروا بره، آه ممكن تتصرفوا بس هو مش عايز، هو اختار عيلته ودينه بشكل واضح، حتى لو قال انه بيحبك، إنتِ من نفسك لازم تبعدي، لأن وجودك فيه إهانة ليكِ. أنهيتُ الجُملة الطويلة بآخر نفس في صدري فشهقت، تلتقط مني الكلام وتحوله لصراخ:

ـ تفتكري كل أسبابك المنطقية اللي كلها بتقول اني لازم أبعد عن غالي ماجتش في دماغي؟ ما فشختش دماغي؟ تفتكري ما بحلمش أكون قوية، قادرة ومتحكمة؟

وبعدين مين يقدر يقرر إذا كنت بابذل كل جهدي أو لأ؟ لو كنت قوية يمكن برضو ما كنتش امشي، مش عارفة... بحبه يا لمياء ومش هاعرف اقولك غير كده.

كانت تتكلم، تشرح بيديها وتهز رأسها كمن ينفي تهمة رهيبة أو يثبتها، وانهارت من جديد. تحركت إليها لآخذها في حضني.

يا حبيبتي حاسة بيكِ، بس انت لازم تطلعي من الموضوع دا. لازم.

ذبذبات صوتها تخترق صدري وهي تبخ الكلمات.

لأ. مش حاسة، انت بتفكري ١+١= ٢ وأكيد شايفاني غبية.

و خرجت من حضني وهي تكمل:

ـ بكرة لو حبيتِ، حتفهمي.

فحت وكأنها تدعو عليَّ. إنه دوري لأتلقى الأذى فلم أرد. كانت تلك نقطة ضعفي، أنا الأخت الكبرى التي لا تفهم المشاعر في مواجهة الأخت الأصغر الأجمل والأعلى تطرفا في التعبير عن مشاعرها. اتجهت كلتانا بنفسها الحاقدة للتلفاز.

عزيزي قلب

لم تتسن لنا الفرصة أن نتبادل انطباعاتنا حول لقائنا الأول. في البداية حين رأيتك تدخل مع غالي لم أستطع أن أعرف أين رأيتك من قبل، لكن قلبي ركض بشكل نبهني، وأثناء السلام تعرقت كفاي بشكل مهين. أبعد عنك عينين مسكونتين بهاجس التذكر، ينتابني توتر تزيده نظراتك. تركيزك معي في تلك الليلة رفع حرارتي بدرجة

غير مسبوقة. لا أتذكر من ذلك اللقاء إلا فورات أعصابي، لا أتذكر سوى لحظات فاق ضغطها قدراتي على التحمل، فأهرب إلى الحمام الضيق، حيث قبعت نصف السهرة أحاول التنفس وأفهم سر تأثيرك الغريب على تماسكي وقدرتي على التصرف التي غُيبت تماما. عندما خرجت من الحمام للمرة التاسعة توجهت أنت إلى راقصا، كانت دليدا تشجعني في خلفية الحدث.

أدينا بندردش

ورانا إيه؟ ورانا إيه؟

أندمج في الرقص معك وتنتهي ليلتنا بلا وداع، عدة مكالمات تليفونية وثلاث مقابلات دارت حول شيرين وغالي. كان هذا هو عمر علاقتنا وسُمك قوام معرفتي بك، قد يعده البعض قواما هشا ككيكة إسفنجية سريع العطب، كورد المواسم، إلا أنه في ذاكرتي ثابت ومميز كتمثال حجري راسخ على واجهة معبد عتيق.

كنا أنا وأنت في تلك الليلة متحفزين كفريق أمن، نخشى انفجار المفرقعات الكامنة في علاقة شيرين وغالي. لاحظت أنك لا توافق غالي على وجوده في تلك العلاقة، كما شعرت أنك تستخف بشيرين. تأكدت ليلتها أنه يستخف بها كذلك، فالشخص الذي قابلته تلك الليلة لا يتفق ورواياتها المقدسة عن عاشق أراه أنا مشبوها، عاجزا أو مخادعا. أعلم أنك قد تدافع عنه، فأنت بدوت من هذا النوع: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

حسبة برما

لمياء أخت شيرين، وجهها بات أكثر غموضا في ذاكرة قلب من وجه أختها. لمياء همم. ينطق قلب الاسم وكأنه يستطعمه، يردده رافعا رأسه للسماء، يكرره كأنما لو نطقه كفاية سيتذكر الإنسانة التي تختبئ خلف الاسم. يشكو لي:

ـ بعثت لي بالعديد من الخطابات تلك المرأة، أظن أنها تحبني. لا، لا أظن، بل أعرف، هي ذكرت ذلك بوضوح على أي حال. العجيب ـ بجانب أني لا أتذكرها على الإطلاق ـ أنها لم تضع عنوانا على رسائلها لتتلقى مني الرد، يبدو أن المرأة التي تهتم بإرسال تلك الخطابات الواحد بعد الآخر وتملؤها لي بالأخبار والذكريات والتفاهات، لا تعبأ أبدا بمعرفة أخباري. عجيب ها؟

قلب يتحدث كثيرا عن لمياء مؤخرا، لا تزال تكاتبه، بعث لها خطابا على عنوان شركة الإنتاج التي ذُكرت في حوارها المنشور. دخل قلب غرفتي، أشار إلي بخلع سماعات الأذن، بتسمعي إيه؟ سألني ولم ينتظر إجابة، سحب كرسيا وجلس بجانبي على المكتب وانطلق في الحكي: أستطيع تذكر تلك الفتاة الصغيرة التي وجدتها تتسكع في المقابر فطردتها، كنت صغيرا مفتونا بالزي والوشاح، أول

مرة أخرج من أسيوط متوجها لمحافظة الغربية. مازلت أتذكر كل شيء في هذا اليوم، متوجهين من كنيستنا إلى كنيسة بقرية تسمى برما، كان الخادم يحكي لنا أصل كلمة «حسبة برما» ليلهينا عن حرارة اليوم غير المتوقعة وعن المشاحنة مع بعضنا. لم يكن سهلا السيطرة على مجموعة من المراهقين عظيمي الطاقة في ذلك الصندوق المغلق المحدود بلا رياضة. يروض الرجل أدمغتنا بحسبة برما، واعدا من يحل المسألة ببعض المِشَبك اللذيذ. أنا حللت الحسبة وكسبت الحلوى مثلي مثل الجميع. لما توقفنا في طريق العودة بطنطا القريبة، حُملنا بكيلوات للأهل والأقارب من حب العزيز ولفائف المشبك. غابت الشمس وأمسى الجو باردا قليلا بما يليق بيوم في أكتوبر، لكن زحام الساحة والسوق دفأني، كانت الاستعدادات لمولد السيد البدوي في أوجها، كل ما حولي تلون وتحرك بأسرع مما يعمل مخي، أعتقد أن حبي للموالد ولد لحظتها.

حسبة برما: صدم رجل بائعة بيض فتكسرت بضاعتها الرهيفة. وعندما سألوها عن عدد البيض المكسور قالت: احصوا البيض بالثلاثة سيتبقي بيضة، بالأربعة يتبقي بيضة، بالخمسة يتبقي بيضة، وبالستة يتبقي بيضة، ولو أحصيتموه بالسبعة فلا يتبقي شيء.

كنا نتبارى في معرفة الرقم المطلوب، أنت تفهمين في الجبر؟ ها؟ علم رائع، لا أتذكر الإجابة الآن، غريب ها؟ على أي حال، رأيتها في ذلك اليوم. لا، ليست بائعة البيض أيتها السخيفة، بل لمياء، لم أكن أعرفها طبعا ولم أتوقع رؤيتها ثانية بعد ذلك اليوم، حتى أنني حين قابلتها ثانية لم أعرفها، بالطبع لم أعرفها، لكنها عرفتني، كان لها ضفيرتان طويلتان معقوصتان، يفتح لونهما من أسفل لدرجة الشقرة وعيون حزينة، تُذكر بحبيبة مجروحة، مهجورة، غير طاهرة ومنبوذة بإثمها. ذكرتني أيضا بأمي، كنت أقف أمامها مراهقا مملوءا بالغضب

والثقة، بقي الغضب واختفت الثقة حين شعرت بشيء ما لم يكن من المعتاد أن أشعر به ولم يكن من المسموح أيضا، فغضبت منها ومن نفسي وسخفت عليها جدا. لا أتخيل أن تلك الفتاة هي لمياء تلك الخطابات. عجيب أمر الدنيا، عجيب أمر ذاكرتي وعجيبة تلك المرأة التي تبعث برسائل ولا تأبه بالرد. لم تبعث حتى بصورة لها.

توجه قلب إلى حاسوبه. من يوم أن خرج من السجن اكتشف الإنترنت والحاسوب وصار مدمنا. كيف لروحه العجوز أن تتبنى تلك الحداثة؟ صرخ فجأة ها هي، جوجل دا عبقري شفتي أبوكي؟ مش سهل ها؟

كنت أنقل عيني بينه وبين صورة لمياء على الشاشة، صورة المرأة المجهولة التي تؤثر فيه كثيرا، والتي فيما يبدوا ليست مجهولة تماما، فحوارها منشور على موقع إحدى الصحف الفرنسية الشهيرة.

ماذا يقولون عنها؟ أسأله.

تتحدث عن فيلم أخرجته وأحدث ضجة، يدور حول تجارة البشر في إفريقيا. يبدو أنها تعيش مغامرة دائمة. لم تذكر في رسائلها الأخيرة أنها تحوز على مثل هذا نجاح. الآن أتذكرها، كانت صامتة جدا ومتوترة. غريب ها؟

اعتراف ابنة بائعة اللبن

صاح قلب فجأة:

ـ ٣٠١.

ـ نعم.

ـ بيض البياعة اللي اتكسر، إذا أحصيتم البيض بالثلاثة يتبقى بيضة، بالأربعة تبقي بيضة، بالخمسة تبقي بيضة، بالستة تبقي بيضة، ولو أحصيتموه بالسبعة لا يتبقى شيء، يبقى ٣٠١، حسبة برما، إيه؟ فين انتِ؟

زعق قلب ملوحا في وجهي.

سرحت أتذكر أمي، دائما حزينة كبائعة البيض المكسور بيضها في برما، لم يكن يهمني حل المسألة الرياضية، كنت أشعر بأسى البائعة الباكية بحسرة على بضاعتها التالفة وأدخل في مزاج حزين، الله يرحمك يا أمي.

أنظر لقلب المتنبه لشاشته. كنت أظن أن حسبة برما هي الاسم المصري لنظرية فيرما الأخيرة التي لم يثبتها أحد(*) تكاسل الرجل

(*) بيير دي فيرما "Pierre de Ferma"، محام فرنسي وعالم رياضيات له نظريات معروفة، أشهرها مبرهنته الأخيرة، نظرية فيرما.

عن كتابة الإثبات لكن هامشا كتبه يحير العالم حتى اليوم. جاريت قلب في قصته لأنقله لقصة أخرى:

ـ إيه يعني لمياء مخرجة مشهورة؟ إنت برضو مش قليل.

وابتسمت في براءة.

ـ أنا رهيب.

رد ابتسامتي للتعزية، يبدو مزاجه كئيبا مثلي. رأيته يكاد يدخل فعليا في شاشته، فذكرته أنها غرفتي وحاسوبي، لعنني وخرج.

قبل الاعتقال، كان قلب يكتب على الورق. قبل أن يصادق حاسوبه ظل يتوجع من تفتت صفحات دفاتره الملتصقة من أعلى حتى استبدل دفاتره بالورق الفولوسكاب المفرد. ولأن أفكار قلب أسرع قليلا من كتابته، كان لفرط لهفته لقنص الأفكار الطارئة، ينسى ترقيم الصفحات فتختلط عليه بعد أن ينهيها، فيكتب ساعة ويحاول ترتيب الأوراق المبعثرة ساعات. الآن ينقر مباشرة على الحاسوب، ولم يتوقف عن لعن بطء طباعته كما ظل ينسى أن عليه ترقيم الصفحات قبل طباعتها. ساعات من عمره قضاها قبل سجنه ممسكا بالقلم ليجبر نفسه على الحكي، بدأ الأمر بخطابات كان يكتبها لأبيه، يحكي فيها كل شيء، أي شيء، حتى لو لم يلتزم بسياق واحد، حتى لو ضلل كل الدلالات. لم يدقق قلب، كان المهم أن يستمر في لعبة تتبع كل الأفكار وتثبيتها من ثمَّ عرضها على روح والده التي يثق في أنها تفهم الكلمات المقروءة. لطالما كان أبوه مولعا بالقراءة، وما أكثر إثارة من قراءة أفكار ولدك؟ كل أفكاره، الهامة والتافهة، أفكار تأتيه وأفكار يأتيها. أوجب قلب على نفسه أن يدون كل يوم مشاهد يراها وأخرى لا يراها. أحيانا كان ذهنه يفرغ مثل بئر قديم، لكنه استمر في النقر على حاسوبه لساعات في الفجر وحتى الظهيرة. كتب وهو مراهق يتجرع

أكواب الشاي ويأكل سندوتشات الحلاوة الطحينية، ثم رجلا يعب البيرة والقهوة معاً. يتناول غذاءه في الثانية ظهرا وينام قليلا، يصحو بعد ساعة ويتشمس في الحديقة حتى يسقط عليه الظلام، يتراجع في المساء للشرفة الأمامية لقراءة ما كتب وكثيرا ما يدهشه كمال ما يكتب دون تخطيط. لكن لا تُخدع؛ قلب ليس كاتبا عفويا أبدا، هو فقط يستعمل تلك العبارات التي تعجبه، ينظفها ويلمعها ثم يعيد ترتيبها مرارا وتكرارا إلى جانب مثيلاتها من الجُمل المنتقاة لاستخدام العامة، فكل الناس ليسوا كروح أبيه المتسامحة، قلب عموما ليس شخصية عفوية، هو يمتلك مستويين من نفسه، مستوى السلاملك، الذي يشارك فيه الناس، وهناك نفسه الحرملك، تلك التي لا يدخلها غيره، ولا يخرج منها للسلاملك صوت أو شيء إلا بحساب. لم يكن ليتخذ قرارا إلا بعد طول تفكير وطول تردد، لكنه لم يتردد في بيع شقته بالدقي ليشترى بيتنا الحالي هنا في الفيوم، بيت صغير بقباب وحديقة وحوض سباحة صغير، بيت بأشجار ونخيل وسماء كبيرة، بيت نستقر فيه أخيرا كفتاة وأبيها، بيت لعائلة.

قديس له ماضي

«أنا الكاتب المجهول، لا يعبأ أن يذكره تاريخ لا يكتب نفسه، أنا كاتب في فجر التاريخ رفض أن ينقش صورته الشخصية على الحجر، ليترك في كهوف الصحراء رسوما أجمل منه.»

كنت أود أن أظل كذلك، مجهولة نبيلة، غامضة وغير محددة، لا عمر لها وفي ناصيتها حكمة السنين، لكن من أخدع؟ أنا لم أتعد الثالثة والعشرين. نعم، أنا ابنة قلب اللاشرعية، أنا غلطته الثمينة كما يسميني، أنا بنت الحرام.

على الرغم من سمعته كشريف متعفف إلا أن في حياة قلب خطأ واحد كبير أنتجني. أعلم أنه اعتراف فج لم أكن أنوي أن أُفجره لكن لماذا لا أجاهر مرة في حياتي باسم أبي؟ أبي، كم هو لفظ مألوف؟

سأرجع معكم إلى الخلف قليلا، إلى اليوم الذي سافر فيه لبرما، طريق طويل رآه لأول مرة، كما رأى فيه الفتاة الأصغر منه بقليل تجلس في المقابر تبكي. اقترب منها وسألها إن كانت تزور أحد راحليها. حين تعترف أنها تشم الهواء يؤنبها بشدة، وبينما يوبخها باسم الدين يشعر بإثارة جنسية ربما للمرة الأولى في حياته. لم يكن قد تجاوز الخامسة

عشر بأي حال من الأحوال فصب عليها غضبه لمداراة إثارته ووقف يراقبها وهي تجري هاربة حتى تختفي عن ناظره. يعود في رحلة طويلة بالميكروباص إلى أسيوط، تسحبه مظاهر الاحتفال في المولد ويتوه لساعتين بين المريدين السكارى من الإجهاد والنشوة، يمسكه مشرف الرحلة من كتفه وهو يتمطوح مع الذاكرين. رغم كونه في غاية الإرهاق ينام الجميع في طريق العودة إلا قلب، يظل متيقظا يكافح خيالات مغوية وآثمة تجمعه مع تلك البنت الجميلة، يصحو جميع زملائه فجأة على تخبط أجسادهم. أزالت المفاجأة إثارة قلب، التفت يحاول تبين ما الذي ظهر في طريق السائق ليضطر للانحراف المفاجئ الذي كاد أن يقلبهم. تبين بصعوبة ظل شبح مصلوب على عصا تمس كتفيه يتدلى من جانبها جردل، كان ذلك أول ظهور لراسم الطريق الذي شبهه قلب المتدين بالمسيح، يتجلى أمامه مصلوبا ليؤنبه. وصل إلى البيت مصابا بحُمى وسخونة، رقد رقادا طويلا كاد يودي بحياته ثم تعافى بصعوبة وبطء. أظن أنه في تلك الفترة أخطأ مع أمي، أو أخطأت أمي معه، حسب رؤيتك للأمر، فقد كانت هي الأكبر سناً على كل حال وكان هو مراهقا محموما. كانت عجوزا في الخمسين يقول هو، لكنني لا أصدقه لأنها لم تتجاوز الخمسين حين ماتت من سنتين. لابد أن وجهها كان عجوزا من الهم. لم أعرف أنها أمي سوى قبل موتها بشهر واحد، في اليوم الذي وجدت فيه قلب على الفيسبوك، صورة لضحية مضربة عن الطعام، مثال واضح أن النظام لم يسقط بعد، جزء من اسمي ارتبط بثورة لم أشارك فيها. ذهبت أجري لستي، وجدت أبي، كنت متأكدة أن جدتي ستُشفى من الفرح؛ فإذا وجدنا أبي سنجد أمي، ابنتها. لم أنتبه لردة فعلها، كنت مشغولة في الرغي واستعراض كل ما عرفته عن قلب، هو أليس كذلك يا ستي؟ لقيناهم. كانت تبكي، وبكيت أنا أيضا من السعادة في حضنها حالمة بحضن أم كان أقرب مما تخيلت. عاشت ستي يتيمة أيضا، تربت

وسط عيال خالها وتترحم دائما على امرأته القاسية، تزوجت مرتين وترملت في شبابها مرتين دون إنجاب حتى أسموها في قريتها «أم الغايب». قالت أمي أنها زهدت الرجال لكنها اشتهت طفلا يرافقها، أمي تقول لجدتي يا خالة، أخبرتني جدتي: كنت هديتي، هربت أمك مع الفتى، كان ابن كبير القرية، كان يافعا جدا، وأمك كذلك.

تفننت جدتي في نسج الحكايات عن أمي ابنة بائعة اللبن الفقيرة؛ قصة كلاسيكية انتهت بهروب العاشقين تاركين ثمرة حبهما الخاطئ في انتظار رجوعهما. تبكي ستي بحرقة كبيرة، أنا لم أكذب عليك يا بنتي، لكني خجلت من الحقيقة؛ أنا تلك الأم الهاربة. كل ما حكيته حدث يا بنتي ولم أخف شيئا سوى هويتي. حدق بها الفتى بعينين رجل زرقاوين، أمسك ضفائرها فلم تقاومه، كان يهذي ويشد الضفائر القماشية. حدث الأمر سريعا جدا، لكن بذوره كانت سريعة أيضا؛ شعرت بحملها بعد أسابيع، فباعت جاموستها وانتقلت بي في أحشائها إلى قرية جديدة. تتذكر فرحتها وهي ترتب بيتنا الجديد في برما بسعادة، أهالي العزبة يتساءلون عن الطفلة المسكينة. بنت بنتي، ترد أمي دونما تردد؛ كانت تخجل أن تكون أما في هذا العمر. لا، ابنتي هربت ولم تمت. هربت أمي من الفضيحة في بلدتها لتخترع هنا واحدة جديدة. لا تعرف لما قالت ذلك، لكن مظاهر فرحتها حين دخلت عليها النسوة كانت تنفي الحداد على ابنة حديثة الوفاة، وأنا كنت بنت يومين. تناثرت في القرية حكاية المرأة المسكينة التي جاءت تحمل خطأ ابنتها، خدعها ابن العمدة، دول صعايدة ما يعرفوش أبوهم، كان ممكن يقتلوا حتى البت الصغيرة. وبعكس المتوقع، أدى هذا الخبر لوجود حالة عطف جمعية تجاهنا في القرية، وعشنا في سلام كما يعيش كلب أجرب يعطف عليه الناس، فيضعون له الماء وبعض العظم، لكنهم لا يلمسونه أبدا.

بعد أكثر من ثلاثة شهور، شفي قلب تماما من الحمى، كانت خلالها فيرينا، جدتي الحقيقية لأبي، تنتظم في الكنيسة وتتدين أكثر فأكثر. اقتنعت فيرينا في أواخر أيامها أن زواجها من نجيب البروتستانتي كان خطأ استوجب أن يطهرها الرب منه. نما هذا الاعتقاد من هروب نجيب وترسخ مع مرض قلب، قلب الذي تحول في نظرها إلى ثمرة علاقة حرام، ثمرة إثم واضح وهدف بين لانتقام الرب. وبدأ قلب في الرجوع لحياته الطبيعية، الانتظام في الحزب والكنيسة والحقد على أمه. لم يتغير شيء إلا اختفاء بائعة اللبن العجوز الذي أراحه. كان يسترجع ما حدث بشكل مختلط ومشوش، ويصلي للغفران كل ليلة قبل أن ينام ويحلم بمشاهد تختلط فيها صورة أمي بصورة لمياء الطفلة. وهكذا كان اختيار لمياء هذه المقابر تحديدا في تلك العصرية للانتحار سببا في خلق زوج من أولاد الحرام.

عادة ما يكون اعتقال الأب سببا في تفريقه عن أبنائه، لكن ليس بالنسبة لي؛ كان اعتقال قلب هو البداية لمعرفتي به، وجدته على صفحتي للفيسبوك، صورة تقول: الحرية للشيخ قلب القبطي. لم أفهم الكثير من الرسمة التي تمثل يدا تكسر قيدا حديدي ملطخا بالدماء، لكني عرفت اسمه المكتوب تحت الصورة: وقفة للإفراج عن الناشط المعتقل قلب نجيب راشد عدلي.

بعكس أمه، حرصت أمي على أن تنقل لي ما كانت تعرفه عن الصبي الأب، لم تكن تخجل أن تحكي عن زوج ابنة أختها/ ابنتها المزعومة. أظنها اخترعت تلك الابنة لتكون قادرة على الحكي عن عيونه الزرق وجلده الذهبي دون تحرج. اسمه قلب نجيب راشد، أبوك، ورثتي عينيه. أبي الذي يكبرني بستة عشر عاما، ترى أين هو

الآن؟ بعد وفاة الجدة/ الأم لم يعد أحد في البلد يريد ابنة الخطيئة، زالت مع جدتي أسباب تعاطفهم معي كما تزول الروح من جسد الكلب الأجرب فلا يستحق جثمانه الدفن، فذهبت إلى القاهرة وإلى الصحافة. كنت كأيام الجامعة ألف وأدور طوال النهار وجزءا معتبرا من الليل. شقة في أول فيصل، اللفظ القبيح، مغتربات، كأننا من بلد آخر، من كوكب بعيد. أشعر لأول مرة في حياتي أني يتيمة، يقول الناس مقطوعة من شجرة، تعبير قاس، فهو لم يقرر فقط أني ورقة شجر وحيدة ومرمية على الأرض معرضة للجفاف والتعفن، لكنه أضاف أيضا إلى خلفيتي شجرة تمثل الأصل والجذور والوفرة لملايين الأوراق المحظوظة المتكاتفة، تعلو كبيرة لتكرس وحدتي. مقطوعة عن كل ذلك أرقد أنا ملوثة الأرض.

ـ بالراحة شوية يا ريس.

أخاطب سائق الميكروباص المتهور. لم تكن تلك أول مرة أركب معه، خط التحرير فيصل محدد جدا.

ـ خُفتي يا أبلة؟ ما تخافيش يعني لو طرنا من فوق الكوبري إيه اللي هيحصل يعني؟ لو موتي هاموت معاك.

ـ يا أسطى الله يهديك أنا مش عايزة أموت، عايز تنتحر من فوق الكوبري اطلع فاضي ونط براحتك.

يضحك:

ـ يعني مافيش بعد الشر يا اسطى، إرجع يا مجنون ما تموتش كافر.

كان وجهه معتدلا، ولولا تعبير القرف المزمن على شفتيه لحسبته وسيما، كان وسيما حين يضحك.

ـ معلش يا اسطى، ربنا ها يفرجها إن شاء الله.

أبعث إلى قلب خطابا، خطاب قصير لم أتلق عليه أي رد. لم أعرف فيم أفكر، هل هو بخير في ذلك المعتقل؟ هل تلقى خطابي؟ بالطبع تلقاه فقد سلمته بنفسي عند باب السجن. كان هناك العشرات من السيدات المسنات يلبسن السواد يجرجرن أطفالا والجميع يبدو عليه البؤس، كل القصص متشابهات. لا ليس موعد الزيارة لكن ماذا نفعل؟ هجرت الزوجة الخائنة زوجها السجين وعيالها المساكين، العيال يبكون، يريدون أباهم، أو أمهم الهاربة، ربما يدخلوننا لو رقت قلوبهم، ثم زغدت طفلتها لتستمر في البكاء، لم أذهب إلى هناك ثانية أبدا.

آلو، أنا قلب.

لم يستطع أن يقول بابا ولم أنطقها أنا أيضا. أتأمله، أصغر من أن يكون أبي. ينظر إلي محتارا وأنظر إليه بثبات. لم يكن ذلك لقاءنا الأول، ذهبت إليه مع بعض الزملاء لتهنئته أول ما خرج، لكني لم أفصح عن هويتي، خفت أن ينكرني فأفقد قلب الأب والبطل. حين سألته إن كان له أبناء دق قلبي بشدة لدرجة أني خفت أن يسمعه. صمت ثواني ثم قال: لدي ابنة، ابنة واحدة. ثم انصرف إلى غرفته فأصر زملائي على الرحيل. كان الكل حريصا معه وعليه. لم يفهم زملائي سبب دموعي. قبل رحيلي تركت له ورقة على المنضدة: رقم تليفون ابنتك.

ظللنا صامتين حتى وصلت القهوة، كلانا يشربها سادة، طلب لي عصير الجوافة، علشان حرقة الدم. يتصرف كأب الآن. كان لطيفا إجمالا. لا بد أن عيني الزرقاوين أكدتا له أني ابنته، لا أعلم، لكنه كان مريحا جدا ومنفتحا. جلسنا ذلك النهار في جروبي نتحدث ونضحك. كحبيبين أو كأخ وأخت؛ سار حديثنا بسلاسة، كشخصين متقاربين

وحميمين يصدف أنهما يتحدثان للمرة الأولى في حياتهما. سألته ونحن نخرج للشارع، مش هتسألني ان كنت مسلمة أو مسيحية؟ هَنِّج مني للحظات فاتحا فمه قليلا، وظل يهز رأسه كمن ينفض فكرة غير منطقية، ثم أمسك كفي ومشينا. لم يستطع أن يجيب طوال الطريق إلى بيته أو لم يُرِد. الأرصفة المزدحمة المتعددة المستويات تتطلب منا التركيز لنشق الجموع، أراد أن يقودني في البداية لكن عجزه كان واضحا فأخذت منه عصا القيادة. كنا كسمكتين سلمون تسبحان في شارع طلعت حرب ضد التيار، كان يمسك بي ويتحرك ببطء نسبي كرجل عجوز، كانت مفاصله غير نشيطة، وخياشيمه متعبة من رطوبة الزنزانة، وفي خطواته يظهر تردد الزعانف التي قطعها الموج. أفكر، كيف كان يبدو قبل السجن؟ يكلمني كأني على مسافة بعيدة، لم يكن يخاف الزحام قبل ذلك، كان عاديا بالنسبة له، يربكه الزحام الآن، أشياء كثيرة تغيرت. أهز رأسي وأفكر، ماذا نما في السجن وما الذي مات في قلب؟ أظن أني لن أعرف أبدا. لم أعرفه قبل أن يصبح الصورة التي رسمها له الغرباء، لكن قلب نجيب، الصبي والأب، الأصليين غرباء عني. مازلت لا أعرف عنه شيئا، كلها اجتهادات بحثي في قصاصاته وأوراقه التي أتاحها ليدي كما أتاحها لروح أبيه، أنقب في الأوراق لفهم ما أريد عن تاريخه.

ـ إن كان هيساعدك.

يقول راميا أمامي كومة من الأوراق.

قبل ذلك بفترة، وعند عبورنا كوبري قصر النيل، توقفنا نشاهد الغروب وسط عشرات العشاق. يبدو أنه يشعر بالسكينة، تعود أن يأتي هنا للاختلاء بنفسه أيام الجامعة. لم يعد يخرج كثيرا هذه الأيام، لم يعد يحب الشمس كما كان. بعد تحديقة طويلة بالشمس الغاربة،

عدل نظاراته وقال أنه خجلان، لأنه اعتاد اعتبار الحدث الذي سبب وجودي مجرد ذنب كبير، إلا أنه بعد أن وجدني صار يعتبره أغلى وأجمل إثم ارتكبه. قال أنه لم يتخيل أبدا أن تكون له ابنة لم يربها، كما تربى هو دون والده.

ـ ولكن، لا أعلم إن كنت ستفهمين ما أقول. كنت خنزيرا صغيرا، صدقيني كل الذكور الصغار خنازير مهما اجتهدوا ليكونوا نعاما أو طواويس، أحصنة أو أسودا، إلا أنهم وبعد الكثير من التمرين والعمل المجهد، لا ينجحون إلا في إخفاء جلودهم ببقع من الريش والفراء مستخدمين تقنيات تعيسة، ليظهروا أخيرا مهندمين كتقليد مضحك لحيوانات نبيلة. يذوب الزي المضحك عند أول قطرة مطر ليظهر تحت ألوان الطاووس خنزير خجول ومتسخ. على أي حال، لقد أخطأت، لكني لست نادما على هذا الخطأ الآن، لقد أحسنت بالكتابة لي. لن أسترسل في كلام عاطفي كثير يملؤني لكني أقول: فلنتعرف على بعضنا. أنا أحب معرفتك. لا أقول إني سأعوضك عما فاتنا فهذا مستحيل، كما أني لا أستطيع ضمان المستقبل، لكني أضمن أني سأكون قريبا منك دائما، حتى لو لم يتبق مني في هذا العالم سوى روح خفيفة أو زوج حمام يطوف، سأحوم حولك يا ابنتي. بدا مترددا وخجولا بشكل محبب وهو ينطقها: يا ابنتي، أنا آسف، سامحيني؛ ولا لن أسألك عن دينك. كانت والدتك سيدة طيبة، أنظر إليك وأعرف أنها أحسنت تربيتك، هذا يكفيني، وها أنت ذا ابنة متعلمة، كبيرة العقل والشخصية، ليس لي أي حق في الشكوى، كوني ما تشائين شرط أن تكونيه حقا وخيرا، هيا بنا.

ليس عجوزا لكنه يمشي ويتكلم كعجوز، حتى شقته كانت شقة رجل عجوز، واسعة بقدمها وظلمتها، مختبئة في عمارة ضئيلة بميدان

المساحة، اشترتها فيرينا بثمن بيت أسيوط لينتقلا معا إلى القاهرة، واشترى بثمنها بيتنا في الفيوم. اختارتها جدتي في حي الدقي ليكون قريبا من جامعته، لم تنتقل إليها معه أبدا، فلقد تزوجت العم صبري مباشرة بعد حصوله على الثانوية العامة وانتقلت للعيش معه.

رمى قلب أمامي كل الأوراق، خطابات ودفاتر، كومة بعد كومة ينقلها ليكدسها أمامي قائلا:

ـ لو هيساعدك إقريها كلها، فأنا هنا أمامك على الأرض.

يحكي قلب عن سهو لمياء عن كتابة عنوانها وهو مغتاظ. أتفهم تماما ما يشعر به، كم يبلغ من العمر الآن؟ واقعيا تسعا وثلاثين، جسديا خمسين، نفسيا مائة وخمسين. لا يهم، مازال رجلا على أي حال وله رغبات حتى لو أنكرها، أنا لست صغيرة أو غبية. أشجعه كثيرا على الخروج والانخراط في مجتمع القرية المميز، فالقرية المخبأة بواحة الفيوم تحوي سحرا يأبى أن يكتشف منه إلا حديقته. اصطحبتُه غصبا للعشاء في مطعم قريب أعلى التل، نرى منه بحيرة قارون والصحراء المقابلة، جاورنا على مناضد جريد النخل بعض الخواجات الذين يزورون القرية بكثافة، فَقُرب القرية من محمية وادي حيتان جعلها محطة هامة للسائحين، كما أن موقعها في قلب الصحراء وضعها على خارطة استراحات السفاري. ظهرت الفنادق واستقر معها عدد من الكتاب والفنانين فتحولت العزبة، التي اعتاد أن يقطنها خليط من العرب والفلاحين في عزلة، إلى مركز ثقافي وسياحي. أواجهه بملل من وحدتنا وأطلب بيرة، أشرب أمامه بلا مشاكل لكني أخاف أن أطلعه على ما أكتب، أشرب أسرع. يتبادل الحديث مع سيدة أمريكية بجانبنا، يقارعها في مناقشة سياسية فأقول لها أن تصدق كلامه فهو مناضل كبير. نظر إلي بقرف ساخر وقاوم امتداد الحديث مع السيدة

الجذابة التي أبدت اهتماما ومعرفة بتاريخه، أنهى بيرته واستأذنني في الرحيل. مشيت معه إلى البيت، كان صامتا، لكنه قال أن المطعم كان لطيفا. وصلنا فأخذ بيرة من الثلاجة وأقفل عليه غرفته.

تعريفات لمياء

هل أُحب لمياء لأنها تذكرني بنفسي؟ هل أتماهى معها لأني أتمنى تحقيق نجاحها الحالي؟ لا أعرف لكنها أليفة جدا. أحيانا حين أقرأ ما تكتبه أشعر أنني من كتبت هذا الكلام، خصوصا هذا الجزء. تحكي عن المدرسة، مضمار السباق الذي احترفتُ مثلها الفوز فيه. لم أكن أستطيع التكيف مع الحياة بغير ذلك، كان عليَّ الفوز بسند أنصبه وتدا يحل محل الشجرة التي قطعت منها، ولم أجد غير تفوقي، حتى الجامعة ظل ذلك التفوق سندا لي من الانهيار. في الجامعة تغير كل شيء لكن لمياء استمرت في تفوقها لذا أشعر تجاهها بالإعجاب.

مرحلة دراستي ما قبل الثانوية كنت أركز على أن أكون الأفضل في كل شيء. لن تصدق المجهود الذي بذلته لأصعد إلى القمة وأظل عليها، أخطط منذ بداية العام للفوز بأمانة اتحاد الطلبة، وأول خطواتي هي انتخابات الفصل، خطوة اجتيازها مضمون بالظهور كمتفوقة جادة وكهَلاسة لِعَبِية في نفس الوقت من خلف المدرسين أو أمام الضِعاف منهم، إلى جانب خَطب ود الناخبين ـ زملائي في الفصل ـ برشوتهم، أساعدهم على فهم المستعصي عليهم فهمه، كل خدماتي كانت تخطيطا محضا ونصبا بَيّنا، فدافعي الأول لحفظ أسماء الزملاء

في وقت قياسي كان حرصي على أصواتهم الانتخابية لا حرصا على صداقة مزعومة، كنت أتقرب من هؤلاء «الأصدقاء» لأقنعهم بأني الأصلح لتمثيلهم في نظام لا يفيدهم بأي شكل ـ لأن دعاء صمامة وما بتحبش إلا نفسها، ونيفين مسيحية.

وهكذا كانت حياتي عبارة عن حملات دعائية متتالية، ضاع فيها الفارق بين المرشحة المحتملة والحقيقية، أحرص على الظهور المكثف من خلال الإذاعة المدرسية وجماعات الأنشطة المختلفة تمهيدا لانتخابات المدرسة، وفي الليل، بعد أن ينام الجميع أتدرب على الخطبة التي سألقيها يوم انتخابات الإدارة التعليمية التي بدورها ستمهدني لانتخابات الجمهورية، وما أدراك ما جوائز الفوز في انتخابات الجمهورية، أرجوك لا تتخيل أي هدف أو طموح سياسي أو خدمي حتى، أتكلم عن مميزات ومعسكرات ورحلات، شيء عظيم. هذا طبعا غير مسابقات يدخلها الطلبة بالتعيين من قبل المدرسين، دون إعطاء الجميع حق فرصة المشاركة. كانت علاقتي مع المعلمين والطلبة أفضل كثيرا من علاقتي بنفسي، كنت الطالبة التي تبدو مثالية بأقلامها الأربعة الملونة ولباسها المهندم، لكن نجاحي في المدرسة لم ينعكس على حياتي كما ترى، فلم يعد لي أي شعبية الآن، وحيدة مع كاميرا أتجول في بلاد أصعب من بلادي وأطيب.

الانتحار

يقول قلب أنه لم يحاول الانتحار قط، لم يفكر فيه حتى في أسوأ أيام المعتقل. يقول أن المنتحرين هم المزهوون بقوتهم، نفسهم كبيرة وعقولهم صغيرة، نعم عقلي صغر مرة وقررت الانتحار، كنت أريد إيلام شخص ما مثلما آلمني، سذاجتي دلتني على عروق رسغي، أريته

أثار القطع القديم، ضحك وقال أن قطع الذراع بالعرض خطأ شائع، لو أردتِ النجاح في قطع الشريان يجب أن تضربي الرسغ طوليا، أكمل وكأنه لم يقل شيئا، كنا أنا والموسي مجمدين في وضع استعداد، ثم استجمعت قوتي وخبطت فلم أر دما، قطعت يدي أربع مرات دون أن أصيب الشريان، ظهرت أخيرا قطرة دم ضئيلة لكني كنت أوشك على الإغماء كأنني انتهيت من قطع أحجار جبل. أقف منهكة وأذهب لتطهير الجرح السطحي، كذبت على ستي بالطبع، ماذا أقول لها؟ كنت سأقتل نفسي من أجل ابن جيران أحبه ويحتقرنا أهله؟ لما كان عليك أن تروي للناس تلك الحكاية؟ لما لم تكذبي وتقولي أن ابنتك ماتت ككل الأفلام العربية؟ على أي حال، لمياء أيضا حاولت الانتحار أكثر من مرة، أولها ذلك اليوم في المقابر، تصفه لمياء:

تُرشدُني إليك ولا تظهر، فهل سرحتَ بي أبدا في إحدى ساعات تأملك الإجبارية، بينما كانت مُصادفات حياتي تَقُودني للاختلاء بنفسي؟ كنت في الحقيقة أتوجه إليك، أتتذكرني؟ أنا الفتاة الضئيلة التي طردتَها بأدب من المقابر، في تلك العصرية المضيئة من ذاك اليوم البعيد. كان ذلك يوما من أسود أيام حياتي، بدأ باكتشاف أمي إصابتي بالقمل، حاولت إخفاء الأمر حتى تفاقم وبات التحكم في مسارات مرور الحشرات مستحيلا، فخرجت تتمشى فوق رأسي بالعشرات. أمسكت أمي برأسي وكتمت وجهي في حجرها لترش فروة رأسي بالبيروسول، ثم تربطه سريعا بالإيشارب. تجري في رأسي مئات الأرجل القصيرة فأركض في مكاني من شدة الحكة. أكلان لا ينتهي بجلدي كله الآن، تجبرني أمي على الخروج لشراء صلصة الطماطم لمكرونة الغداء. مجبرة على رائحتي القوية المخجلة أمشي ورأسي في الأرض، أتمنى ألا أقابل أحدا أعرفه وأضطر للسلام وتفسير تلك الرائحة التي لم يكن لها سوى تفسير واحد. البقال على بعد شارعين

لكنني أضطر للمرور عبر العزبة، فالأراضي التي قسمت عشوائيا لم ترسم بينها شوارع، اقتطع الناس كل من بيته مترا ليكون شارعا لكن البعض رفض، فكانت الشوارع تختفي فجأة أو تضيق إلى ممر غير مرئي يلف بك إلى حيث جئت. طرقات قريتنا ملغزة وبلا منطق، قد تضطر للدوران حول العزبة لتصل إلى باب المنزل المجاور. مررت على منزل رشا، تلك الفتاة من المدرسة، أبوها كان مخبرا في القسم يهابه الجميع، لا تشجعني أمي على مصادقتها، تقول لي هي في فصل وأنت في فصل، تمشي وياها ليه؟ تقول أن أبوها سمعته وحشة، أقول هو مخبر يعمل في البوليس، تقول أمي بل هو سوابق وسمعته زي الزفت. تتجمع فتيات أمام بيتهن، موسيقى عالية وزغاريط، لم يعلن الجامع عن أي عرس اليوم! أستغرب، تصرخ فتاة، رشا بيطاهروها وهيوزعوا حلاوة، أحاول ألا أقترب منهم، تصرخ هند وهي تجري ناحيتي ممسكة بنظارتها السميكة. كانت لئيمة وبليدة في المدرسة رغم مجهودها الواضح، كراساتها المنمقة لم تكن تعوض إجاباتها الخاطئة. كانت هند لا تخفي حقدها علي، كانت أمي التي تفك الخط عونا في تفوقي بعكس هند التي لم تجد أي دعم غير المجموعة الدراسية التي تتشاركها جميعا. ما تيجي يطاهروكي معاها، تعالت الصيحات من البنات والأولاد الذين بدأوا في التجمع حولي دائرة تخنقني، كنت قلقة أن يقتربوا مني أكثر ويشموا المبيد في شعري فتلتصق بي صفة المقملة. هند كانت تصرخ، والنعمة ما متطاهرة البت دي، صدقوني عمرنا ما سمعنا. عارضها البعض وعلت الصرخات، انقسم العيال إلى نصفين يصرخون، نصف مستنكر رافض لفكرة أني لم أختن ونصف موافق مع هند، وكان حل اللغز للفريقين يقف في المنتصف بينهم تغطيه تنورة واسعة. لم أفهم ما يحدث لكن ضحكات العيال انفجرت عالية ومفاجئة، التفت لأجد عليا، الفتى خفيف الدم الذي

طالما تودد إلي وأضحكني، يرفع رأسه التي كانت تنظر ما بين قدمي من أسفل التنورة. كنت في نصف هدومي، هرولت بعيدا والزفة في إثري، أم لباس دمور، أم لباس دمور. يا لميا قوللي الحق، اطاهرت ولا لأ ولا لأ كان هذا أقسى حدث في حياتي. مازلت أحقد على هؤلاء الأطفال إلى اليوم، أكرههم فعلا، وكرهت أمي لأنها أرغمتني على الخروج في ذلك اليوم. التفت ورائي فلا أراهم أخيرا، أمشي متعثرة أتلفت حولي وأنهج، لقد تدمر كل شيء، يظهر وجه هند الشامت الشرير على السور الطويل بجواري، لا أستطيع تخيل الذهاب لتلك المدرسة التي تجمعنا ثانية. كيف أهرب منهم في المدرسة؟ لم يكن لدي خطة واضحة لاستكمال العيش فقررت أن حياتي قد انتهت، ليس من حل غير الموت، كنت أبحث عن مكان للانتحار. وقفت أمام الباب الصغير نصف المفتوح في السور، كانت مقابر، لكن ليست كمقابرنا. أدفع البوابة الموارية وأدخل هيبة المكان. كانت تلك البوابة الصغيرة ثقب كوني فصل بين عالمين مختلفين، عالم مزعج لا أريده بالخارج، وعالم مريح ومزين بتلك الشواهد الجميلة، كان فوق كل قبر تمثال متقن من الرخام لملاك بريء الوجه وزهور رخامية، تمشيت بين القبور أقرأ كل لافتة: الاسم، عام الميلاد وعام الرحيل، لافتات رخامية ومنحوتات لملائكة وعبارات تتغير بين حكمة ورسالة وداع أو تعبير فقد على القبور لا تتبدل، كتب بعضها بحروف عربية وبعضها بالإفرنجية، زهور كثيرة ملونة ملتصقة على شجيرات نابتة أو منسقة في باقات على الأرض، كان المكان جميلا ومزروعا بأمان حيوات ارتاحت، المعمر منها والقصير للغاية. جلست أخيرا وأنا مملوءة بالحزن والحنين لحيوات كانت ولم تعد، وسالت دموعي حسرة على أعزاء لم أعرفهم أبدا ونسيت موتي الخاص تحت وطأة موتهم الحقيقي، كان علي أن أقترب من الموت لأتخلى عن فكرة الانتحار.

حين ظهرت أنت كنتَ حيادياً بما يكفي لزيك الديني، تسألَني إن كان لي أحدٌ هنا، ناظراً حولك ومُشيرا للمكان، كانت عيناي حمراوين بسبب البكاء والمبيد الحشري، كنت قد حررت رأسي من الإيشارب، أحاول تغطيته الآن مرتبكة من الرائحة المقرفة، نظرتُ إلى أسفل فبدوت كمذنبة على ما أظن، كان هذا أفضل من كوني ضعيفة ـ كنتُ وقتها أربط شَرطِياً بين البكاء والضعف ـ فوبختَني مُذكِراً أن المدافن ليست مكاناً للهو، بررتُ بأني أُقدِر التماثيل الرخامية وأرغب في دراسة الفُنون، فترد أنت:

هذه التماثيل صُنعت لهدفٍ آخر غير التَمَتُع بالفن.

وحينها سالت دموعي رغم إرادتي لتستقر في التراب.

كنت ترتدي زيا ووشاحا، فتيا وباهيا بعيونك الزرق، لكن صرامة وجهك إلى جانب الزي أضافا لعمرك سنينا من الهيبة والقوة. كنت مثلي، حين أرتدي شارة الشرطة المدرسية، مزهوا بسلطتك ومضاعف التأثير.

إعادة الحكي بدوافع سيئة

على كوبري أكتوبر تتجه كارما إلى البار لتقابل قلب، تسوق عربتها محاولة إحداث فارق في نفسية عابري الكوبري في تلك اللحظة؛ فعندما تمر بهم الإلهة الأنيقة، وبينما تتقدم أمامهم في فقاعتها الملونة والمغلقة على مناخ بارد وامرأة منداة الشعر، يرون في تمايل عنقها إيقاع موسيقى لا يسمعونها، كل وذوقه يتخيل شكل النغمات التي ترقص تلك الجميلة المزخرفة. تتوه مركبتها في كركبة العربات المتزاحمة ويذوب هدوء مرورها في غيمة النداءات وآلات التنبيه، يضاف لكل

من يراها حلم نهاري منعش يسرح فيه مبتسما لحين الوصول إلى محطة الهموم القادمة. نظرت كارما حولها ونزلت الكوبري مجاورة المتحف المصري، تحمست لمواجهة الميادين ومقابلة قلب، في حقيبتها تحمل نسخة من كتابها الجديد وفي عقلها تخطط كيف تلوعه وتثير شياطينه تلك المرة.

يا ستي، أنت فين؟

خضني قلب وقطع ما أكتبه عن كارما، نعم، أنا أكتب عنها مستخدمة خيالي، حد له شوق في حاجة؟ ليست الوحيدة التي تؤلف الروايات، أنا أيضا أستخدمها كما تستخدم العالم، يقذفني قلب بملف:

ـ رواية جديدة لكارما.

قال كمن ينقل خبرا سيئا، سألته وأنا أزن ثقل الملف في يدي:

ـ أقراها؟

جاء صوت قلب من المطبخ، خلليها، فين الزيتون؟ زعق ثم أطل برأسه من الباب كفرقع لوز، مازالت الست كارما توتره، لكننا سنجد علاجا لهذا المرض، تماما كما عالجنا مرض الانعزال. بات قلب الآن يحرص على الخروج والاختلاط بالناس على الأقل مرتين بالأسبوع، يفضل صحبة الشباب، لم يعد يعرف أحدا فوق الثلاثين. يقول ضاحكا أنه تضاد صحي، الآن أصدقائي يأتون لزيارته أكثر مما يأتون لزيارتي، وأصبح بيتنا في الفيوم مثل شقته في الدقي، ملجأ لكثير من الشباب، يشترون له الحشيش الذي يحبه، ساعات أعتقد أنه يستقبلهم فقط من أجل هذا، أصبح لدي مزيد من الوقت للكتابة، لا أتوقع ردة فعل قلب لما أكتب، لكن لماذا يعترض؟ أينكر حقي في صياغة نسختي

من التاريخ؟ نسخة تحتوي على تصوراتي وتتوالى على إيقاع تحليلاتي الخاصة؟ عموما سنرى، الآن وقت قراءة ما كتبته كارما. الرواية عن ماتيو عشيق جونفيف المجهول. أول ما لفت انتباهي هو أن كارما الكاتبة لم تذكر جونفيف في روايتها، تجاهلتها تماما كما تجاهلها ماتيو نفسه. أصبحت قصة لا تمت بصلة لتلك المسكينة الميتة، أستغرب ما أقرأ ولم أفهم، لماذا اختارت كارما أن تكتب روايتها عن ماتيو عشيق جونفيف من الأساس إذا كانت ستسقط صديقتها إلى المجهول بهذا الإصرار؟ تهدي الكتاب لقصة حب لا تنتهي! عن أي حب تتحدث؟ حب جونفيف لماتيو؟ حبها لجونفيف؟ أم حبها لقلب؟ وربما لغالي؟ كم هي دنيئة تلك الكارما، هي لا تحب غير نفسها، فكروا معي؛ لو اختارت كارما تصوير ماتيو عشيق صديقتها لتخليد قصتهما كعاشقين ما كانت تعمدت قص وجه صديقتها من كل إطار جمعها بهذا العشيق؟ بحثت ولم أجد أي دافع لكتابة تلك القصة أو هدف غير السرقة؟ أليس الاستيلاء على ذكرى رجل لم يتم لها أبدا سرقة؟ كارما في تلك الرواية تعدت مسارات ابتذالها الطبيعية، لم تعد في نظري مجرد كاتبة سيئة تتلاعب بأبي عاطفيا منذ سنين، بل هي لصة نذلة أيضا. أسوأ أنواع السرقة، أن تسرق تاريخ شخص آخر، شخص لا يملك حتى حق الاعتراض على اقتطاعه من سياق عالمه، أن تسرق شخصا ميتا. يا للقذارة!

كارما تكتب: ضحكات متصلة

أتأمل نصفي العلوي عاريا في حمام فاخر لأحد الفنادق، الحائط بجانبي زجاج يكشف لي المدينة ويكشفني لها، أتأمل المدينة ونفسي، أنا على ما يرام أما بلادهم ـ أطوح رأسي في كل الاتجاهات ـ فمتوحشة، لكنه توحش محبب؛ كعضة أنياب أسد وليد، النساء هنا سمراوات ذوات عيون دبقة تلتصق بعيونك في الطرقات باحثة عن مأوى، المعسكر يقدس الرجال، ينظر ثانية إلى انعكاسه في المرآة ويبتسم، لما لا؟ هناك نساء جميلات في العالم وأنا لازلت وسيما. منذ طلاقي، ينقذ عملي صورتي كرجل طبيعي أعزب، فأسفاري المتعددة توحي بعشيقات بعيدات، وأعزز أنا هذا الإيحاء بالتمرين الشاق لعضلات معدتي (التي كانت تصرخ من خلال قميص بذلته الحريري بينما يغلق أزراره محدقا بانعكاس عينيه بالمرآة، كأنما يتحدى شخصا آخر يُحكم رابطة عنقه).

لم يملك أصدقائي الدافع للومي بعد على عدم الشروع في علاقة جادة منذ طلاقي من جولي، فحضور صور عشيقاتي الخياليات في الخلفية جعلهم يفكرون أنني على ما يرام، أمتص الصدمة وأكتشف العالم في حضن سمراء ساخنة. لكنني أعلم أن هناك يوما ما قادم

يفرغ فيه صبرهم وتتعدى شكوكهم حد السكوت ويواجهونني بالسؤال، متى تتخطى مرحلة جولي في حياتك؟ متى؟

ـ متى؟

زعقها لصورته في المرآة.

في أيام زواجي أضفى علي عملي صورة الزوج الشرير النمطية، ذلك الزوج الذي تتوقع أن تخونه زوجته بعد الربع الأول من الفيلم ولا تتعاطف معه، الزوج كثير السفريات المنشغل دائما، زوج لا يمكن لزوجته تحميل صور عطلتهما معا على الفيسبوك لدواعي أمنية، زوج تمرح في خلفيته المنفصلة والبعيدة أسلحة وأسرار، قدرات على الكذب أو القتل بجانب عشيقات سمراوات وصفراوات، عشيقات بدائيات يفعلن أي شيء وكل شيء، عشيقات متخيلات من ألف ليلة وليلة لم أملكهن قط، لكنهن دمرن زواجي والآن ينقذن صورتي كذكر طبيعي فعال.

كان يستعد لمقابلة زوجة الحاكم، استدعته إحدى وصيفاتها، كان يتوقع ما ستؤول إليه المقابلة فارتدى أحد سراويله التحتية المفضلة وعطر أعضائه.

لم تكف عن مفاجأتي، بعد أن أظهرت قوة وذكاء يفوقان المعتاد من نموذج الزوجة الصامتة المعتاد في المعسكر، تصبح في غياب زوجها شخصا آخر، تجلس أمامي بجسدها المشدود، تريح ساقا لامعة على ساق، كانت تردد هازة رأسها ببطء «إنها حياة رهيبة، رهيبة» عبارة نتوقعها مغمسة بالأسى، بالحسرة أو بالغضب، لكن زوجة الحاكم كانت ترددها بلطف وبقناعة راضية، تنطقها بروية ووضوح، كمن تشرح معلومة صعبة الفهم حتى أستوعبها. أومئ تصديقا على كلامها وأثني على دورها في ضبط إيقاع المعسكر لأغير

الموضوع، لكنها كررت نفس الكلمات، إنها حياة رهيبة، رهيبة. حين تتحدث ينزلق وجهها أفقيا على عنقها، ويظل نظرها مثبتا على محدثها مهما تحركت، كأنها تتكلم إلى عدسة كاميرا. في أناقة تحركاتها تكلّف من يحمل على رأسه شيئا ثقيلا يجبره على تتبع اتزانه والحرص عليه، حركاتها بطيئة وحذرة، ابتسامتها مراوغة جدا، كأنها تضحك في سرها على موتك الكوميدي الخاص، نظرتها ناعسة كأنها تغرق في حلم نهاري شاذ، كنت مضطرا لإرخاء رابطة عنقي قليلا، كادت عيناها الداعرتان وانفراجة شفتيها أن تقتلني، تصفق بكفيها فتغادر الوصيفات وتغلق الأبواب.

بعد ساعات أخرج إلى شوارع معسكر لا يهدأ، كنت قد اشتقت إلى النور والزحام، ما كان يجب أن أتأثر بها، في المعسكر قد يقتلك ما ترغب، تختفي الشوارع الخالية إلا من الحرس حول قصر الحاكم، أتمشى إلى شقتي بوسط المعسكر حيث سأقابل صاحبتي، أتعب في الطريق فأشير لتاكسي، تقف لي عربة مكتوب عليها حُماة الحاكم، ظهر لي رأس يلبس كابا عسكريا، ابتسم فم تحت الكاب ودعاني للدخول، أترجل لاحقا في شوارع المنتصف وأنا أتحسس مسدسي بيد وأُحيي الرأس العسكرية باليد الأخرى، تلفت تحيتي نظر رجال قريبين، يحيونني من مكانهم على الرصيف بهزات من رؤوسهم، أرد التحية بمثلها وأنظر بامتنان إلى السيارة السوداء المنزلقة بعيدا بعلامتها المميزة. منتصف المعسكر هو المكان الآمن والأكثر تحررا، لكن العجول التي تتسامر في كل مكان حولي تستدعي الحرص، غابة من الحُراس الشخصيين مزروعين أمام كل بار وكل مطعم، يتجمعون أمام أبواب البنايات الفخمة وأمام ساحات الانتظار، ويدخنون في الأركان، بغال مسلحة ومستعدة للشجار، نادرا ما تنشب معارك حقيقية لكن كل لفتة حولي تنذرني بواحدة محتملة. هم

مثلي تم تدريبهم بدقة، نفس تقنيات التدريب لكن البرنامج مختلف قليلا لاختلاف هدف التدريب، يسمون تدريبي برنامج الإبرة، لأنه يدرب عميلا قادرا على الاختراق لإصلاح خطأ، أما البرنامج الذي ينتج هؤلاء الحراس فيسمونه الشاكوش، هذا الشخص يحمل شهادة تؤهله ليموت في سبيل مالكه المحروس، تماما كما سأموت أنا في هذا المكان من أجل لا شيء، من أجل أن ينام أحدهم في الجهة الأخرى من العالم وهو يشعر بالاطمئنان أن فضيحته ماتت معي، ليطمئن أنه قد مزق تلك الصفحة من كتاب التاريخ وأحرقها وأن كل من شاركه سر المعسكر قد ذاب في رماده. أنظر إلى الواثقين حولي وأكتم صراخي، لو تفهمون أن تاريخكم كله مزيف ومصنوع، لو تعلمون أن نهاية مستقبلكم مرهونة بنظام تحديث الترتيبات الإدارية لحركة رأس المال، لو تدركون أنكم بهائم ليست ضائعة تماما بل مسروقة، لو سمعتم أن وراء هذا المجهول الذي يُحيطكم ممكن غير الممكن واحتمال غير الذي عرفتموه، لو تحدثت الحقيقة ذاتها الآن لن تصدقوا ولن تنتبهوا، كيف ألومكم يا مساكين والعالم نفسه لا يتخيلكم فيه أحد، لستم على خريطته ولا على جدول أعماله، أنتم مجرد بند مخفي في دفتر أسود لفساد شركة أضخم من أن يملكها أحد، ونهايتكم مجرد توقيع من مدير ثري عظيم العائلة، أما أنا فعاثر الحظ الذي لم يكرهكم كفاية لينجو، أدفع ثمن لحظات تعاطف غير محسوبة تكلفني حياتي. لم أعد أحسب كم قضيت في هذا المعسكر، أياما شهورا أم سنين، سكان المعسكر لا يتعاطون الوقت بأي حال ولم أعد أنا في حاجة إليه، كل شيء هنا يمشي بالمصادفة، شبكة من المصادفات المحبوكة، هنا يهدم كل ما تربينا عليه من أنظمة الترتيب، حين تريد رؤية صاحبتك لن تتصل لتطلب منها موعدا، بل عليك فقط أن تشعر بالشوق إليها لتراها تندس في حضنك، لو توقفت في

المعسكر عن حب زوجتك ستختفي تلقائيا من حياتك، ولن تظهر ثانية إلا لو استمنيت مستخدما صورتها يوما.

حسنا، هناك مكان يسميه المعسكر، ذهب فيه لمهمة عمل ومنع من الرجوع لسبب ما، لكنه يشكو صفحات طويلة من وجع قهره، كما تحدث عن كارثة وإبادة مخطط لها لأهالي المعسكر، يحكي عن حاكم وزوجة لعوب، يحكي عن ذنب كبير يتحمله، ويبدو لي أنه كان تعيسا جدا.

يارا

صاحبة ماتيو من المعسكر، كانت دائما تقول:

ـ إنها حياة رهيبة، رهيبة.

تماما مثلما تقول زوجة الحاكم لكن الفارق كبير، فأناس مثل امرأة الحاكم هم من يجعلون حياة صاحبتي غير محتملة، فهي حين تُردد تلك الكلمة تكون كمن تقرر حقيقة، كمن تنهي أمرا، تقولها كأنثى أسد تعلن أن سفك الدماء فعل وحشي بينما تلعقه من على شفتيها، بينما تقولها صاحبتي كغزال ينبذ العنف، صادق ومعقول، مليء بأمله الخاص ألا يصبح هو نفسه طعاما للأسد، امرأة الحاكم ترضي عن قبح الحياة وتباركه لأنها لا تعانيه، متوافقة مع ألم لا يمسها، كأنها تقول، تلك الحياة رهيبة رهيبة، لن يغير أحد هذه الحقيقة، وإن كان يجب علينا أن نكون بشعين وشريرين لنكسب ونسعد، ماذا نحن فاعلون؟ ـ هزة كتف لامع ـ هذا هو قدرنا مع الأسف ـ ابتسامة رائقة ـ وعلينا القبول به سعداء، علينا الإمساك بالغزال وقتله. أما صاحبتي، فكانت تعلو على ألمها بأمل فحواه: أنه على الرغم من كون

الحياة رهيبة رهيبة، وبرغم الخطر الرابض والأوجاع، إلا أني لازلت أؤمن أنه قد تحدث معجزة لتصلح كل شيء، أهرب من الأسد أو يرفض هو التهامي.

أراقبها تحكي عن يومها القاسي، تحركات جسدها حرة وغير حذرة، جسدها يعبر تلقائيا عن مشاعرها، انكشافها الفاضح الذي سحرني يتبدل أمام عيني إلى سذاجة مزرية.

ـ الهدف هو منع تطور وانتشار الوباء إلى العالم، بأي ثمن.

كما قال مديرها ذاك الصباح، كانت سارحة في شاربه المقوس، لامت نفسها حين أدركت مكان نظرها، فتحديقة واحدة في المكان الخطأ قد تدين الفتاة بسمعة قبيحة في ذلك المكان.

تتعامل يارا يوميا مع كائنات تشرب المر، فتضطر لاختلاق معلومات مغلوطة عن أهلها وحياتها، لتخفف شعورها بأنها محظوظة، وتشعر بالذنب لأنها حظيت بوالد أحبها وإن لم يحسن إظهار هذا الشعور. حين تقترب من البشاعة فإنك تقدر جدا كل ما قد يشبه الجمال، قد يشوهك القبح حولك حتى لا تكاد تتعرف علي الجمال ذاته حين تقابله ومع ذلك فإنك تحتفظ بإيمانك به وتستمر في انتظاره رغم دلائل الشؤم، وبرغم خيبتك تبدو عارفا. يارا لمست مشاعر الذل والقهر واللامبالاة دون أن تنغمس فيها، رأت جهلا عجيبا وأبناء يشاركون أباءهم التدخين، أمهات يسمعن أطفالهن يسبونهن ولا يزجرن، وكان كل ذلك يوترها.

تحكي لي صاحبتي عن الشركة ومديرها وعن بؤس سكان المعسكر غير شاعرة ببؤسي الذي أخفيته بمهارة جزئية، تدرك صاحبتي أنها بعيدة كل البعد عن أي تصور قد ينقذ هؤلاء الناس ويحافظ على حياتهم كما عرفوها، مثلي تماما لم تكن متأكدة أبدا إذا

ما كانت الشركة ستوافق على أي تصور تطرحه من الأساس، لكنها لم تستسلم، ستذهب إلى زوجة الحاكم:

ـ سأقابلها غدا، سأحكي لها كل شيء عن الوباء، لابد أن يتحرك أحد، سأحكي لها عن رأيك أيضا فقد تقدره و...

قاطعتها:

ـ لا تنقلي عني أي شيء، الأفضل ألا تذكريني أبدا، لسلامتنا، زوجها لا يحبني ولا أظنها تخالف له رأيا، لا تقحميني في هذا الموضوع فتخسري قضيتك.

تهز رأسها وفي عينيها عدم اقتناع، لكنها تكمل الكلام فتحكي وتحكي. أنتظر صمتها مقاوماً هيجان معدتي، أود أن أترك لنفسي العنان وأفرغ ما في جوفي، هنا في المقهى وعلى تلك الطاولة بالذات، أريد أن أترك بقاياي المقززة أمامها علها تفهم قدر اهتمامي الحقيقي بمعسكرها، لكني حافظت على انتظام تنفسي قدر المستطاع.

كانت صاحبتي تثق في زوجة الحاكم، تظنها مختلفة عن زوجها وأتباعه، كانت تطلعني على أسرارها البلهاء فأبدي دهشتي أو انزعاجي وأبدوا لها حقيقيا، كما تفعل مع طفل يعرض عليك أغلى مقتنياته، حشرة قميئة بعيون ظاهرة تطقطق، أو بضع زلطات بلا شكل، فترفع حاجبيك وتشكر اكتمال الزلطات وتميزها، ثم تتظاهر بالانزعاج لفقدانه إياها لاحقا. سألتني: هل تحقن وجهك بمضادات التجاعيد؟

ـ لا. لماذا؟ هل أحتاجها؟

اقتربت مني بوجهها كثيرا وهي تضحك:

ـ ليس حقا، لديك بعض التجاعيد هنا وهناك.

تتأملني لحظة:

ـ حاجباك لا يتحركان، عضلات وجهك يابسة، لا أعلم، ظننت أنه تأثير مضادات التجاعيد.

ضحكت فضحكت، احتوت وجهي بين كفيها فأخذتها بين ذراعي لأخفي يأسي، ألعن حكم العادة، درب العمل وجهي على التجمد حتى نسي التعبير.

لماذا أكره كارما الكاتبة؟

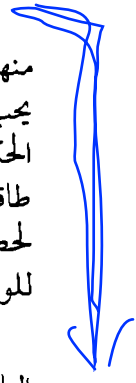

هناك كاتب يجبر نفسه على اللعب تبعا لقواعد لا يحبها لكنه يخاف منها، كمتعبد يخاف النار لا الله. يكتب كما يجب أن يكتب، لا كما يحب أن يكتب، وتتناثر في أذنه الفتاوى. عادة ما يلتزم الجميع بطرق الحكي المعتمدة مع ترك مساحات صغيرة للشخبطة غير المحسوبة، طاقة صغيرة نطل منها على حقيقة أفكار ذلك الراوي المستسلم لحصار قمقم التصنيف؛ طاقة لا يقفز منها إلا أفكار تجرؤ على الظهور للوسط الأدبي القاسية أحكامه.

يُرغَم الكاتب نفسه على إعادة ربط الأحداث بطريقة ترضي الناس وتبدو لهم معقولة ومبررة، رغم وعيه بقيمة ميزته ومسؤوليته في احتكار إعادة ربط الأحداث والحركات لتَقرُب من واقع يحاكيه كما يستقبله بأمانة؛ بحيث يظل ذلك النقل أو إعادة الحكي بالضرورة مميزا وفريدا. ورغم وعي الكاتب أن خياله «الأوتوماتيكي» هو أداته الأساسية للكتابة لا معرفته «المانيوال»، فإنه يتدخل ذهنيا في روايته رغما عن إرادة شخصياته التي، لسوء حظها، لا تتواصل مع غيره أبدا بنفس الطريقة أو في ذات السياق، فيستمر الكاتب بالتلاعب بشخصياته المسكينة بالمواربة والتسلل، يعطلها بالتضليل أو بتعقيد

طريقها. كإله إغريقي ظالم، يمرر إلى القارئ بجبن ـ أو بحياء ـ دلالات يفضلها وتنبعث من مزاجه الخاص. تصير الشخصيات المحكية ضحية دائمة لتضارب المصالح ومتنازع على حقيقتها بين المبدع وجمهوره، مع أنها من الأساس ظهرت لذلك الكاتب لتروي نفسها في حكيه، فبدلا من أن نمكن الشخصية المخدوعة من إعادة حكي نفسها، وبدلا من دعمها لإمساك حقيقتها، نتعمق في لوي تفاسير أفعالها حتى نستخلص ما يرضينا حتى تتوه الشخصية عن نفسها وعنا وتتبخر من الحزن.

تموت شخصيات الحكاية ذبولا، نتيجة خطأ في التأويل؛ فقد ترفع الشخصية المسكينة حاجبا أو ترخي جفنا غير متحسبة، فيربطها الراوي/ القارئ بدكة محفورة بكتابات العشاق على الكورنيش، وعقصة شعر في صورة بالية، ليخلق إيحاء بقصة حب ملتهبة أو إعجابا زائفا لا تعلم عنه الشخصية شيئا.

يعامل شخصياته كأطفال مقموعين، يلبسهم أثوابا لا تليق بهم ولا تريحهم، فقط ليحبهم الزوار، يزينهم ليصبحوا مسوخا صغيرة متكلفة، تفتقد الطفولة نفسها، شخصيات معبوثا بها ومُسائي الاستخدام، كدمية أهديت لطفل يكره الدمى فيركلها، يقذفها على الأرض ويسحقها.

وبينما يمكنك أن تخلط صفحات الرواية فعليا بلا أي تأثير يذكر على الحبكة أو التوقيت الركيكين في وضوحهما، فإن النقاد سيغالون كثيرا في الاحتفاء بخصوصية العلاقات بين الشخصيات وحبكة النص. أي حبكة؟ حيواتكم نفسها تظهر كسيناريو غير مترابط. لكن لا يهم، المهم أن صاحبنا سيوقع كتابه كمؤلف ناجح يتبع نموذج الحكي المعتمد، وينبذ نموذج الطبيعة الأم كأغلب أساتذته النقاد، وكارما هي نموذج لهذا الكاتب الجبان والظالم.

لولا جونفيف ما علمت كارما عن ماتيو شيئا، لولاها ربما لم تعرف عن الحياة شيئا، لكنها تجاهلت تماما مصدرها الأهم، تغاضت عن شاهدة العيان الوحيدة كما لم يفعل أحد قبلا، وتغافلت عن تحية جونفيف الصديقة حتى ولو بسطر يتيم عن ذكرى منسية من البطل، لم تذكرها حتى كحكاية في الخلفية غير موثوق بها، أبت حتى أن تتركها تعيش في الحكاية كحبيبة غير معتمدة، أو كجنية تهوى ماتيو من طرف واحد، تعمدت طمرها بنسيان ماتيو لها تماما، كأنها توجه الطعنة الثانية لجثة ماتت، كتبت هذا الكتاب كأنما توثق نسيان جونفيف، تؤكد موتها وتجرجرها من شعرها لتغمرها كليا بالتراب.

ولماذا بالله ترسم شخصية ماتيو بهيئة غالي؟ غالي؟! الغلباوي المندفع الدلدول والأناني! عن نفسي: أتخيل ماتيو دائما أقرب لقلب، ثابت ومُجبر، غلبان ومهجور، بمأزق انعزاله ومحاصرته، بعينيه الزرقاوين ووسامته. لقد أعطت كارما البطل جنسية جونفيف السويسرية مع شعر غالي الأسود القصير الكثيف، الجلد الأسمر والعيون الثاقبة شديدة السواد. كنت كأنني أقرأ غالي يعيش لكنه يأكل الجبن السويسري بدلا من الباذنجان، مطابقا للشخص الذي قرأته في حكاوي أبي وفي خطاباته. لم أحب هذه الرواية التي لا يمكن حتى مقارنتها بدفاتر العشيق الأصلية. أتأمل الدفتر الأنيق، كل اختياراتها عمياء تلك الكارما. أظن أن هذا الكتاب لم يكن ليسعد جونفيف، أعرف أن لسانها كان طويلا، لكنها لن تنطق كلمة الآن، حتى عندما كتبت عنها متتالية الراقصة الفوشيا، لم تدعها تظهر كما تريد أن تكون، بل بالغت أحيانا وكذبت في كل شيء؛ جونفيف لم تجد الجمباز أبدا، كانت راقصة باليه في شبابها وراقصة تنورة فيما بعد، ولم تكن قبيحة كما صورتها. أبي قال أن روح جونفيف كانت تشع من جلدها وهجا خفيفا يغطي تجاعيدها ويمنعك من أن ترفع وجهك عنها، كان

الناس دائما يتوجهون إليها بوجوههم حين تمشي في الشارع. يقول أنها أحبت كتاب كارما لكنها لم تجد نفسها فيه، هل كانت سترى ماتيو في هذا؟ كم أحب أن أحضر روح جونفيف وأعطيها لساني لتنطق به، لِتُعَبِر عن رأيها في ترهات كارما المنمقة تلك. أرمي الملف جانبا ولم أكذب حين سألتني عن رأيي في روايتها:

ـ قلب قال لي إنه تأخر في القراءة لأنك قريتي الأول، سعيدة انك اهتميت، يا ترى عجبتك؟

صارحتها برأيي، اندهشت حين اقتنعت تماما وقررت عدم نشر القصة. متأخر جدا. تظنني بلهاء. أعلم أن النسخ على مكاتب النقاد وسرعان ما سيكتبون مقالاتهم، سيذاع السر ويتنافس الناشرون، وتخرج الرواية للنور رغما عن إرادة الكاتبة المسكينة. نتعشى ثلاثتنا. جاءت في زيارة مرتب لها؛ لا تظهر فجأة أبدا، هي فقط تختفي فجأة. أكره كل شيء فيها، عطرها، شعرها المرفوع كأميرة منزوعة اللقب، لامبالتها المتنكرة في هيئة تواضع واثق، كارما واحدة من هؤلاء اللاتي كرهتهن أيام الجامعة؛ كنت أنا القروية المغتربة، وهن الرقيقات الراقيات، حتى بعدما خلعت حجاب القرية لم أستطع أن أخفي أصولي وأظهر كواحدة منهن، كانت خطوط ملابسي توحي دائما أنها رخيصة وأنها تنتقص الذوق، وحقيبتي لم تحتو أبدا على عطر خرافي أو علب المستحضرات الراقية. أما النساء ككارما، فلا يستطعن أن يصبحن سيئات المظهر حتى لو حاولن. تضع في طبقي قطعة لحم، مازال قلب واقفا بجانب الشواية يهوي على الخضار، يصيح بأني نباتية، تضحك بلا سبب وتربت على كتفي، تحاول لعب دور زوجة الأم الحنون، لكن بعيد عن شنبها. قلب يحب لمياء، الآن أنا شبه متأكدة، أنظر إليه محني الظهر وضعيفا فأغتاظ من وجود كارما أكثر، أشعر أنها تزاحمني في قلب، تريد سرقة أبي كما سرقت ذكرى ماتيو.

تريد كل شيء، الأصل والثراء والحب. على أي حال، سأشارككم بضع صفحات من روايتها، اقرأوها كمستند اتهام أو اعتبروها فاصلا إعلانيا، ليس هناك فارق كبير، وأنا سأكمل كتابتي التشويهية علها تفهم أن المؤلف لا يجب أن يكون الميقاتي الوحيد للعبة الرواية، لأنه قد يتوحش بجبروت سُلطته ويبدأ في التغذي على أرواح الناس، فلتتذوق إذن فنون الالتهام في صفحاتي، كما تتجرع روح جونفيف النسيان في روايتها.

من كشاكيل ماتيو الأصلية/ أحداث يحبها الورق

أكتب الآن لأول مرة في حياتي بلا مبرر، ولأول مرة أحتفظ بما أكتب، ليس تقريرا ميدانيا مشفرا أو خطة إدارية، بل حديث لا يشاركني فيه أحد، حديث كُتم في عقلي طويلا حتى كاد ينفجر، كاد يخرج من عيني ويخترق فمي، كدت أذيعه لعقول لن تسمع، فكلامي لن يستوعبه شخص آخر داخل المعسكر أو خارجه، هناك كلام كهذيان معتوه، لا يفهمه إلا الورق والطبيب النفسي، ولكن لا وجود في المعسكر لهذا الأخير، ولن أضيع وقتي في شعوذة علاجاتهم للنفس المريضة التي يسمونها «النفس العالية» ليحتفوا بالمرض النفسي. في المعسكر تقول الأسطورة أن من يدخل في المصائب يصطادها ولا تغتاله، كل سكان المعسكر ينالون ما يرغبون، لكن قد يقتلك ما ترغب، وحدها النفوس العالية تهذي، لأنها تتمنى المغادرة إلى عوالم أخرى يعتقدونها مخفية عنهم بحكم الفيزياء، يظنون أن رغبة النفس العالية تتحقق وتهرب إلى تلك العوالم المرغوبة تاركة الجسد الهزيل يتفاعل في دنيا لا تفهمه. كانت النفوس العالية تتكوم في جوانب ممرات المعسكر، يزيد عددهم كلما مشيت موجها ظهرك لمنتصف المعسكر حيث يعيش أغلب العقول والعملاء.

أفتح باب شقتي لأجد صاحبتي ممدة أمامي، تماما كما تخيلتها وأنا تحت زوجة الحاكم ليستمر انتصابي، أنظر ليارا فتخفق في صدري أجنحة كثيرة، أستلقي بجوارها، رؤيتها هانئة ومطمئنة في حضني تسبب لي إعصارا من الألم، ليس ألم رغبة أو ألم فراق، ليس كألم القلق أو ألم الغضب، بل هو ألم الخيانة والذنب، ألم الجبان معدوم الحيلة. كنت أفكر أنها ربما المرة الأخيرة التي سأرى فيها هذا العرق النابض في رقبتها أو ألمس ذلك الشعر الجميل ـ يا ربي ـ كنت أعرف أنه سيحترق ويصير رمادا، سيبتعد إلى ما وراء حدود اللقاء وجرأته ويقتصر على لمحات مضيئة ونادرة في أحلامي، إن كانت الأرواح تحلم أو تحتفظ بذاكرة فيارا ستسكن ذاكرة روحي. كانت تلك العصرية أشبه بصلاة وداع بجوار جثمان شخص تحبه، كلحظة تأمل أخيرة في وجه حبيبتي قبل أن أغلق في وجهها باب التابوت إلى الأبد، دون أن أتأكد تماما أنها ميتة، دون أن أقبلها لربما يزول السحر وتحيا من جديد بنفس القلب ونفس الذاكرة، لكني أجبن من أن أنقذها أو أن أقاتل من أجلها الساحرة الشريرة، أنا حتى لا أقوى على إنقاذ نفسي. كل ما أقدر عليه هو الاتكاء بجانبها لأواسيها عبر اللعب بخصلات شعرها، أمسك بخصلة ملوية، آخر ما يتحلل من جسد الإنسان، أحتفظ بالخصلة بين أصابعي طويلا، أقلبها وأتحسسها لأحتفظ بلمسها الحنون وخارطة انحناءاتها، أضمها وأشمها بعمق، لا أظن أني بدوت لها طبيعياً، مزاجها ليس جيدا، أعرف ذلك من حركاتها السريعة المتتالية والزائدة عن الحاجة، أضغط عليها في حضني، علي فقط أن أكمل ما بدأته. التفتت فجأة وقالت: حين أموت أود أن أحنط، لا أريد لجسدي أن يزول. وأنت؟ أتذكر الكابوس؟

كابوس ماتيو

حلم واحد ساذج يتكرر، أنا في ثلاث طبقات مطوية، أراني في الحلم أشاهد نفسي على شاشة تلفزيون قديم كمن يشاهد غريبا، أنا في الشاشة ألبس قميصا أبيض وبنطلونا أسود، أجلس على سرير مستشفي أبيض في فراغ أبيض، في السرير فتاة لا أتبين منها إلا شعرا أسود ناعما ينام بجانبها على الوسادة، ملامح وجهها الشاحب تائهة في بياض الوسادة، أراني داخل الشاشة، كما أرى خلفية رأسي خارج الشاشة، وأسمع صوتي الذي يعلق على التلفزيون كما اعتادت جولي أن تعلق على الأخبار بحماس، وكأنها حين تتحمس كفاية سيأخذون برأيها. على أي حال، كان هناك أيضا صوت كذلك الذي يعلق على الأفلام التاريخية يحكي بصوت عالم ببواطن الأمور:

ـ دائما كان يحاول أن يجرحها جروحا صغيرة، فقط ليرى ماذا سيحدث، هي لم تكن تُعبر عن ألمها معتقدة أن ذلك يسعده، كانت تتحمل القطوع الصغيرة بابتسامة، تخفي الألم في تشنجات خفيفة بوجنتها اليسرى، أحيانا تتأوه بخفة. وحين يرفع يديه متسائلا ترد، لا شيء مهم، أكمل ما تفعله. كانت هي تظن أنها تفرحه ولم يدرك هو أنه يؤلمها، إلى أن جاء اليوم.

أراني داخل الشاشة أميل عليها ممسكا مشرطا جراحيا، وأبدأ في شق معدتها من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال دون مقاومة منها، فقط تأوهات خفيفة، وفي ملامحها غير المرئية شاهدت أنا خارج الشاشة ظل ابتسامة، صرخت ـ أنا خارج الشاشة، غبية غبية، قولي له إنه بيوجعك قولي له، بالطبع لا تسمعني الفتاة التائهة في التلفاز فأصيح ـ أنا خارج الشاشة ـ بقوة أكبر علي أنا داخل الشاشة، بس يا غبي، يا غبي هتقتلها يا مسكين.

ينتبه أنا داخل الشاشة أن هي ليست على ما يرام وينتابه الرعب والحيرة، لا يعرف كيف يتصرف مع هذه السحابة الثقيلة المظلمة التي تتسرب من جرحها لتبتلعها وتبتلعه معها تدريجيا، يكمل المذيع الحكي:

ـ وهكذا ماتت دون أن يفهم حتى أنه يقتلها.

أصحو من الحلم مخنوقا بعد تمام يأسي أنا خارج الشاشة وتمام سواد الشاشة والحلم. متروكا في الحلم أئن ندما داخل ظلمته، عشت مع ذلك الكابوس الأبيض والأسود مرة في الأسبوع على الأقل أيام زواجي وتوقف بعد الطلاق، الآن أعيشه كل ليلة وأعرف داخل الكابوس أنني رأيت هذا الفيلم من قبل، لكنني أبكي كل مرة من خيبة مختلفة حين أصحو.

نفوس عالية

حين فتح ماتيو الورقة التي أهداها إياه الرجل العجوز لم يجد بذورا، كان هناك قصاصة ورق متسخة كتب عليها:

«في الأرض الأولى حين تلتقيان أخيرا، مزروعين في سماد الوئام

ونابتين من تربة الحكمة، فليعرف بعضكم بعضا إنما الخطايا في أجسادكم مسالك وطرقات، امش مطمئنا بين خطاياك وأعلم أنك لست المذنب الوحيد.

لا أثر لحياة سوى قطة تركض من ظل لظل، تؤنسني مع نسمة خفيفة البرودة تحمل آثار قلي أقراص الإفطار؛ آثار حياة. أتجه لأطراف المعسكر، تختفي تعريجات الطريق وأحاجي المنازل المركبة لتنبت ساحة، فاتحة اللون ممتدة ومريحة، تحتلها زوابع كثيفة من الناموس تتراقص أسرابا ما بين التحام وانفصال، ناحتة كيانات ضخمة تتلون في ظلال مخروطية حول القبة البيضاء، بضع حمامات تطير فوق أكوام القمامة التي أحاول جاهدا تجاهل روائحها، يقذف أحدهم كومة قاذورات بتهور يسقط بعضها على كتفي فأتمنى العودة من حيث أتيت، إلى العالم المستحيل.

تمر بجانبي إحدى النفوس العالية، بت أخاف من هؤلاء الناس، يظهرون من لا مكان ليهمسوا في أذنك بعبارات لا تفهمها لكنك مجبر على تقبلها بحكم العادات والوعي الزائف، بل على تبنيها، لأنها تأتي من تلك العوالم الأفضل، عوالم يحلم الناس بالوصول إليها، كل ما يأتي من (بلاد يحب أن يعيش فيها الناس) وهي الترجمة الحرفية للاسم الذي يطلقه سكان المعسكر على عالمنا الذي تصل أخباره إليهم في هيئة أساطير وأحلام، أنظر إلى المجانين المتراصين على جانب السلم الطويل، هل سأنتهي مثل هؤلاء الأشباح؟ أدور في شوارع لست موجودا بها لأخاطب بشرا لا أراهم؟

اليوم أيقنت أن لا شيء أفعله قد ينقذ هذا المكان، خرجت من غرفة ضابط الاتصال كئيبا، ليس فقط لأنني مهدد بالموت في ذلك المكان، لكنني تذكرت أمي أيضا. صعدت السلالم الطويلة إلى حيث

يعلو المقام الأبيض، هنا أعلى وأنقى هواء في المعسكر، اقتربت مني نفس عالية، أعطاني الرجل ـ الذي يبدو مجففا لكنه مفرود العود ـ كيسا صغيرا، دسه في جيبي، أخرجته وسألته ما هذا؟ قال بذور، وضعها في يدي وأمسك عليها مقفولة كمن يعطيني صدقة وهمس:

«الليلة وأنت مجتمع بالأحبة لا تنس أن تدعوا لي، فعند المقام الأبيض هذا الصباح سيتغير كل شيء بالنسبة لك، ستزول اللعنة، حين تغرس تلك النبتة، وتفرك بيديك تلك الأرض الطيبة، ادع لي في تلك اللحظة الطاهرة، واعل بصوتك ليسمعك الأحباب ويؤمنون كما آمنا.» هز الرجل لي رأسه بالإيجاب كأنما يؤكد على سر نتشاركه، إيماءة من رجل لرجل يفهم مغزى الإشارة، مع أني لم أكن أفهم شيئا أومأت أمام طول وإصرار إيماءة الرجل. هممت بالانصراف فأوقفني، أمسك ذراعي فجأة فأجفلت: «حين تغرس نفسك في تلك الأرض كما تختار لا تحقد على من يتراجع ويطير، فتلك مرتبة ترتقيك ولا ترتقيها» قبلني على رقبتي خطفا وانصرف.

لا أفهم ماذا يقصد، والكيس كان فيه بالإضافة لورقة صغيرة بعض الشاي الأسود، استخدمته صاحبتي منذ قليل، وحين ضاجعتها لاحقا تذكرت هذا العجوز فقذفت قسرا لسبب مجهول.

سكان المعسكر ليسوا تحت السيطرة تماما كباقي سكان المدن الظاهرة على خريطتنا، وليسوا بالتأكيد، كما حاول أن يصورهم لي الحاكم، أقل ذكاء أو أسهل معشرا، ليسوا وحوشا ولا أشباحا. لا أستطيع رسم صورة محددة عن شكل الحياة في المعسكر، لكن بعد تحليل عميق أنقل لكم الخلاصة، هو أشد الشبه بمجتمعاتكم، لكنه مختلف كثيرا.

ستخرج إلى هوائه لأول مرة لتفهم أصل الرائحة، ترفع أنفك

وتشم ولا تعرف إن كان الطعم في فمك قرمشة البهارات أم الرمل، لكنك ستشم عبقه النفاذ كعرق المارة في الشوارع، الشوارع التي يبدو بعضها كشوارع اليابان وبعضها كأعشاش الطيور، كل التناقضات تسير في سلاسة وتناغم يدفع للجنون أو للبلادة، وبالنظر حولك تيقن أن الكثيرين مثلك قد اختاروا البلادة.

المصيدة ـ الكتابة بدوافع الرغبة

تُحَرِك نظرها بعيدا عن الكأس، تدور سبابتها مُملّسة على الحافة الكريستالية، يطربها الصفير الناتج، تضحك، تلمع على لسانها جوهرة ضئيلة، أتساءل إن كانت وحيدة ويتعرق لساني متململاً. تتماهى بشرتها بانعكاسات الكأس لتبدو شفافة، أكاد أُميز تعبيرات شرايينها، فمها منفرج قليلا، المسافة الصحيحة لبداية قبلة، ألاحظ شفتي تفترقان أيضا، فأشدهما بالعاً انفعالي. أتصور تفاحة رقبتي اللافتة تتحرك مع لعابي في كادر مُقَرَب معلنة عن قلقي فأحول نظري سريعا، مرتبكا أعود لأقابل عينين تليقان بالفم الملول، مسترخية الجفون، جامدة ولا مبالية، أتأملها متحررا من الواقع المرتبك حولي بدفء نبضات قلبي النشيط. أُركز على عينيها وبشكل طفولي تتملكني فكرة، جاءني إيمان أني سأرسل إليها موجات دفء من جسدي تصل إليها وتولد شرارة تواصل لو ثبت نظري عليها وتمنيتها مطولا، وهذا ما حدث، توقف إصبعها عن الأزيز بالكأس والدوران للحظة، متجمدة تنظر إلي مباشرة، تُوجعني توترات عضلات معدتي، يظل كفها مدلى في الهواء برقة، مُخفيا جزءا من الوجه المحفوف بشعر داكن كثيف، أعلق في المنحنى الخطير للرقبة الرفيعة، أقحم لساني في الفراغ الحميم بين أضراسي العُليا باحثا عن رباطة جأشي، تريح عينيها

وتدور بهما في المكان بينما يستكمل إصبعها دورانه المُتبرم عازفاً نغمات تخضع لسرعة دوران الإصبع المتواترة، أحببت لاحقا النظر بدقة إلى هذا الإصبع، رباه كان جميلا، شفافا وغير معتنى به أبدا، كان يجذبني بدورانه الرشيق كما أسرتني من قبل حركة دولاب الطين الذهبية لأتماهى في دورانه وأحب الخزف.

أنتظر رجوع عينيها وعلى وجهي ابتسامة لم أعرف مصدرها ويعلم الله أني لم أصطنعها، كنت أعرف أنها لابد سترجع ببصرها إلي، متأكداً ومشتاقاً راهنت نفسي ورفعت كأسي لأحييها. عادت عيناها من جديد لفرحتي وانتصاري. أشير لها بالكأس، ألمح تحركاً بزاوية فمها يُنبئ ببسمة، أتحدى خوفي القديم وأشرب من كأسي جرعة كبيرة دون أن تتركها عيناي ثم أتجه إليها.

«أقف أمام كرسيك فتضطرين لفتح عينيك على اتساعهما وتتحدين النعسة التقليدية لتتطلعي إلى وجهي، بمسحة تساؤل وظل ابتسامة وشبح يقين ترفعين وجهك إلي. راضيا عن نتائج اللحظة أميل لأهمس، فتُحولين إلي أذنك، يا التناغم!

ترقصي؟

دون حتى أن أعي بدأتُ التخطيط لعملية القنص، في خلية ما من عقلي لا أستطيع تحديدها كنت أتآمر عليك. ماذا أقول؟ لطالما كنت شيطانا آثما، أظن أنها طبيعتي. وكما ترين، عندما همست في أذنك سمحت للساني أن يخطف لمسة حريصة من أذنك الطرية، وبينما نرقص تعمدت أن تطال أنفاسي رقبتك الدقيقة، أدفعك بشغف في كل الاتجاهات على الأنغام اللاتينية وأتلقاك بمَعَزة لأدفنك في صدري كسِر ثمين. تسيلين على ذراعي بعدما تلامسين إثارتي فتتلونين وتطيرين مع خطواتي في الرقصة اللاهثة التي طالما تدربتُ

على عفويتها قبل أن أعرفك، تنتشر خصل شعرك الملفلف في المكان، منتشيا أتتبع أثر عطرك يلتف حولي كشبكة عنكبوت، تقتربين بخطوة حلوة وتصبحين في مرماي فأقبلك وكأني لم أفعل من قبل، مستشعراً بأناملي سخونة جلدك المشع، أتذوقك جاهلاً أني أكسر حاجز براءة، مبهورا بسماع التصفيق لنهاية الرقصة، استمر في إدهاشك ثم أبتعد، تقفين أمامي بشفتين لامعتين وملامح مذهولة، أزيح عن عينيك الخصلة النافرة وأنا مُرتاح تماماً. كنت وغدا أصيلا بلا شك.»

كانت نضرة للغاية، شابة ندية تفوح منها رائحة الطزاجة والصحة، في السرير لاحقاً فهمت منها أنها تعيش مع شقيقتها الأكبر العانس مغتربتين، كنت مضطراً للإصغاء باهتمام، فقد تأكدت بنفسي أنها كانت عذراء، كما اكتشفت أنها في الثامنة عشر من عمرها، أترى المأزق؟

ـ أنت مجرد صبية. بدوت لي أكبر سناً الليلة الفائتة.

قلتُ فابتسمت:

ـ لستُ صغيرة جداً.

تُحرك رأسها كطائر.

ـ أنا في الثلاثين.

أعترف متأملا الوجه الذي يُظهِر حداثته للعالم، كنت كاذباً لعينا تخطى الأربعين. تبحث عيناي عن أي خط رفيع يشوب بشرتها القاسية في اكتمالها، يتباطأ بداخلي إحساس مدهش يدفعني للبكاء فأبتسم، أفرد كفها في كفي وأتابع كل الخطوط المتقطعة في راحة يدي، تبدو وحشية في قبحها بجانب كفها الطفل، أنسى اعتزازي

وغزواتي، ويبقى فراغ لا أفهم معناه. على سريري ضِعت للحظة. تميل ناحيتي كامرأة، لا تبدو طفلة وهي تلف ساقيها حولي، ألاحظ عدم وجود صليب على يدها وهي تمررها لتحيط برقبتي، كان هذا سببا كافيا لإثارة شياطيني، ففي خيالاتي كمراهق، تخلت الإناث دائما عن دينهن وأهلهن لأجلي. تعذبن بلوعة، وناديننني بأمل وشهوة. وفي النهاية أختار أنا حبيبتي المسيحية، مفضلا إياها عليهن بعدما جربتهن جميعا، أقتل حبهن النبيل لأصل إلى حدود متعتي الفردية الداعرة التي - يا للخجل! - احتوت على مشاهد إكليلي في الكنيسة، حيث ساد جو جنسي، فرضته جموع النساء، المحلقة شهوتهم، والبادي حسدهن لعروستي الجميلة الطاهرة. تلك الخيالات القديمة صارت الآن دافعاً لتخطي برنامجي التقليدي، لأبدأ بتلقين شيرين همساتي الأكثر وضوحاً ووقاحة. استيقظ في شيطان مريد تعلم يا قلب أنه لم يكن نائما تماما، لكن سطوته على الرجل في منتصف عمره أشرس. شيرين لم يكن بمقدورها الاعتراض من عالمها البعيد الغائم، خضوعها المثير الخالي من المتاعب حمس السطوة بداخلي، فهيمنت بقوة وتفجرت في طاقات أشعرتني أنني قوي، مسيطر وقادر. شعرت مع شيرين في البداية أنني شاب، رُحت اكتشف كل ما أنا قادر على اجتيازه، واستمرأتُ الرحلة حتى انسحبت هي، عند الباب أوقفتها لأعطيها مفتاحاً لشقتي بنذالة أحسد عليها.

بت ألاقيها يومياً، أقضي النهار معها في الشقة، تفاجئني بطبخة أو بستائر جديدة تحمي السرير من عيون الغرباء، كانت تثرثر كعادتها وهي تعد إفطار يوم العطلة.

خاصة تلك الغرفة فهي رطبة للغاية وتحتاج للتهوية دائماً خصوصاً في وجود شخصين.

تُقَيم الغرفة بعينيها:

ـ ضيقة وبعيدة.

تبتسم ثانية.

ـ تنفع للأولاد.

لا أعلق.

أميل برقبتي إلى الخلف أراقب، حين تذكر شيرين الأولاد ـ وهي تفعل ذلك بكثافة ـ لا أملك إلا التساؤل عما يتداعى في هذا الرأس الصغير عن الصليب الذي أعدت تعليقه في رقبتي قبل أيام، والظاهر أساسا بوضوح على هيئة منحوتة خشبية عملاقة في مدخل الشقة، إلا أني لا ألاحظ عليها أي شيء وهي تشرب الشاي باللبن وتحشي لي أرباع الأرغفة البلدي بالطعمية والباذنجان.

أتهرب منها بدعوى موعد منسي وأتركها في شقتي وأرحل.

تطاردك الدعوات
اذهب وأنت...
قلبي وربي...
خذ من قلبي وصر.

رائحا غاديا بشارع مقفر
والأحوال في تغيير
لا بنزين لسيارتك اليوم
وزهور القرنبيط
تتبدى لك شبه ميتة
في باحة غريبة
محجوزة خلف زجاج يعكس عينيك
فتكره التغيير ونفسك
تمضي باحثا
بين الزوايا المنيرة
عن ظل يشبه وحدتك
عن خطية تفجر الاحتفال
في السهرة النائية بأعماق قلبك.

لم أجرؤ أن أحلل أفكاري في ذلك الصباح وأنا متأرجح على سهام النصر والحيرة، أمضغ المسقعة محتارا بين ما إذا كانت شيرين تفهم ولا تهتم أو تهتم ولا تفهم، مكرمش الجبهة لم يخطر على بالي أي اختيار آخر. في ذلك التاريخ، كنت ما أزال في مرحلة (إما أو)، أتعمد قيادة الحوار إلى إشارات تعلن ديانتي إلا أن شيرين لا تهتز، متقوقعة بقربي آخر النهار أعلنت:

ـ أنا رايحة لأهلي.

زيارة باتت ثقيلة في ظل انحشار الأم في كل خبيثة وأعصاب الأب التي باتت تثور لأتفه الأسباب وأغربها، لذا لن تمكث كثيرا، فالبيت أصبح لا يطاق بعد استقالة أبيها من العمل بالبحرين، لذا:

ـ سأرجع سريعاً، يومان بالكثير.

وأعقبت وعدها بقبلة لها طعم ثوم الإفطار القوي، التصقت بي فأسعدتها من جديد. تلك الطفلة تحقق لي إحساس أمان مذهل، يجعل أدائي في العشق أفضل ما يكون. محظوظ من تذوق أنثى ساذجة ومبهورة، تملأ بالإحساس الأصلي للسيادة وتستعيد تقديرك للهدف الذي خاطر المكتشفون القدامى بسنواتهم الأقيم يجولون مجهول البحار من أجله، لربما في ظل نجمة حظ سعيد يتملكهم شرف طبع أولى الخطوات على أرض بكر ليحصدوا زهوا يتألق لسنين. تلك هي قمة الإحساس بالعنفوان لا يتبعها إلا هبوط، يعتصر بهاء اللحظة لاحقاً في سمر مع عشيقات وأصدقاء. ذلك التصور الذي حلّا شيرين في عيني في البداية، هو نفسه ما نفرني منها لاحقا، بت أرى نفسي عجوزا يستعرض مغامراته الصبيانية على منضدة بوكر، متباهيا بفتوحات قديمة ويتمسك بزمن انتصارات ولّى. كان شباب شيرين المبالغ فيه مرآة تعكس قبحي، حين أتمدد بجانبها أكون مرتاحا، لكن شباب جلدها بجانب عروق ذراعي المجعدة كان يعزز إحساسي حين أفارقها بأني عجوز ووحيد، بت أبحث عن كل عذر لعدم رؤيتها ثانية وسيطر على إحساس زائد بالمرارة والقرف رغم متعتي. إبقاؤها بعيدة عن عالمي ودنياي كان أمراً محتوماً. رفضت أن تُدعى شيرين لسهرات أصدقائي ولم أعرفها على أحد من دائرتي لأفسح لنفسي مجالا بعيدا عن رائحتها التي باتت تنبعث من ثنايا الأثاث في شقتي.

قد يكون هذا ما جذبني لكارما في تلك الليلة، علامات السن حول فمها الممتلئ كانت تلاحق عدد سنين عمري بالتأكيد، متجهة

إلي بعيون صعبة الإدهاش ولا تراني، نظرت خلفي لأتابع التحام بصرها بالنادل، تشير إليه بيد كسولة وحاجبين مرفوعين أنها تريد الحساب، تلم سجائرها ورأسها يهتز على الإيقاع الملتهب بانسيابية إيقاعها الخاص، تهم بالخروج فأخرج ورائها مرتدياً معطفي، أحادثها، يبدو عليها عدم الفهم، بنظرة باردة وحركة ثقيلة تتركني، كانت عيناها آخر ما ابتعد عني مصدرة إلىّ شيئا ما. تركب عربتها وتُراضي السائس وتبتعد تاركة إياي أكثر وعيا بوَحدتي أُلملم أطراف معطفي الذي تبعثره الرياح.

ومع أنني أحببت كارما، والأوقع أن أقول أن كارما هي ربما الوحيدة التي أحببتها، لكننا لم ننم سويا. ها أنا أعترف أخيرا، يا قلب، أنا لم أعرف كارما على ذلك المستوي، لم أتحسسها، ولم أذقها، يا للسخرية الكلاسيكية، الدونجوان توقعه المرأة التي ترفض تسليمه نفسها. لم أظنني أبدا بتلك البساطة حتى عرفتها، فبينما كنت أنت يا قلب تكشف أخطائي وتطهرها، كانت كارما تكشف حماقاتي لتبصق عليها وتتركها لتتعفن بجانب الرصيف.

عفريتة سُكّر أعمى
اضغط لتفتح القلم
حبر سري مسكوب على بابك
يؤرخ علامات سرية
لمن مروا إليك
ستعرف تلك الطرقات
وتتعلق بها
لكنك ستظل لا تعرف فيها أحدا
الليالي الوردية هي الأجمل
والأكثر إزعاجا
١+١=٢

ونصف فارغ
لتفاحة شبه مأكولة
من قبل غريب
غليان ودوران بغسالة أحلامك المتهالكة
بشكل يبعث للحنين مراسيل عديدة
لكن الحنين
بسيجارته نصف المشتعلة ولا مبالاته
يحذر من أجواء غريبة
تنتزع الإغراء
وتبعث أملا
ينذر بأن عيونا
تمد خيوط السُكّر
ستحتل المدينة
وتأخذك بإغفاءة
فترىٰ ما لم تر
وتهدي الحياة
عيدانا طازجة
لم يطأها غيرك
ولم يمطر عليها
شيء ليس لك
وأنت بغض النظر
عن قصر نفسك وطول سنينك
ستنتزع الإغراء مدعوكا بالأمل
من عيونها الجميلة تأخذك إغفاءة
فتكتب ما لم تكتب

وتنسى مالا ينسى
وتحبو على أرض
لم يعلم شموسها غيرك
كل الأفلام
كل المحركات
وكل الساعات تدور معك
كل الأحباء سُكارى
وهذا فعل يعاقب عليه القانون
ملحوظة:
لا تنشغل بغير الطريق
ولا تعط من بيرتك شخصا آخر
كي لا يجري وراءك الشيطان
فتهرب في شوارع
مرصعة بالياقوت
والفضة
ومعتقة بمشاعر
إيمانك الأثير
أنك ستعرفها
وتحبها بشدة
وأنك ستتمنى الرحيل

خط الزمن

لماذا هو مهم جدا توقيت حدوث الحكاية؟ ما أهمية مكانها على خط الزمن وموقعها على الخريطة؟ هل ستختلف مشاعر غالي كثيرا لو كان أنقذ كارما من أمام بحيرة قارون في تسعينيات القرن الماضي عما لو كان أنقذها من نهر التايمز في القرن السابع عشر؟ هل سيدق قلبه أبطأ لو تغيرت طرز الملابس أو اختلفت نوعية الركوبة التي غرقت؟ هل سيتغير حجم الإثارة من التصاق ملابس الأنثى المبتلة بجسدها إن كان الماء مالحا لبحر أو عذبا لبحيرة؟

هل كانت القصة ستتحول كثيرا عن مسارها لو تلاقيا في بار حجري بقرية اسكتلندية بدلا من الأفتر أيت؟ أنا عن نفسي لا أعتقد أن مشهد تعري كارما ذاك الصباح بجوار غالي سيكتب أفضل لو حددنا موقع الجسر جغرافيا. لا أظن أن القارئ سيأبه إن كان كوبري أكتوبر أو كوبري الجامعة. أنا لا أتذكر متى ولدت ولا متى أحببت أول مرة، لكني أعرف أني ولدت، ومازلت أتذكر حبي الأول. لماذا يجب أن أتذكر في أي عام سجن قلب أو تاريخ الإفراج عنه؟ لماذا يجب أن أحدد عمره الرقمي؟ أعرف أن ذلك لن يقيس عمره الحقيقي أو يعبر عنه على أي حال. قد يكون في الثامنة والثلاثين

وقد يكون في الخمسين، لكن قلبه عاش مائتي عام على ثلاث مرات. لحظة، أرجوك لا تظن أني أنتصر للرواية الحديثة على حساب الكلاسيكية، فأنا لا أهتم لكليهما، ولا أهتم بالبناء ولا بالتوصيف، لا يشغلني رأي النقاد ولا رأي جنابك مع كامل احترامي. أنا الكاتبة المجهولة، لا تعبأ أن يذكرها تاريخ لا يكتب نفسه، أنا كاتبة في فجر التاريخ رفضت أن تنقش صورتها الشخصية على الحجر، لتترك في كهوف الصحراء رسوما لبحر أجمل منها، رسوما هاربة من صنعة الكليمات وتضليلها، أنا كاتبة ترفض أن يكتب اسمها في تاريخ خائن أو مُغْتَصَب؛ لا فارق، فكلاهما غير حر. أنا لا أرضخ لذوقكم ولا أرفضه بالضرورة، أنا فقط أستجيب لضعف ذاكرة شخصياتي وللأولويات، أنا كائن مستسلم لفنائه ولا أرجو الخلود متعلقة بذيل فكرة، لا أود أن يتم تحنيطي في متحف التاريخ، ذلك الظالم المظلوم.

ما يبكيني هي سطور كتبها أناس لن يعرفوا أن هناك من سيقرؤها، أسرق دفتر مذكرات صديق أو قريب واستمتع بأدب رائع، تاريخ اعترافات درامية مدهشة وفعالة، على النقيض من كل ما تجرعناه حفظا في دراستنا من أعوام وتواريخ لأحداث جُرّفت من معناها، وشوهت في محتواها حتى غدت قصصا باردة ومنزوعة من تشويق الحقيقة ووجعها، وبات تذكر العام الذي قامت فيه ثورة عرابي التي أسماها الفلول «هوجة» وأصر الشعب بوعيه على تخليدها «ثورة»، أهم كثيرا من التفكر في عبرة ما أهاج الناس ليساندوا عرابي، الزمن لم يغير قط من حقيقة قتل الإنسان للإنسان، الزمن فقط غيّر طريقة القتل وأدواته. على أي حال أنا لست المحقق الذي سيبحث في مُلابسات جريمة القتل، لن أرتدي قفازي وأتمرغ في الدم لأبحث عن دلائل مادية تشير للقاتل، أبدا، فأنا القريب المجهول الذي يحضر جنازتك ليبكي، لا لينبش آخر فضائح العائلة ولا ليستفسر

عن ملابسات الوفاة، وسيذكر عيوبك دون خجل ولا شماتة، فقط سيقف باحترام أمام الجثمان المهيب مهابة وقائع التاريخ. أقف أمام الحقيقة الوحيدة التي عرفتها ولم أختبرها بعد، أتشمم الموت وأحسد الروح على سلامة الوصول وأقرصها في ركبتها. نعم. أنا الشخص الذي تمنى أن يعيش في كل عصر ويسكن في كل جسد ليستكشف كل شيء، أتوق لمعرفة كل شيء فأسأم العالم وأكف عن الحياة لأكتب تخيلاتي عن الموت متنقلا بين جنازات الغرباء لقتل الوقت، أنا الذي يبكي في جنازات الآخرين موته الخاص. لماذا بدأت كل هذا الكلام؟ تذكرت، كنت أريد القول أني لم أتعمد إخفاء التواريخ أو الأماكن عنك، أنا فقط لا أهتم، وقلب لا يتذكر الأحداث متتابعة، وأوراقه غير مؤرخة، لكن هناك بعض التواريخ تفصح عن نفسها، تواريخ بعيدة وغير مفيدة أبدا، لكنها قد تعجبك لو كنت ممن أسميهم هواة «التخطيط الزمني»، هؤلاء الذي يربطون الحدث بنقطة على خط الزمن فيبدأون كلامهم: في يناير ٧٢، يوم ٢٤ كان ثلاثاء، لا يا ربي كان السبت، نعم السبت. أنت تعرف ما أتكلم عنه، أنا أجهل تماما ماذا أكلت على إفطار الأمس وأنت مازلت تستطعم أول رضعة تناولتها. لن أتحفك بالكم الذي ترضاه من الأرقام، لن يكون هناك أرقام أصلا، لكني سأحاول الحفاظ على الترتيب الزمني كما فهمته لشجرة قلب التي لم يبق منها غيري.

عندما قابل نجيب فيرينا لم ينبهر بها أبدا، بل نستطيع القول أن أمله قد خاب قليلا، فبعد رحلة بحث دامت لشهور، تمجلس بين والديه على الكراسي المذهبة لصالون العروسة متململا، كان والده راشد عدلي منير، ناظر المدرسة الثانوية وحفيد منير راعي أحد أعلام الكنيسة البروتستانتية الرواد في مدينة أسيوط الذي انبهر بالحضارة الأوروبية ونظامها المفقود حيث أتى، أضاء له التعليم مشهدا معتما

لساحة قريته المزدحمة بالرجال، كحقل مزروع بخيالات مآتة ثابتة تحمل مشاعل تنير المشهد وتستعد لإحراقه بعد لحظة. أما هنا، في فرنسا، فلم يكن كل شيء ممنوعا كما في قريته؛ يجلس هنا على مقهى به كراسي حديدية عالية، كباشا حقيقي يدخن سجائر ماكينة ويتحدث وجها لوجه مع فتاة، فتاة بيضاء وشفافة البشرة، كخوخة كريستالية تشع بريقا ورديا، تدعوه إلى بيتها لشرب القهوة، لا يخاف أهلها ولا تخافهم، تقدم له صاحبته حلوى تسميها الألف طبقة وبعض الجبن، في فرنسا يحبون الجبن جدا، كثيرا ما كان يردد منير بعد رجوعه لأسيوط، عندهم أنواع ياما، مش زي هنا. يشرب منير النبيذ الذي جربه أول مرة في باريس ولم يتوقف عن شربه حتى مات، يقال أنه على فراش الموت طلب كأس نبيذ، أمر الطبيب أهله أن ينفذوا أوامره فلا فائدة من تعذيب عجوز يوشك على الموت. أعطوه كأسا شربها وطلب الثانية ثم عاش لثلاث سنين أخرى. حملت منه فتاة المقهى الشفافة، لم يكن القرن الماضي قد بدأ بعد وكان هو طالبا في بعثة تكفيه نقودها بالكاد، لجأت صاحبة منير لأخيها القس فزوجهما ووفر لمنير عملا في محل صغير للنبيذ في المدينة القديمة ليكمل مصروفاته الشهرية، لكن الوضع كان مرهقا جدا للطالب اليافع. وتحت ضغوط الاستذكار، العمل وصراخ الطفل الوليد، قرر منير التخلي عن استكمال بعثته والعودة إلى مصر. رفض أخو العروس ذلك القرار تماما، وعرض على منير حلا آخر. وهكذا سافر الأخ ماتيو مع أخته ورضيعها إلى صعيد مصر ليقيما بالقرب من أسرة منير بمركز صدفا بأسيوط، تاركين الأخير يكمل دراسته وحيدا في فرنسا. يضحك منير ضحكات كبيرة حين يتذكر تلك الأيام، أجمل أيام، دُرت على حل شعري إيه، يضحك ويرتج جسده السمين من الضحك والسعال، كانت كلودين تضحك معه رغم أنها باتت تخاف عليه من

الضحك، تشعر أنه سيموت في وسط ضحكة. كانت رغم مظهرها الرقيق أشد من زوجها وأكثر اجتهادا، فمنير المحب للملذات والمزاجي، لا يُعتمد عليه لتسيير أمور الأسرة الكبيرة التي تحلم بها زوجته، منير لا يفعل إلا ما يريد، فكان على زوجته أن تلتزم بفعل ما يجب. بجانب بناء عائلتها ساعدت زوجة منير أخاها في إنشاء إرسالية بروتستانتية بمصر في أسيوط وكانت من أول أتباع الكنيسة الجديدة. بالطبع انضم إليها زوجها منير بعد عودته من البعثة وتعيينه أستاذا بالمدرسة الثانوية. كل أحد تخرج العائلة مهندمة إلى الكنيسة، منير وكلودين إلى جانبهم ستة من الأبناء ولدوا تباعا، يشبهون الأم في صفار الشعر وزرقة العيون، عدلي كان أكبرهم، تزوج من ابنة عمه روز وأنجبا راشد الذي تزوج بدوره ابنة عمه الأصغر ظريف، لينجبا نجيبا، جدي الذي ورث زرقة عيني جدته الفرنسية وجلد والديه الصعيدي المحروق، إلى جانب مذهبهما البروتستانتي الذي يضيق عليه اختيارات الزواج، لم يكن لنجيب قريبات في سن الزواج فكان لابد أن يبحث عن عروس من خارج حدود العائلة.

كان والدا نجيب مسرورين لوجود فيرينا، المتعلمة الموظفة. نحن نتكلم عن سبعينيات القرن الماضي، وقت بدأ فيه مجتمع الطبقة المتوسطة أخيرا في تقبل وظيفة الزوجة كميزة، نتيجة إلحاح الغلاء والتغيرات الاقتصادية ندرت عبارة: عايز مراتي تقعد في البيت.

أسرة نجيب، كباقي أسر الطبقة المتوسطة في مصر وقتها، تواصل كفاحها لمقاومة السقوط، أولى آليات هذا الكفاح هو الاحتفاء والمبالغة في تقدير أهمية عمل المرأة، ذاكرين أسبابا عديدة إلا راتبها الذي سيكون أساسيا في ميزانية البيت، علقت أم نجيب: أهو برضو اسمها تتسلى بدل قعدتها فاضية طول النهار وتتهوى حبة، قعدة

الست في البيت تخنق الراجل والست، يا ريتني كملت في التعليم زي المحروسة، ما كنت سليت الوظيفة أبدا.

يغطي نجيب ابتسامته بفنجان القهوة، يفكر في عدد المرات التي تشكو فيها أمه من جهود شغل البيت وقرفه، كلما خرجت عادت وهي تلعن مرمطة الشوارع وقرفها، الآن فقط تعتبر ست البيت فاضية، والبهدلة شم هواء، كانت فيرينا تنظر إليه وتبتسم، حولت عينيها فتأملها.

فيرينا ورثت بيتا ملكا في مدينة أسيوط من والدها، إيجاره كان كافيا لتجمع جهازا متكاملا لعروس، دولابها مملوء بعشرات القمصان الحريرية المطرزة والفساتين تنتظر ابن الحلال، اشترت بعضها مستوردا من شوارع وسط البلد بالقاهرة التي تربت فيها مع أمها في بيت الخال حتى أنهت تعليمها الجامعي، ثم عادت مع والدتها المتوفاة لتدفنها في مقابر العائلة وتستلم وظيفتها بديوان محافظة أسيوط، كانت كل ما يتمناه والدا نجيب في عروس له وكان الطريق ممهدا لزواجه منها، فهي لا تطالب بتعميد نجيب كأرثوذوكسي شرطا للزواج كما اشترط غيرها من الفتيات، وشقتها تحتاج فقط لبعض الدهان والتشطيب وترحب جاهزة بسكن العروسين. الولد له مستقبل ووظيفة مضمونة وأهله ناس مأصلين، البنت مش وحشة، عندها بيت ملك، متوظفة، عاقلة وتعرف ربنا، كان هذا ما يدور في فكر الأبوين وخال العروس في تلك العصرية، فوجد نجيب منهم كل الحماسة والتشجيع للتعجيل بالزفاف، بينما دارت في فكره هو أفكار مختلفة، يشرب الشربات الذي دار مع الزغاريد فور تحديد موعد الزواج، يراقب فيرينا، صليب ذهبي كبير يرقد على صدرها ولا يتدلى، لا تلعب به بين أصابعها كما رأى زميلاته في الجامعة يفعلن في وقت الخجل والتوتر، واثقة أم باردة؟ يُساءل نجيب نفسه، هل

يرضيه التواضع؟ لم تكن فيرينا قبيحة، في الحقيقة كان جسدها أكثر من مقبول ووجهها العادي لا عيب فيه، حتى أنفها الكبير بعض الشيء لم يكن منفرا، كألف وجه مريح وغير مميز قد تقابله ولا تعيره أي اهتمام، لكن نجيب لم يجدها مثيرة أو فاتنة، هو الذي ناضل للمحافظة على بتوليته وطهارة تاريخه، هو الذي لم يدخل دنيا من قبل يحلم أن يجدها أفتح وأحدث وأغنج مما يراه الآن، رجال عائلته يفضلون النساء البيضاوات، لم يكن ملبسها عتيق الطراز لكن نجيب لم يستطع أن يسمي لونه، كان معدوم اللون، لم يكن أخضر ولا أصفر ولا أحمر ولا أي لون يعرفه، وبدت له فيرينا كفستانها بلا طعم، حتى بعدما تمت خطبتهما القصيرة وكثرت لقاءاتهما، كان مستحيلا على نجيب أن يتخيل فيرينا في وضع جنسي أو بتعبير شبق، كان يغمض عينيه ويحاول تصور وجهها في لحظة غرام، إلا أن ذلك ببساطة كان غير ممكن. كانت فئران الشك تكاد تخرق بذلة زفاف نجيب الأنيقة ذلك اليوم وتجري بين المعازيم محدثة هرجا ومرجا لتفسد عليه تلاوة عهوده، يبعد عينيه عن فتاة شقراء بفستان أحمر تقف في الصفوف الأولى لينظر إلى فيرينا، لم يكن متأكدا أبدا إذا ما كان يملك الاستعداد أو الإرادة للاستمرار في تلك العلاقة إلى الأبد، لنهاية حياته أو حياتها، لكنه ردد عهوده كاملة مبتسما دون أن يتلجلج، فقط صوته كان يرتعش قليلا ولاحقا في الحفلة كان يسترق النظرات للفتاة ذات الرداء الأحمر وعانى من بعض المتاعب في معدته.

بعد أن أنجبا ابنهما الأول والأخير بسنتين وشهور اختفى نجيب، لم يعلم أحد السبب الحقيقي لاختفائه، لكنهم علموا أنه غياب اختياري من الورقة المكتوبة بخطه التي وجدتها فيرينا ملصوقة على زجاج النيش.

فيرينا الحلم ٣

في ذلك الحلم كانت القديسة تبكي فقط، تبكي في كل الزوايا، تبكي كل ما كان وكل ما سيكون، تبكي جميع آلام البشر، تغرق دموع الشفقة وجدان غالي ويتلوى من الألم حتى يصحو. في الأيام التي يراها في حلم تبكي يصبح رقيقا وحساسا، يشتري بضاعة لا يحتاجها في الإشارات، ويترك بقشيشا مفاجئا للبواب، ولو كان في حياته امرأة، يكون لطيفا معها جدا أو ينهي علاقته بها. في حلم البكاء كان يظهر له أيضا مذيع تلفزيوني حكومي رياضي وغريب الأطوار، يظهر وجهه لغالي في الحلم شامتا، لائما ولئيما ليزيد من إزعاج الكابوس، يتذكر غالي أن حلم البكاء بدأ مع زواج أبيه من أم قلب، خلعت فيرينا الأم حزنها لترميه في أحلام غالي، أو ربما هو من سرق هذا الحزن ليعوض رغبة لن تلبى. على أي حال، استمر الحلم لسنوات ولم يتوقف إلا بعد هجرته لسويسرا، باع كل ما يملك هنا وغادر ليجاور رفات قديسته زائرة الأحلام.

لم يرحل نجيب لأنه تأكد من شكوك ما قبل الزواج، لا؛ لم يهرب نجيب بسبب عدم رضاه عن جمال زوجته أو لعدم اكتفائه في حياته الجنسية معها، فقد أثبتت فيرينا في شهر العسل أنها استوعبت نصيحة أمها جيدا، أصبحت فيرينا لقلب خادمة وراقصة وأم، من فتاة جادة وعادية الوجه في النهار إلى شمس تلهبه ليلا بإشراقات تحمله إلى أفاق لم يتخيلها، فكان يبحر بطاقتها النجمة ويعلو، ثم يهبط على الأرض ويمسه جني، تبدلت شكوك نجيب بشكوك أخرى؛ قبل الزواج كانت الشكوك تراوده حول شرفه، أما الآن فكل شكوكه تشير لشرف فيرينا، هو متأكد أنها كانت عذراء حين تزوجها، لكن ظنونه ومُتعته كانتا متصلتين كالأواني المستطرقة وتزيدان بنفس

المقدار، كلما زادت متعته مع فيرينا كلما نمت تلك الشكوك التي أحاطته وحاصرته حتى فصلته عن محيطه وانفردت بعقله تماما، أهمل في مظهره وتخلف عن عمله، وبعد أن عرف بالاجتهاد وشهد له بالألمعية في الجامعة حيث يعمل، وبعد أن توقع أساتذته أن ينهي الماجستير في زمن قياسي، صار معروفا بدراجته العتيقة التي لا يخجل من ركنها أمام بوابة المدرج الدراسي وذقنه النامية، ولولا اعتناء فيرينا بملابسه لأصبح أقرب لهيئة الشحاذين. أهمل حتى ابنه الذي أسماه قلب ليصبح قلب نجيب، قلب أبيه الذي أفرحه بعيونه الزرقاء وأنفه الصغير المميز للعائلة. أمسك نجيب الوليد بعد تنظيفه، مرتاحا وممتنا أنه ابنه، لشهور جنته أفكار سوداء حول هذا الحمل، لكنه لم يستطع إلا أن يصدق عيون ذلك الطفل الغالي، نسميه فيكتور، قالت فيرينا، اعترض نجيب: لا، أسميه قلب. ولأول مرة منذ شهور ترى فيرينا في عيون رجلها فرحة حقيقية بها ولها، كانت أمها على حق، العيال بيغيروا الرجال.

هل كان بسلوكيات فيرينا ما يستدعي الريبة؟ هل كانت تتعمد أن تثير غيرة زوجها لجلب الاهتمام مثلا؟ الشواهد كلها تقترح أن لا، أبدا، فقد كان روتين يومها واضحا لا يتغير إلا فيما ندر. لتنجح فيرينا في دوريها كربة منزل وامرأة عاملة كان من الضروري وضع نظام مرتب ودقيق لكل مهامها الأسرية والشخصية، كل مشوار مخطط له قبلها بأيام ومعلن، استلام التموين أو طبيب النساء، حتى بعدما اختفى الزوج من الصورة وحتى بعد انتقالها للعيش مع العم صبري بعدها بسنين، ظل برنامج يومها شبه ثابت لا يتغير، تستيقظ باكرا جدا، تخرج لعملها بديوان المحافظة القريب كما كانت قبل الزواج، لا تتأخر أبدا عن مواعيدها وتهتم بزوجها وببيتها، إلا أن تحولها في السرير إلى امرأة متحررة ومتقدة، كان يقود نجيب إلى الجنون، فمن أين لها بكل تلك المعرفة؟ أين تعلمت كل هذا؟ كيف لا ترفض أي

شيء؟ كيف لامرأة محترمة أن تدع زوجها يفعل ذلك؟ لم يجد نجيب لتساؤلاته إجابات حتى بعدما راقبها وأعد لها الكمائن. فشل في معرفة سر فيرينا، وعندما استسلم نجيب ولم تستسلم شكوكه، وكرجل علم فشل في إثبات نظريته اعترف بفشله، تبخر، رحل.

وهكذا، كبر قلب بلا أب، طفل وحيد يشعر بالمسؤولية تجاه وحدة والدته وبالإجلال لذكرى والده الرحال، فقد أسهبت فيرينا في تأليف الحكايات للطفل اليتيم عن أب عالم مهووس، يسافر بين الأدغال والغابات ليكتشف نباتات جديدة ويحارب في سبيل ذلك قبائل ويصارع أخطارا ووحوشا. قبل النوم كل ليلة، تأخذ فيرينا قلب بين ذراعيها وتحكي له أخبار الأب الغائب، كل أخباره معارك وانتصارات، أب يغلب الأسود ويأسر الأفيال للحفاظ على شجرة وليدة، سيرة أسطورية للأب تتلوها الأم بصوت حزين، صوت زوجة رجل أعظم من مشاعر زوجته ومن وحدتها، رجل لم يتحمل أن يعيش كباقي الناس وأراد شيئا متفردا فرحل. رحيل نجيب لم يكن مفاجأة لفيرينا فقد شعرت به يبتعد عنها يوما بعد يوم، لكنها ظلت تذكر ذلك اليوم. أبقاها نجيب في الفراش في الصباح حتى تأخرت ساعة على الديوان، أول مرة يناما معا في الصباح، وأول مرة يكون رقيقا، تخلى عن عنفه المعتاد وتبدل عاشقا لطيفا، وبدلا من الزمجرة المعتادة، الضربات اللاسعة والكلام الفاحش، كان صامتا، حنونا وهادئا. خرجت فيرينا إلى العمل يومها وعلى وجهها بسمة، أضاعت الوقت في البحث عن منديلها الأحمر، ربطته حول عنقها أمام المرآة شاعرة بالثقة بنفسها لأول مرة منذ سنين، تنظر لنفسها وترى زوجة محبوبة وأما محظوظة. ظنت فيرينا ذلك الصباح وهي تتملص من بين ذراعي زوجها أنها ونجيب قد تخطيا مرحلة ما في علاقتهما، وأنهما يتقدمان نحو مرحلة أعمق وأقرب، وكانت محقة تماما في الجزء الأول

من الفكرة، ومخطأة جدا في الجزء الثاني، فتلك بلا ريب كانت نهاية للمرحلة الوحيدة في علاقتهما، المرحلة التي لم يتقلا منها أبدا، ترك لها نجيب رسالة حيادية مكتوبة بخط اليد، استعرض في أغلبها ترتيبات عملية تتعلق بمعاشها وقلب. لم يذكر أسبابا لرحيله ولم تحتاج فيرينا إلى تفسير، فقد زرع فيها والداها رحمهما الله يقينا عميقا بقبحها، آخر كلمات والدتها كانت دعاء تتمنى فيه من الله أن يجملها في عيون أي رجل، أي رجل. تسأل انعكاسها في المرآة يوم خطبها نجيب، الذي كان بعيونه الزرقاء ووسامته أفضل من أي رجل تخيلته لنفسها، هي التي تعتبر نفسها قبيحة تلوم نفسها لأنها ظنت أن بيتها الملك وراتبها ومحاولتها إسعاد زوجها في السرير لدرجة امتهان النفس كافية لإنجاح زواجها، فيرينا حزينة الآن لأنها تعلم أن كل ما بذلته لم يكن كافيا.

حين جلست على كرسي سفرتها ممسكة بخطاب نجيب في تلك الظهيرة كانت مصدومة وخائبة الرجاء، لكنها لم تكن غاضبة أبدا ولا حاقدة على نجيب، على العكس، كانت تتعاطف معه، تتعاطف مع هذا الرجل الذي اضطر إلى هجران ولده الحبيب وبلاده للهروب من قبح زوجته. تضاءلت فيرينا كثيرا على الكرسي تحاكم نفسها وتصارعها، تضيء الشمس منها جانب وتحرك نسمة لطيفة الورقة في يدها، يعلو صدرها ويهبط بعنف لا يتناسب مع ذهب العصرية المتناثر بروقان حولها، كادت تتلاشى في معركتها لولا بكاء قلب الذي جاء يسعى خالطا في وجهه الضحك بالدموع. أخذت منه الضحكة لتمزجها بدموعها، وضعت الرسالة على الطاولة حاملة قلب بين ذراعيها. من يومها لم يتغير في حياتهما أي شيء تقريبا غير تحول جَدي نجيب من شخص حاضر وغائب إلى سيرة ذاتية مزيفة على يد الأم التي بدأت في شرب النبيذ بشكل يومي لتسكن وجع لومها لنفسها، مما غذي خيالها لتأليف المزيد من سيرة الأب الغائب.

كتيبة الشهداء

كالمكوك تنقل قلب بين ألمانيا، سويسرا، إيطاليا وفرنسا ليجمع بقايا قصة الكتيبة الطيبية، كان يفكر في أمه في كل يوم في تلك الرحلة، كانت تريد تسميته فيكتور، فيكتور حبيب فيرينا. هل كانت أمه تعرف؟ أسماها والدها تيمنا بالقديسة المصرية التي ولدت في جراجوس طيبة القديمة في أواخر القرن الثالث الميلادي دون أن يعرف قصتها، فقد جاء اسمها مع المستعمر والمستشرق. يظنونه اسما أجنبيا إلا أنه يعني البذرة الطيبة بالقبطية. سافرت فيرينا الصعيدية المسيحية مع عمها موريس عبر البحر إلى أوروبا، كان موريس قائد الكتيبة الملحقة بجيش الرومان الوثنيين الذين لم يكونوا يأبهون بعد للدين الجديد الذي تبناه المصريون.

تقلد دقلديانوس الحكم في الأرض البعيدة ورفض موريس وجنوده الصعايدة الأشداء له أمرا في غربتهم، يقولون أُمروا بالتبخير للحاكم الروماني الإله أو بقتل مدنيين عزل ومسيحيين، روايات مختلفة لكن رد الفعل واحد في كل النسخ. يأمر ماكسيموس بإرهاب الكتيبة الطيبية وقتلهم جميعا إن لم ينفذوا. بعض الوثائق تؤكد أن عدد رجال الكتيبة كان ٦٦٠ رجلا، روايات أخرى تقول أن الرقم

هو ٦٦٠٠، وهناك من يقدر عددهم ب٣٠٠ رجل لا غير. أيا كان عددهم، تقول الحكاية أنهم قتلوا جميعا دون أن يدافعوا عن أنفسهم وتركوا لينزفوا وسط الثلوج، ليدفنهم السكان المحليون المقدرون لعمق تضحية ونبل أفعال الرجال المقتولين، حتى نصبوهم قديسين وبنوا لهم الكنائس والأضرحة، واختصوا موريس القائد الشجاع وفيرينا، التي هربت إلى الجبال وعاشت وسط السكان وداوتهم. تقول جونفيف أن فيرينا هي من علمت السويسريين النظافة والتمريض. صعيدية تعلم السويسريين النظافة؟ يا للزمن العجيب! مئات من الكنائس تملأ أوروبا تكرمة لأفعال فتاة بسيطة الأصل وريفية مثلي تماما. يشعرني هذا بالثقة وأنا أواجه لسعات برد غير متوقعة، الجو متقلب في سويسرا، أنا هنا منذ أسبوعين ولم أقابل غالي بعد، لكني لست نادمة على المجيء أبدا، لقد أحببت هذا البلد كما اكتشفت حبي لبلادي. عرفت قصة الكتيبة الطيبية، أسرتني وصرت أحكيها لكل من أقابله بعد رجوعي، الآن كلما قابلت مصريا لا يعرف خبرا عن الكتيبة الطيبية تصيبني دهشة.

آه يا فيرينا، لو علمت في ذلك اليوم البارد وأنت تتحركين نحو النهر لتبحري إلى المجهول، مستودعة أرضا ـ لن تريها ـ عند الله باكية عليها، أن تلك الأرض سوف تنكرك وتلفظ ذكراك، وأن أراضا أخرى، بيضاء وبعيدة بعد مصب النهر، وبعد البحر، ستسمى فيها بيوت باسمك يذكر فيها اسم الله، ويلون صليب بحمرة دماء من أبحروا معك ولقوا مصيرا هربتي منه، ليبقى منك صليب أحمر، يظل رمزا لإغاثة المصاب والمفجوع. هل كنت تتخلين عن مبدأك لو نقض الخلود عهده معك؟ لو نسيك أحفاد لم تنجبيهم بزمن مختل؛ أتحزنين يا جميلتي فيرينا العزيزة أم تبكين؟ أم أنك أرحب من كتب التاريخ

وأوعى؟ هل تحبين كالطبيعة كل أولادك سواء؟ هل أنت مثلي لا تهتمين بارتجاع صدى اسمك في المستقبل ولا تتزمتين كثيرا في مسألة حقوق الملكية الفكرية؟ هل كفرتي بالتاريخ والسمعة والخلود؟ هل تؤمنين كقلب أن الأفكار تبذر على الأرض بموعد وعلامات وأن ليس لأحد فضل على أفكاره؟ فقط أدمغة بنت حلال تجرؤ وتترجم الوحي الرباني قولا مكتوبا ليتناقله الناس، وكلما كانت الفكرة جديدة ومستقبلية، زاد ارتفاع احتمالية أن يعاقب مدونها بالرجم أو بالحرق لا فارق، في أحسن تقدير قد يعزل في كهف مثلما انعزلت. لكن العظة تبقى مدهشة في مثل قديم وفي سيرة موروثة، وما السيرة إلا رواية؟ وروايتك يا سيدتي من أحسن السير، لكن الفضول ينتابني، أضغط جفوني وأحاول رسم صورة لمشاعرك البشرية تحت ثوب النبل ونكران الذات، أحب أن أتعرف على تلك الذات التي تنكرينها، الذات التي حزنت على مقتل العم والصديق، ذات الخطيبة التي دارت تلتقط رفات خطيبها المقتول، الغريبة في الأرض واللغة والمناخ، يا شقيقة إيزيس كيف عشت في جبال الثلج تلك؟ أنت وليدة حمى الشمس كيف استسغت سطوع الثلج؟ كيف تفاهمت مع الناس لتداويهم وتعلميهم التطهر والطهارة؟ بأي لغة وبأي ذكاء وبأي جهد؟

الأم القديسة

أغلبنا يرتاح لتلك الفكرة الرائعة، كل أمهاتنا شريفات وقديسات، نغضب للغاية من أي فكرة توحي بغير ذلك، حتى علاقتها مع الأب نفسه تصبح محرمة على فكر الأبناء؛ فبمجرد أن يجد الطفل إجابة السؤال الأزلي: أنا جيت إزاي يا ماما؟ ويفهم عملية التكاثر البشري، يتجنب تماما التفكير في كونه نتاج علاقة مماثلة لما يشاهده

على المشفرات مراهقا، فما بالك أن يتخيل علاقة لأمه خارج النطاق الرسمي.

أنا لست واحدة من هؤلاء، أنا لا أنكر على الأمهات بشريتهن، لذا تجدني أتساءل هل كانت جدتي حقا تنويعة لقصة اسمها؟ هل عاشت راهبة بعد اختفاء زوجها؟ هل عاشت لخدمة ابنها حقا وأفنت شبابها لتربيته كما أفنت فيرينا عمرها في خدمة بشر لا تعرفهم؟ أم أن هناك أسرارا للمرأة فيرينا لم يعرف كيف يتخيلها قلب الابن؟ بعد زواجها من العم صبري لاحظت فيرينا أن غالي الذي تعود أن يرجع إلى بيت أبيه مرة كل أسبوع أو اثنين، قد تباعدت زياراته وقصرت، كان الفتى يتعمد تجاهل زوجة أبيه، تتقرب إليه فيرينا وتغمره بالاهتمام، لكنه يظل يتجمد كلما مرت قربه ولا ينظر إليها في عينيها أبدا، لم تعرف ماذا تفعل ليحبها ابن صبري، كان مهذبا معها دائما بعكس عاداته لكنه يتجنبها، معاملته ميري، البيت في وجوده صامت وهي تفتقد طقوس العائلة الصاخبة. نادته ذلك الصباح ليشرب معها الشاي، يقف على باب المطبخ، عندما يتحدث إليها يختفي غالي الغلباوي الشقي ويتحول إلى جماد يردد: أفندم يا طنط. تقترب منه وترفع وجهه لينظر إليها، مش قلنا تقول لي يا ماما؟ تجمد المسكين ولم يعرف كيف يتصرف، لم تكن فيرينا مليحة الوجه لكنها كانت متواصلة مع جسدها وواعية به، في تحركاتها بساطة الرقي الأنثوي، وفي لفتاتها طاقة مكبوتة تحت الجلد، إشعاع دفئها وحرارتها يصلان للأجساد. تقول كارما أن أجسامنا تولد متعلمة خبرات الحيوات السابقة أو تولد جاهلة. كان غالي يتعرق عرقا ذا رائحة فريدة، رائحة لم يشمها في نفسه إلا مع كارما، ومع جدتي، التي كانت تقف قريبة منه، يخاف أن تقرأ الرائحة النفاذة والفاضحة، رائحة تشي برغبته واستعداده الكامل للعطاء والحركة، كما تشي عن مجهود هائل يبذله لكبح تلك الحركة. تصدم الرائحة فيرينا فجأة وتميز فيها أمواج التوتر وتفسرها،

يزيح يدها عن وجهه بسرعة بدت لها عنفا وهرب إلى الصالة يلتقط أنفاسه المحبوسة. فيرينا في المطبخ وغالي في الصالة المظلمة؛ لا تنير الأنوار قبل تمام الغروب هربا من هجمات البعوض. تعد له الشاي، تراه في عمق حلق الباب يراقبها، تدير له ظهرها الذي يقشعر في ردة فعل بدائية، ترتب الكؤوس وتتحرك كعادتها بالمقاس، تعرف أنها مراقبة بعيون معجبة ويمتعها الموقف. تتقدم ببطء إلى الصالة، تكاد لا تتبين منه غير لمعان في عيونه وشفتيه.

الغلباوي

لم أقابله بعد، ولو قابلته لن أحكي لكم عن المقابلة رغم أني لم أعد أظن أنه سيظهر، لكن الفضول يدفعني للتمني. غالي شخص غريب، يصفه أبي دائما بالغلباوي، الشخص الغلباوي هو من يجلب «الغُلب» أي الفقر والمتاعب، أما المبتلى بها فنسميه «الغلبان» الذي يناقض الغلباوي تماما؛ فبينما يخسر الغلبان بصمت وينهزم بشكل متواصل وطبيعي، فيرفع يديه برضا تام دون الإتيان بأية أفعال من شأنها تعكير صفو المعتدي أو إهدار طاقته، يملأ الغلباوي ـ رغم ضعف موقفه وقلة حيلته التي يتشارك فيهما مع الغلبان ـ الدنيا ضجيجا كما قال جيفارا، فلا يتهنا خصمه على غنيمة صافية بلا تبعات محمومة من المقاومة المستطاعة، عنف لفظي أو بدني لا فارق، فكلاهما موجع.

كان قلب غلبان تعجبه غلاباوية غالي، وغالي كان غلاباويا يتمنى أن يصبح غلبانا عندما يكبر كقلب. غالي الذي يُكن معزة خاصة للعاهرات، حين حلم، كانت تلومه على ذنوبه في الحلم قديسة، يحتلم بطهارتها ويصحو خجلا من نفسه كطفل بال في سريره، يمارس الجنس مع طوب الأرض ولما يقابل امرأة يحبها لا يمارس الجنس

معها، بينما أحب قلب وحلم بواحدة، لكنها كانت حبيبة صديقه غالي دونا عن كل النساء.

لا أعرف بالضبط ما الذي يمنع كارما وقلب من أن يكونا سويا اليوم، فغالي لم يعد عائقا، لا أعرف كيف انتهت حكايته مع كارما من الأساس. يقول قلب أن كارما رفضت الزواج من غالي بسبب انعدام ثقتها به، تقول جونفيف أن كارما لم ترد إنجاب الأطفال الذين أرادهم غالي. لكن في كل الحالات أقول أن ما فرقهما هو إحساس يقيني بالفشل، بمعنى آخر، لقد منع التشاؤم أبطال هذه القصة من كتابة تاريخهم الخاص، يقول قلب أنه لم يغضب لزواج أمه من أبي غالي، كان يشعر أنها حِمل ثقيل رفعه عنه العم صبري، المرأة كانت في طريقها للجنون المطلق ولم تتوازن إلا مع العم صبري. يضحك عاليا ويترحم على الرجل ويحكي.

كيف عرف قلب غالي؟

غالي الأكبر مني، كان يرافق أباه العم صبري مرغما لزيارتنا، على الرصيف أمام البنك المقابل لبيتنا في أسيوط علمني متململا ركوب العجل، لم يخن ثقتي يومها وأنا اعتليت الدراجة بشجاعة غريبة على الفتى الخجول ذي النظارات الكبيرة، كانت عيناي الزرقاوان لا تساعداني في القراءة، وكانت النظارة تعوقني عن الجري والقفز. لم أكن أيضا استمتع بكل هذا التنطيط، لكن ركوب العجل مختلف، يقولون أن المرء لا ينسى ركوب الدراجات، يجب أن أشتري عجلة، لقد نسيت هذا الشعور، أن تكون طائرا على دراجة. غالي كان رفيعا بزيادة، أطول مني بسنين قليلة لكنها تفرض على وجهي أن يرتفع إلى السماء حين أحادثه، كنت مبهورا به. ربما لم أكن مزعجا جدا بالنسبة له

لأنه بدأ في معاملتي كأخ صغير، يصطحبني لأكل الآيس كريم، يدافع عني ضد تنمر فتيان الشارع الشرسين، ويطلعني على مجلات أكبر من عمري، كان غالي نافذة على عالم غير موجود بالكتب. في البداية لم يكن التواصل بيننا جيدا، كنت صغيرا جدا وساذجا وكان غالي يسخر مني لدرجة الدموع، دموع مهانتي ودموع ضحكه، لكن يوم علمني ركوب الدراجة، نمى بيننا حبل اطمئنان كرابطة الدم. كنت أقلده في أشياء كثيرة، كمشيته، يمشي مرفوع الرأس ومفرود الظهر مقدما صدره بقدر من التشنج والبطء، كأنه يحذر العالم من بركان يغلي لكنه مكتوم، كان تقليدي له مضحكا، أمشي بنسب جسمي الطفولية بجانب المراهق المتمرد كإنسان آلي قصير. لم يكن بداخلي غضبه أو تهوره، أقصى إنجازاتي كان الطيران بالعجلة والحلم بإتقان الخمسماية. على أي حال، كان غالي يمشي قابضا كفيه، كأنما يضمهما متمسكا بكبرياء رجولته الوليدة، تبرز في رسغه عروق رأيتها رمزا للقوة، وتساءلت هل لأبي مثل تلك العروق البارزة. ظللت ساعات أتأمل ذراعي بحثا عن بذور تلك العروق. عندما كبرنا قليلا بدأت في الخوف منه، بات من غير المحتمل التغطية على أفعاله، خصوصا بعدما توطدت علاقتي بالعم صبري، وبعدما يئست أيضا من ظهور العروق في ذراعي، صغرت الدراجة مع كبر حجمي فصرت أتهرب من غالي وأعود لكتبي وأوراقي، ولم أقد دراجة من يومها. بعد شهور سافر إلى القاهرة لدخول الجامعة.

العم صبري، صديق أبي المخلص، كان يزورنا، يشرب القهوة مع أمي ويتحدثان، كان وجه أمي ومزاجها ينشرحان بعد زيارته، أحببته لأن أمي كانت تحبه، ولأنني وجدت فيه ظل الأب المفقود. أمي كانت تراقب كل أحاديثي معه. أفهم الآن ما كان يقلقها، كانت تخاف أن أسمع أو ألتقط معلومة عن هروب الأب، وقد كان لها كل الحق في

قلقها، ففي أول انفراد آمن بعمي صبري الذي حضر لزيارتنا بعد خروج أمي لإحضار تموين الشهر، ومع أول سؤال عن أبي كشف لي العم صبري حقيقة أن أبي لم يذهب في رحلة أبحاث كما أوهمتني ماما. لا يستغرب وجهي المذهول ويستكمل الحكي، بل اختفي لأسباب سياسية، هزائم حزبية وانكسارات وطنية، أبحر بي من خلال حكيه عن الحزب وعن مواقف أبي السياسية إلى بحار التاريخ والسياسة، إلى عوالم من المعرفة والمواقف التي بدت رجولية أكثر من عروق غالي، أحاديث من صنف افتقدته في أمسيات التطريز مع أمي، حكى لي أن اختفاء أبي ربما لا يكون صدفة، يرسم بطولات جديدة لأبي ولا ينظر في عيني ولا مرة. في نهاية حديثه، نظر إلى مادا يده وأخذ يدي وردد: أبوك كان راجل مناضل يا قلب، راجل، وانت لازم تعرف عنه دا، لأنك نسخة منه، راجل.

كنت صغيرا وعبيطا، كان كل كلامه عن الكرامة الوطنية وحكم التاريخ والانبطاح والإمبريالية، مجرد كلمات فخمة وغير مفهومة، لكنها كلمات لا يقولها الشخص وهو مطأطئ. خيل لي أن كلمات كالكفاح والنضال والحقوق والتاريخ، هي كلمات لابد أن ترفع رأسك لتنطقها، كلمات ذات هيبة تدفعك لفعل جسدي كرفع الرأس أو كالجري، بدا لي حين ذاك تصرفا نبيلا أن يجري الإنسان خلف كلمات أكبر من أن يفهمها، لم يرتحل أبي في فهمي وقتها إلا بتأثير من كلمات، هربا منها أو بحثا عنها ولا أعلم لما بدا ذلك جذابا ومواسيا.

كان متأثرا للغاية ومرتبكا لإدراكه أن كلماته تفوق فهمي، يحضنني بقوة حتى سمعت ضربات قلبه وبكى. أما أنا فقد كنت مبتسما ووجهي مغمور بنور حماس الحكايات وسحرها، لم أسكن في حضنه بل تململت وأردت أن يحكي المزيد عن أبي، وبدأت في طرح الأسئلة. لا لم يناضل ضد الإنجليز لم يكن هناك إنجليز،

لا لم يمت والدك في معركة وليس لدي فكرة عن سيفه المضيء، من أين أتيت بتلك الفكرة؟ تماسيح؟ وتحدث ثانية عن الحزب والمظاهرات. انقطع كلامنا عندما فتح الباب وشعرتُ ببرودة. لما رأت والدتي العم صبري تغير وجهها، وقفت تحتضن كيس التموين الدمور بشدة وكأنها تحتمي به. كانت تحدق فيه ولم تضع حملها على الطاولة حتى قام ببطء مطمئنا إياها بنظراته. تناول منها الكيس ووضعه على الطاولة، استدارت بوجه وجل نحو النيش وأخرجت فناجين الشاي المذهبة للضيف.

قررت ألا أحكي لأمي شيئا عما عرفته في ذلك اليوم، وتغيرت حياتي كما تغيرت علاقتي بها؛ لأول مرة صار عندي سر لا أحكيه لأمي، لم أعد أستمع لحكاياتها كما توقفت عن الارتماء في حضنها قبل النوم، واستمر ذلك السر يبعدني عن أمي، سر حقيقة أبي الذي تحول في خيالي بفضل تلفيقها من هاجر إلى مهجور، هاتفت عمي صبري يوما، أريد الذهاب إلى الحزب، لم أكن في الخامسة عشر حتى، لكنه كان سعيدا جدا لإحياء الذكرى الشابة لصديقه، فتواطأ معي لخداع أمي، التي لم يغضبني كذبها بقدر ما آلمتني محاولتها تأليف حكاية جديدة مضللة عن أبي، كأنما كرهتْ الصورة الأصلية فبدلتها، وبدأت أتساءل إذا ما كانت قادرة على تبديل أبي كما بدلت قصته. بدأت أنقم عليها دون وعي ودون فعل أيضا لكنها شعرت بالغضب المكتوم وصرت أمشي كما مشى غالي المراهق، قابضا على غضبي بيد متشنجة، أظن أن ما أغضبني من أمي أنها لم تعجب بأبي كما هو فحاولت صنع خيال مسخ لأب مختلف ترضاه. وكلما ابتعدتُ عنها اقتربتُ من شبح الأب الذي أسمعه في الحزب وألقاه في الكتب والتاريخ والمعارف. أتفادى أمي وأخرج للقاء ظل الأب الطاقة المتحمس صاحب الكبرياء والأفكار والموقف، أخرج للقاء الرجل

الذي أحببت أن أكونه. كنت كل يوم بعد المدرسة إما في الحزب ألعب لعبة النضال أو في البيت أكتب أو أقرأ عنها، وكانت أمي بعد عملها تشاهد التلفاز وحيدة وتسكر.

عرفت أن أبي شرب النبيذ وأحبه، لذلك لم ألُم أمي يوما على سكرها، فقد كان العادة الوحيدة التي حرصت عليها من رائحته. حتى الكنيسة، عرفت أنه كان يصلي فيها أسبوعيا فبدأت في تشجيع أمي على المداومة في الذهاب كل أحد. نخرج للكنيسة في الصباح، وفي الليل تصادق أمي زجاجات الخمر التي تنوعت وتغيرت بمرور الوقت، وأصارع أنا الكلمة المكتوبة وأنصّبها خير صديق ومنقذ.

الولادة

شعرت بشيء من الامتنان للضابط الشاب الذي سلمني بريدي، امتنان يشبه ذلك الذي يكنه الوليد للقابلة المخلصة. تجمدت للحظة أمام خطاباتي المخزنة على مدار سنوات. وبعد تربيتة على كتفي ابتسمت بدلا من الصرخة التي ترددت داخلي، حياتي أمامي مرتاحة على كفه كحياة أخرى موازية مرت، كحلم طويل لم أشاهده بالكامل، فاتت سنة وراء سنة، وها أنا أقف أمام بوابة عرض ثان لكل ما افتقدته، أو ما ظننت أني فقدته. كانت تلك الأظرف المتربة المكسرة جزءا ثمينا لم أعشه من حياتي لكنه انتظرني وفيا وحبيسا مثلي لأحرره ونرحل معا إلى المستقبل.

أمسكت مكاتيبكم المفتوحة والمكومة في يد الضابط بذهول من يمسك بيده خمسة عشر عاما، أو كمن يمسك بعشر سنين، لا، لا، هم فقط خمس أو سبع. رأسي ثقيل وذاكرتي ملساء لم يعلق بها شيء. أنظر في عيني الضابط كمن يحتاج لدعم ما، مساندة ما من شخص

يدرك جلال الموقف. تنخفض كفي التي تحمل الرسائل كأني أزنها، ثقيلة كنيزك، أحاول أن أحدد عمق الزمن الذي راح، طول ما عشته مقطوعا عن الخارج، مقطوعا حتى عن الشمس. أتذكر أول مرة يأخذونني من الزنزانة إلى النهار، كانت ساقاي ترتعشان بعنف بينما أحاول مجاراة خطوات الحارس، كنت أسقط فيسحلونني حتى أتمكن من الوقوف، كنت بردان وضامر العضلات، اهترأ جلدي في مناطق وتصلب في مناطق والتهب في أخرى. كنت أهرول بجوار الحارس في حالة مزرية، لكنني ابتهجت وتحمست لرؤية الشمس، نافذ الصبر أتشوق إلى ذلك الدفء على جلدي، يخترقني ويحييني من الداخل.

أكتوبر ٢٠٠٤، هكذا قرأتُ على جريدة حارس ثرثار أوقفني حراسي بجانبه لثوان. جرجروني لباحة السجن وأنا لم أكن أسألهم لماذا أخرجوني اليوم؛ كنت فرحا جدا لا أريد أن أفسد اليوم بالأسئلة والتشككات، كان جسدي يتحرك فيرتاح الذهن الذائبة مفاصله من الإجهاد. وأخيرا، خرجت إلى النور ورفعت وجهي ليغمرني الدفء، لكن النور اختفى والشمس لم تعد في السماء مكانها، كان هناك ثقب أسود كبير يبتلعها. انتابتني حالة هستيرية ولم يستطيعوا إسكاتي، يتكلمون عن كسوف الشمس ويحذرني صوت من النظر إلى الشمس حتى لا أفقد بصري، ويشتمونني ويشكرون كرم الحاكم الذي لا أستحقه؛ أمر أن يخرج كل السجناء لرؤية كسوف الشمس الرائع، لكنني حيوان لا أقدر جمال الطبيعة. في تلك اللحظة لم أعد قادرا على تخطي خيبة الأمل، فصرخت آخر صرخة، صرخة مرعبة وكبيرة، صرخة إنسان أقلع عن الرجاء وعن الأمنيات، لكنه تعلق لحظة بأمل مقطوع، فانفجر بخيبة سنينه وتحول لصرخة. كنت أضرب رأسي وألعن جدود الشمس نادبا حظي حين جرجروني إلى زنزانتي ثانية، حصلت على حقنة مخدرة قد يقتتل السجناء عليها لسنين. نعم، وجدت بعض الحظ في ذاك النهار المظلم.

يمر كل هذا في ذهني وأنا أنظر في عيني الضابط الشاب، لم أتوقع منه أن يفهم لكني كنت منفعلا جدا، ولم يكن هناك سواه لأتواصل معه. أنظر إليه وفي عقلي تدور كل تلك الأفكار. الضابط الشاب الفخور كان يطأطئ خجلا أمامي مادا يديه بالخطابات بالرغم من تعبيراتي المتواطئة الراضية. بادلته الابتسامة فربت على كتفي بحنان للمرة الثانية!

ـ دائما ما راقني ذاك المزيج الفريد من المتناقضات التي قد تكتشفها في رجل شرطة؛ يده المربتة على كتفي ومشاعره، التي يشاركني إياها بتواضع متفاخر كانت ـ بالرغم من حرصي على مقاومة الشعور ـ طريفة للغاية وتدفعني للضحك أكثر مما تدفعني للابتسام.

لم أكره الشاب، لا تفهمني خطأ، لقد أحببته، نعم، بتعبيره المقدِر لثقل حركاتي وأصواتي اللاإرادية، يفسح لي الطريق كما يفعل أحدهم لمعوق، بكرم قد يكون دافعه الشفقة أو بعض الاحترام، وربما تقديرا لتعايشي مع سوء حظي العشوائي، كلها احتمالات أكرهها إلا أنها تظل لطفا منه.

أخذت خطاباتي وخرجت ومازال ذلك الإحساس يثاقل علي حتى الآن. يتراءى لي أن كل من أعرفهم يخلصون لي فقط لأنهم يظنون أني قد تحملت عنهم الكثير، الجميع يفكر ماذا لو كانوا مكاني، ويزيد تقديرهم، يأتيني شباب لا أعرفهم، يعاملونني كشيخ عجوز، يغفرون نزقي ولعناتي بسماحة تدهشني، أنا في الأربعين وقد أبدوا في أواخر الخمسين صحيح، لكني مازلت أستعجب اهتمامهم رغم استمرائي الرعاية والتدليل ونفسي العجوز، شباب في عمري حين بدأت الذهاب للحزب وأكبر، يجالسونني ويقضون احتياجاتي، أتسلى كثيراً معهم وأحب الاستماع إليهم واسترجاع الكثير من التفاصيل على ضوء صبرهم الدافئ، يتأملونني ويؤكدون هراء

شيخوختي ويضفون عليه طعماً نبيلاً، يلمحون أولى خفقات وحدتي، فينسحبون واحداً تلو الآخر. كانت تلك أعلى لحظات استمتاعي بالتأكيد، أجلس إلى مكتبي متهيئا لاصطياد آخرهم قبل أن يغلق الباب راجياً علبة بيرة. أتذوق بيرتي وأعلم أني سأتعثر بهم نائمين وأنا في طريقي إلى الحمام صباحاً. لكن في كل مرة، حين أخلفهم وحيدا في غرفتي، كانت رائحة الشفقة وفرحة إنقاذ الذات تتبقى أثرا لهم. كنت قديسهم ولكني لم أكن واحدا منهم. معلق بينهم في انتظار شخص ما، يأتي ويتعرف عليَّ، يكتشفني وربما نصبح أصدقاء بعيداً عن الحبكة المرجوة لشخصيتي المزعومة، والتي إن تنصلت منها، أتنصل من ماضيّ وحاضري لصالح مستقبل لا يتعهد به أحد، سجن آخر.

حين خرجت من السجن الأول كنتُ فرحاً برسائلي جداً، بأصدقائي الذين ظننتهم سُرقوا مني حين دخلت السجن لأول مرة، كان الوقت طويلا، والوحدة لا غنى عنها. تأملت حياتي السابقة، أمي، الحزب، أبي، الكتابة، الكنيسة، كارما ثم الاعتقال. الذي لا يعرفه الكثيرون أنني لم أسجن لنشاط حزبي أو لرأي سياسي، لا يود الناس التصديق أني لم أكن أتوقع السجن ولا أسعى إليه. قيل لي أن شيخا خليجيا دفع مبلغا معتبرا لإبقائي محجوزا، اتهموني بالتبشير ومحاولة هدم النظام المجتمعي وتهديد الأمن العام لنشري بحثا مملا عن الكتيبة الطيبية، ملحمة مسيحية قبطية نعم، لكنها مصرية بالأساس. لكن لسوء حظي، زارت القديسة فيرينا الأمير الخليجي المتعصب في المنام لتُسرّ إليه بأن كتابي سيكون السبب في معرفة شعبه لنور المسيح، فصحا من نومه ـ الأمير لا المسيح ـ رفع سماعة الهاتف في بلده لأدخل أنا السجن في بلدي.

تتبدى حياتي كمسار تلفريك، محطات من اليقظة بينها مسافات تائهة، تعبرها دون أن تلامس قدماك الأرض التي لم تعد ثابتة تحتك،

تُعتبر فاعلاً وأنت مفعول به، تتوالد في ذهني صور عديدة غير مرضية وكئيبة، تتجلى كلها بلون الشمس، ناصعة ومنيرة لدرجة الوجع، ذكريات ترغمني على الإغماض.

في السجن كثيرا ما لعنت الظلام كما لعنت ولعي بعلم النفس، كنت أسلي الوقت بتحليل أفعالي وتخريب حيلي الدفاعية متفننا في تعرية نفسي بقسوة ماسوشية، كنت ماهرا في القضاء على كل أمل متسلل في هيئة دينية أو وطنية، لم أكن أؤمن أن معجزة ربانية ستخرجني مما أنا فيه، فأنا لم أدفع ثمن مواقف تشددت فيها، أفكر وكأنني أزهد أن تنعم نفسي بالسلام ما دام مصطنعا، وتلك كانت بدايات الجنون.

أعترف بأنني قد كفرت، ولعنت الواقع والدنيا، أنا قلب نجيب المخلوق البائس المسن وبطلكم القومي، لقد عَلقت في دوائر، لم تُخرجني منها إلا رؤية وجوهكم السعيدة، ولكني خرجت من المتاهة إلى لا شيء، إلى فراغ، إلى مساحة لا أرى فيها شيئا بالتحديد. ما أنا إلا رجل متعب القلب والنظر؛ ربما لكم مطلق الحق في تقديسي لعدم تحقيقي أي شيء، لكنكم لن تستطيعوا أبدا أن تجعلوني آخذ نفسي على محمل الجد.

لسنوات، تعفنت وحيداً داخل السجن، لكن وحدتي لم توجعني إلا عندما خرجت لكم ثانية وأصبحت وحيدا حقا، في السجن كان هناك أمل في تقارب مستقبلي يكافح الوحدة. أما الآن، ماذا بعد؟ أنا وسطكم بالفعل ماذا تقترحون؟ لما أظل أشعر بالوحدة؟ لما يتراكم على مللي التراب؟ نعم جاوبوني، لما أنا مغمور بالتراب؟ سأجاوبكم: لأن جلستي على الرف الأرقى من إنسانيتكم تعرضني للغبار كما تكرس وحدتي لتضفي عليها لمحة أبدية مقدسة تعجبكم، يا لفرحتي!

لا أود الإدعاء أنني لست بحال أفضل مما كنت في السجن، أبدا،

بالتأكيد كل الأمور تحولت للأحسن، أستطيع الآن مثلا أن أترككم حالا لأخذ حمامي، حمام نظيف وقابل للإغلاق، لا أشاركه المئات وأستعمله وقتما أحب، حلم جميل لأي مسجون. أستطيع أيضا الخروج إلى الشارع إذا أردت، نادرا ما أستخدم هذا الحق الآن، إلا أنني سعيد جدا بامتلاكه.

المضحك أني بت لا أنسجم إلا في غرفتي القديمة تلك التي كنت أكرهها، حاجزا أغلب الضوء بالخارج، مفضلا ظلمة تذكرني بأمان الزنزانة حيث وجدني الجنون.

في شبابي كنت أكتب في الأماكن العامة نهارا، حسب مزاجي يومها أختار موقعا لجلستي وأدون. حين تستعصي عليّ فكرة ما، أنظر لعين الشمس وهُبا/ فرقعة أصابع وسريعا ما أجد التعبير، وبناء عليه قضيت السنين في السجن ألعن ظلمته.

أتأمل كيف شوه الظلام أفكارا عظيمة كُتبت فيه، فحولها إلى خربشات أجد أنا نفسي صعوبة في قراءتها، أمسك بالورق وأدقق النظر فتتضح لي جمل هذيانية، أفكار غير متصلة وعبارات مكسورة، أرمي الأوراق على أقرب كومة على الأرض.

لكم كرهت الظلام في شبابي، لكن ليس بعد الآن، فبعدما خرجت من باب المعتقل ثانية للنور ورأيت ما يخفيه الظلام، وما تمنحه العزلة، بت أحن إلى هذا الظلام الآمن، هذا الظلام البريء، كرحم أم أو تابوت، لا فرق في الواقع،

حياتي تلفريك
تلفريك حياتي
بين جبلين معلق
المنظر أجمل مما يحتمل قلبي

والرفقة كانت حنونة
ومنيعة كما الموت في أوقات اليأس الجبانة
لما تعطل التلفريك في تلك اللحظة؟
أكان الرب يرسل إلي علامة
بأني لن أكون يوماً
فردا في القطيع
والحاجز المنيع الشفاف
بيني وبيني
الحاجز المقدس
لو كاد يتلاشى
لو كان يتلاشى
لساعدني الرب
ولكنها الرسالة منذ القِدم
من أذن لأذن رحلة خطرة التأويل
محاولة عزل التفاحة المعطوبة
المختمرة بداء القدم
علق التلفريك
فعلمت أني غريب
كيوسف
وعلمت أني ضال.

أذكر جيدا متى كتبت هذا ولماذا، فبعدها بساعات قررت العدول عن قراري بالرهبنة، قررت أني لا أريد لأني لا أستحق. ومع ذلك، ورغم تحرري تماما من شبح الفكرة في ذاك اليوم، إلا أنني استمررت في العيش كراهب، وكأنني أعاقب نفسي على عدم استطاعتي أن

أكون راهبا حقيقيا، أعاقب نفسي على أخطائي قبل أن تعاقبني السماء على إحساسي حين تعطل بي التلفريك مع كارما دامعة العينين في ذلك اليوم، نحن الاثنان في صندوق زجاجي معلق في سماء بعيدة عن مصر وعن غالي، أردتها كثيرا في تلك اللحظة ومن فرط رغبتي تجمدت، فتجمد التلفريك كذلك، ليضيف دقائق ثمينة من وحدتي معها. كانت معجزة، تلعثمت وعانيت من صعوبات في التنفس، فظنت أني خائف، ضحكت فتجرأت على النظر في عينيها، يا سلام! كم كانت حلوة تلك النظرة الصافية اللاهية، ضحكة بلمعة وصدق الدموع.

أنا أخاف الارتفاعات فعلا، لكن ذلك لم يمنعني عن أبحاثي عن الكتيبة الطيبية، وسيلة الانتقال الوحيدة لبعض الأديرة القديمة والكهوف هي التلفريك، وأظن أنني اعتبرته نوعا من تهذيب النفس المطلوب حتى أني اعتدته بعد أسابيع. مع كارما لم أكن خائفا، أسباب أخرى كانت وراء تعرقي وارتباكي.

أليس هذا مضحكا؟ سخرني غالي للبحث عن إناثه، أنثى الحلم وأنثى الحقيقة، عصفورين بحجر لكني لم أشعر أبدا أني مستغل من جهته، بل العكس، فخرت لاستئمانه إياي على أخص ما يملك، كأنه أمسك يدي ليضعها على جرحه النازف ليستأنس بدفئها، غير عابئ بتلوثها أو بتلوث الجرح، ورغم تلطخي بالدم وقرفي، كنت مطوقا بجميل انكشافه أمامي، بجميل صداقته، ولم يخطر على بالي ما قالته كارما يوما، قالت أني شغال أغا لغالي، كانت سكرانة وخسرانة في المناقشة فأرادت إغاظتي ليس أكثر. لكن هذا التشبيه لم يخطر في بالي وأنا ألمس كتف كارما بذراعي لأضمها إلي وأفصلها عن الزحام حولنا لاحقا.

ذكرى طِيبة

تدور فيرينا في أراضي الثلج، عابرة بين الجبال تبحث عن رفات الأحباب، تائهة في أرض غريبة تبحث عن غرباء، تنزلق على الأرض راكبة زلاقاتها الخشب، ترزح تحت وزن طبقات من الحرامل والأغطية. كل ما فيها يوجعها، لكن الدافع كان عظيما، كان عليها أن تتأكد من الفاجعة بنفسها. قالوا أن موريس قد قتل في أجاونوم، قالوا أن الكتيبة قتلت في كل المواقع وتاه منها خبر فيكتور. منذ شهور تتبع رفات من عرفتهم، تنسال دموعها لتمتزج بالحروف القبطية في خطاب لم تبعثه أبدا لرفيقتها ريجولا

عزيزتي ريجولا، أفكر فيك دوما وفي العم موريس، أفكر في العزيز فليكس وأصلي لنا جميعا، أشكر الرب كل ليلة أنه أرسلنا إلى تلك الأرض المسكينة، كم أفتقد مهارتك الطبية وقدراتك على التواصل في هذا المكان، فلغتي لا تساعدني كثيرا للتفاهم الكامل مع السكان المحليين، كما أن يدي المرتعشتين لا تجرؤان على إجراء عمليات جراحية كالتي أنت بارعة فيها، ويعلم الرب أن هنا من هم في أشد الحاجة لمهاراتك. نحن، أنا وبقية الفتيات ندور في القرية القريبة كل يوم، ننظف شعور الأطفال ونحممهم. لن تتخيلي عزيزتي كمّ جمال أكياس القمل الصغار هؤلاء، بذهب رؤوسهم وزرقة نظراتهم، تفهمين ما أتكلم عنه، كالعزيز فيكتور تماما، هل تذكرينه؟ هذا الجندي الروماني المسيحي في فرقة عمي موريس؟ لقد خط لي العم موريس رسالة يخبرني أنني قد خطبت للجندي فيكتور المؤمن، وبالرغم من فرط حبي لخدمة الناس والرب، وإجلالي لما أنشره من كلمات الرب لتنوير الناس، إلا أنني لا أخفي عليك توقي لنهاية تلك

الرحلة حتى نعود ويلتئم شملنا على سفينة تبحر إلى طيبة الحبيبة، سفينة أكبر من تلك التي جئنا فيها لأننا سنزيد نفرا، خطيبي فيكتور ذا الشعر الذهب. ألاطف الأطفال الشقر هنا وأفكر كيف سيكون شكل أطفالنا؟ أظن أني أنجرف قليلا في التفكير في تلك الأمور، وأخاف أن تتهمني الأخوات بالكسل، سأنهي الكتابة الآن وأذهب للحياكة، الطقس مثلج والكثير من السكان المحليين لا يحيكون الملابس، فقط يلفونها طبقات عديدة مكتومة لأسابيع، لن تصدقي ما أمكننا العثور عيه داخل طيات تلك الملابس، ماذا أقول، لا يتبقى لدينا الكثير من الوقت بعد إنهاء مهامنا المعتادة، لكن السكان المحليين يحتاجوننا كثيرا، يريدوننا أن نعلمهم التطريز أيضا، لقد فتنوا بما تصنع الأخوات بالخيوط من رسوم.

لعلني أجد طريقة لإيصال تلك الخطابات إليك قريبا، أتمنى لك تمام الرضا والسعادة يا حبيبتي.

عدتُ أمس إلى توريكوم، اسمها الجديد تمبورتاخ، كدت أضيع في خطر الطرقات وبردها، رحل العديد من الأخوات سرا عبر البحر، لكني لا أستطيع الرحيل قبل أن أجد العزيز فيكتور، شيطان مذعور يحدثني أني لن أراه ثانية، فمنذ وصولي والسكان المحليون لا سيرة لهم إلا حكاية شهادة ريجولا التقية وشقيقها العزيز فيلكس، يروون كيف حملوا رؤوسهم بعد قطعها ومشوا واثقين لأعلى التل. يقسّم الناس أنهم ركعوا بلا رؤوس لله ليؤمن كل عاقل بالرب الواحد، بالألم يمجد اسمك، بالعذاب وسع الخلاص، بإخلاص أتباعك والمعجزات والدم تغسل القلوب يا ربي، سمعت أهوالا لاقتها الأخت ريجولا وعذابات شديدة، سألت عن بقطر قالوا تقصدين فيكتور؟ نعم هو فيكتور الحبيب، قالوا أن أخباره وصلت، قتل في سالودوروم، وقال آخر لا بل فتك به زملاؤه الجنود في كسانكتن.

مررت من هناك ولم يسمع أحد به، كان الجميع مشغولين يتناقلون سيرة معجزات ريجولا وفيلكس، كم هو غريب أن تتحول فتاة عادية أحببتها إلى قديسة؟ لكن الرب يعلم أنها كانت ناصعة كما أُريد للروح الطيبة أن تكون، حميدة كما تكون النفس البسيطة، مجتهدة وخدومة ككل أحباب الرب وخدامه، حبيبتي ريجولا، كيف تحملت الزيت المغلي على جلدك الزيتوني البكر، كيف حملت جسدك بلا رأس ومشيتي؟ هل تظن روحك الطيبة أني سألاقي فيكتور، أم توافقين شيطان الشؤم في صدري؟

وصلت إلى سالودوروم أخيرا، قطعت بحيرات متجمدة وجبالا، وحدها روحك الطاهرة يا ريجولا هي من ساعدتني لتخطي تلك المآزق، أقسم يا عزيزتي أني قد شعرت بالذراع القوية للعزيز فيلكس تمسك بي وتمنعني من السقوط، كما تعود أن يفعل خلال رحلتنا من طيبة الجميلة، وأقسم أنني قد شعرت بتربيتك العطوفة تغسل أحزاني وترشدني إلى خير الطرق، أشكرك أيتها الصديقة ريجولا، **أيتها القديسة الطيبة، لولاك ما وصلت إلى الأرض التي دفن فيها فيكتور وما ضُمدت جراحي.**

فانتازيا أبو العلا البشري

هل تعلمين أن غالي هو سبب وجودي هنا أيضا؟ هو يدفع تكاليف سفري.

ضحكت من وجهها المندهش، حكيت لها عن كتيبة الشهداء، وعن القديسة فيرينا التي تظهر لغالي في الأحلام، وكيف شجعني للكتابة عن تلك الملحمة التاريخية، وشحنني إلى جبال الثلج هذه لأستلهم الوقائع، أي جنون.

نقود غالي لا تعني له شيئا، هو فقط يتسلى، يعلم أني هنا. صحيح؟
كان عليّ في تلك اللحظة أن أؤكد لها صدق مشاعره الواضحة في عينيه حين يحكي عنها، لكني لم أقل شيئا.

كون كارما حبيبة غالي وكوني المثال الأعلى لغالي أو كما يردد دائما أمامها: أخويا الصغير، يفسر مقابلاتها معي وانفتاحها بالحديث عن علاقتهما. كنت أنفض رأسي من حين لآخر وهي تتكلم، وكانت تظنني أتفاعل مع حديثها، لكني كنت فقط أنفض الأفكار السخيفة التي تدعوني لتقبيل شفتيها المرتجفتين من البرد.

أظن أنني في تلك المرحلة كنت مهموما بصفتي مثالا أعلى لغالي أكثر من اهتمامي بكوني صديقه، فلم تكن عندي الشجاعة للعيش بحرية وكسر حلم النموذج الذي أحببت أن أمثله لغالي وللآخرين، نصبت نفسي النموذج الحلم الذي بتجسيده قد يتجلى الإيمان ويتحقق. كنت في شبابي أخشى أنني لو سقطت، سيسقط معي كل من تبقى في نفوسهم بقايا إيمان تتعلق بي، كم كنت ساذجا، أفرحتني فكرة أني ابن حلال فعشت كابن حلال حقيقي وفقدت في سبيل ذلك كل من أحببتهم.

وهذا بالضبط ما جمدني وهالني وسبب غضبي من نفسي، بل شجعني على قلب حياتي وتبديد قسم معتبر منها، جبني الشديد وضعف شخصيتي.

يوميات الغربة الواحدة بعد الألف

كان قلب في زنزانته الضيقة قد بات عاجزاً منذ فترة عن تحديد الوقت، الضوء لا يأتي منذ شهور إلى قلايته الساخنة، الآن يُضيع الوقت في الهذيان، «أوبرا وينفرى» تقدم الحاصل على نوبل السلام هذا العام، يظهر بتواضع وحفة ظل ويحتدم التصفيق، يراقبه الحارس

من فتحة مستطيلة ضيقة في الباب، يُحادث نفسه بعظمة ويضحك بتثاقل رأس مهتز، يصفق بأعصاب مهزوزة كمن يحيي الجموع، يبعد الحارس عينيه عن الفتحة ويدس فيها رغيف عيش ضاحكاً:

براوة ع اللي خلفتك.

قبل أن يقفل الفتحة تاركا الرغيف على الأرض أمام قلب الذي استمر في الهمهمة والضحك. يسمع الحارس الآخر الصعيدي:

ـ اللي خلفته ماتت، تفتكر هيوعى؟

ـ أمك ماتت يا جلب، يا جلب، البجية في حياتك. أمك ماتت.

لكن قلب لم يتوقف عن حديثه الممتع مع نفسه.

وكأنما كانوا

في زيورخ منذ أيام، لكم أحببت تلك المدينة، يقال أنها أجود المدن وأمتعها للعيش، أنا لا أفهم السر، لكني مرتاحة وسعيدة كما لم أكن قبلا، أتمنى لو أموت وأُدفن هنا، ولأول مرة أفكر في الموت وأبتسم، بحيرة عذبة وخَضار ومباني قديمة ذات أبراج في خلفيتها جبال مثلجة القمم، هل يحتاج المرء أكثر؟ أشعل سيجارة أخرى، مازلت أنتظر مكالمة منه، الرجل الغامض، يشيعون أنه هرب بفضيحة، انهارت بنايتان حديثتان من إنشاء شركته، كارثة. ينفي قلب ويقول أن أحدا لم يمت في تلك العمائر وأن القضية سويت بغرامة. أواجهه بأن الغرامة لم تدفع أبدا وأن غالي في حكم القانون هارب. ينكر قلب كلامي وينسحب، أضحك من قلبي، ما أغرب الإحساس بالذنب. لكن غالي هو من يحق له أن يشعر بالذنب لا قلب، على الأقل تجاه شيرين. أتلفت حولي وأشير للنادل: ڤان شو، أقول الكلمة التي تعلمتها بالفرنسية، نبيذ ساخن، وأنفث دخان سيجارتي لأعلى.

لم تكن شيرين مثالية أيضا، كانت متعلقة به كعَلَقَة صغيرة. هناك العديد من الأسباب المحتملة لذلك التعلق، عقدة غياب الأب مثلا،

فقد بدأ والدها في السفر بعد مولدها بشهور، كان يأتي كضيف غير محتمل يسيء معاملتها بعد اختفاء أعراض الوحشة وتأثير الهدايا. لا أقول أن غالي كان يسيء معاملتها، كان لطيفا كما يستطيع عاشق عابر ومُستغِل أن يكون، كما أنه استمر معها أطول مما يستغرق العشق عادة ليوصف بالعابر، كم دامت علاقتهما؟ سنة؟ ستة أشهر؟ ثلاث سنين؟ لا أحد يتذكر حتى غالي نفسه، ولما يجب عليه أن يتذكر شيرين؟ هي لم تكن بطلة قصته أبدا، كارما حجزت هذا الدور. الحقيقة أنها في تلك القصة فقط لأنها راسلت قلب ـ هي الوحيدة من فتيات غالي التي فعلت. نستطيع أن نراها كواحدة ضمن عديدات، حلوات وفقيرات في ذكائهن العاطفي وتقديرهن لأنفسهن، واحدة من عديدات استغلهن واستمر في طريقه دون أن يلتفت ليعرف ما آلت إليه أمورهن، إلا أنني أظن أن شيرين قد أرغمته على الالتفات إليها لأنها لم تصمت، لم تتركه يكمل طريقه ببساطة وروقان. لا، شيرين انفجرت لتدفع غالي أمتارا على الإسفلت، يلتفت مرغما ومتألما، ليتلقى أشلاءها في وجهه، كانت الغلاباوية الوحيدة في حياة غالي.

يقرأ قلب مندهشا خطاب شيرين الطويل غير المتوقع. تراسلني وتطلب مني إعلان إسلامي! ولا خطاب واحد من كارما، يضحك ساخطا ويقرأ كيف تحولت حياة الفتاة المسكينة. يرفع وجهه عن الخطاب ويفكر، يحاول استرجاع ملامح وجهها، دائرية وحسية. آه، كانت فاتنة تلك البنت. لم يعجبه أن يُطمر هذا البهاء بالأسود، ولم تزعجه دعوتها للهداية؛ كلاسيك. كل الناس يريدون هداية كل الناس في هذه الأيام حتى بات أمرا لا يجب أن يؤخذ على محمل شخصي. أن يتقدم منك أحدهم، بلا أي سابق معرفة أو إنذار، يحييك بظُرف ويعلمك أنك ضال وأنه أقرب منك إلى الله، وأنك ستعذب بأعمالك التي لم يتابعها كفاية الغريب الباسم ليقيّمها. لكنك ستتقبل فكرة أن مظهرك يوحي إليه بالخطيئة، تشكره بشدة وتتبرع لدينه الأفضل من دينك وتمضي في طريقك بلا ضغينة، وبلا أسى.

كان خطابها حزينا، عليك اللعنة يا غالي، منك لله. تمتم قلب سائلا الله في قلبه ألا يستجيب.

الخطاب الوحيد الذي هُرب لقلب داخل محبسه كان من شيرين صديقة غالي، فتح رغيف خبز ليرى قصاصة ورقية. لم يمسك ورقا منذ زمن طويل، يتلفت حوله ويعطي ظهره للباب مخفيا كنزه الثمين، كانت الكتابة صغيرة ومستوية. لم يفهم الكثير أو يعرف من أرسل تلك الرسالة لأنها نسيت أن تكتب اسمها. لم تسبب له الرسالة وقتها إلا موجة عالية وعنيفة من الضحك، عكس إحساسه تماما وهو يقرؤها اليوم، أو يقرأ ما نقلته من بقاياها بعد أن قطعها الحارس في تفتيش لاحق.

تاريخ الخطاب قديم. يعرف أبي من خطابات لمياء المستمرة حتى اليوم أن شيرين تزوجت من أمريكي ذي تاريخ جهادي، أنجبت منه ثلاثة أطفال وتعيش مع ضرتها الأمريكية في تناغم. علاقة الأختين لم تعد كالسابق، فلمياء ترى أن شيرين استبدلت بغالي الأناني آخر ملتح، لكنها ضحت بنفسها في الحالتين. كلتا الأختين تعيش في قارة مختلفة، على المستويين الفيزيائي والفكري. كتبت لمياء في إحدى رسائلها لقلب:

«هدف الدين بالنسبة لي هو تحقيق معيشة أفضل للجميع دون تمييز، أما بالنسبة لشيرين فالهدف هو التميز عن أتباع باقي الديانات؛ لم يعد انتماؤها للبشرية يكفيها، يرضيها أو يشرفها، هي تريد الانتساب لمجموعة منتقاة، مجموعة أقل عددا وأكثر نقاء وطهارة، مجموعة أعلى مصطفاة، شعب الله المختار. هي تحسب نفسها نواة ذلك الشعب المختار بما كسبت أيديها، بتعبها وكدها لا بفضل الله، صدقني أنا لا أبالغ ولكن حجم الكِبر في قلب تلك المتأسلمة يناطح كبر أبي لهب، نحن بالكاد نتحدث على أي حال، لكننا ما زلنا نتشاجر، الشجار الأخير نشب لقولي أننا جميعا متساوون، صدقني لا تزعجها حقيقة في

الكون قدر حقيقة أننا متساوون، جميعا متساوون؟ لا، لسنا كذلك، فمن يتبع التعاليم ويبذل الجهد أرقى وأرفع، المؤمنون فقط. هم الذين يستحقون الرحمة والسلام والأخلاق، أما الآخرون الضالون، فهم إما غير محسوبين ولا يجب التحدث عنهم أو معهم، أو يجب علينا توجيه سبابتنا المؤمنة المتهمة إلى صدورهم: أنت، أنت لابد أن تحرق في النار لأشعر بانتصاري، لابد أن تتعذب لتكتمل جائزتي وأشعر بلذة إيماني وفائدة ما حرمت نفسي منه. شيرين لا تحب حياتها وتبحث عن أسباب تقنعها أن لا بأس في ذلك، وأن من يحبون حياتهم هم عصاة بالتأكيد، لأن الدنيا لا يوجد فيها غير الشرور. حاولت مرارا تغيير عقيدتها المعوجة تلك، لكن مناقشاتي معها باتت مقطوعة تماما وغير بناءة، تماما كما كانت قبل تأسلمها، مازالت لا ترجع للأسباب ولا تعاين العلل، مازالت ترجع كل شيء إلى قوة خفية لا سيطرة لها عليها، تقيم نفسها كبشرية ضعيفة لا تملك غير الدعاء، في الماضي كان الحب أو الحظ، واليوم هو الله الذي لا تفهمه أو شيوخ لا أعرفهم ولا يعرفونها. كلما تحدثت عن إعمال العقل أو عن استفتاء القلب، ترد بأن إعمال عقل خال من العلم الكلي المنشود لا يثمر فكرا صحيحا، وأن استفتاء قلب لا يغمره نور الإيمان عمل لا يدل على خير، ماذا أقول يا قلب؟ توقفت عن مناقشتها في النهاية، كأني أناطح حائطا إسمنتيا، ربنا يهديها.

لم يخف قلب دهشته حين أرجعت له أوراقه مرتبة ومرقمة ومرفق بها ملحوظاتي وتفاسيري الخاصة، التي تسد بعض الفجوات في ذاكرته التي فقدها في المعتقل. أمسك ملفا مكتوب عليه شيرين:

ـ إشمعنى؟ سأل ملوحا بالملف.

ـ هي صاحبة الخطاب اياه في السجن.

أخرج إلى الشرفة، ينظر قلب إلى الملف في تشكك ويقلب فيه، يمشي ورائي ملحا:

أزاى عرفتي؟

حان دوري لأميل له رأسي وأغيظه:
دا شغل صحافيين بقى ما يفهموش الأدباء.
إنت مش قلتِ انك بتكتبي رواية؟
يبتسم ابتسامته التي أحبها، أخلع هدومي وأجري لبركة السباحة صارخة:
هتلاقي عندك كل الكلام، حوشه، أنا عن نفسي هاغطس في الشمس شوية، عايزين نروح أسيوط.
نروح لمين هناك؟ ما خلاص، بيتنا اتباع، وبيت أبو غالي اتباع، واحنا لبسنا المايوه واتنجرنا. سويسرا غيرتك.
كلنا بنتغير يا قلب، كلنا بنتغير. أتركه وأقفز.

أقوالهم المأثورة

- لولا تأكدي أن والدك ليس شاذا، ما آمنت أنه قديس. **غالي** يحدثني عن قلب
- يكتب الرجال كي يسمعوا العالم صوتهم، وتكتب النساء لخلق عوالم قد تجذب رجالا مشغولين عن سماعهن بالقراءة. **كارما**
- الأوراق لا تتسخ بالكتابة. **قلب نجيب**
- الصداقة بالمراسلة هي تأكدك أنك حتى في أكثر لحظات مناقشاتك احتدادا، لن تغمر وجه محدثك بالرذاذ. **جونفيف**
- ينتشر التعذيب في مجتمع ما، حين يصبح الموت فيه رمزا وحيدا للسعادة. **قلب**
- كارما لم تدخن أبدا السجائر الكليوباترا. **أنا**
- كل الحيوات كمسار تلفريك يتكرر، من سفح لقمة ومن قمة لسفح، وحدهم الأنبياء والمحظوظون ينتقلون بين قمتين. **قلب نجيب**
- الأبوة هي أن تكف عن إقناع والديك أنك ناجح لتتفرغ لإقناع أبنائك. **غالي**
- يصبح الاختفاء أمنية حين يكون من غير المتحمل رؤية الآخرين. **لمياء**

شعرت بشيء من الامتنان للضابط الشاب الذي سلمني بريدي، امتنان يشبه ذلك الذي يكنه الوليد للقابلة المخلصة. تجمدت للحظة أمام خطاباتي المخزنة على مدار سنوات. وبعد تربيتة على كتفي ابتسمت بدلا من الصرخة التي ترددت داخلي، حياتي أمامي مرتاحة على كفه كحياة أخرى موازية مرت، كحلم طويل لم أشاهده بالكامل، فاتت سنة وراء سنة، وها أنا أقف أمام بوابة عرض ثان لكل ما افتقدته، أو ما ظننت أني فقدته. كانت تلك الأظرف المتربة المكسرة جزءا ثمينا لم أعشه من حياتي لكنه انتظرني وفيا وحبيسا مثلي لأحرره ونرحل معا إلى المستقبل.

أمسكت مكاتيبكم المفتوحة والمكومة في يد الضابط بذهول من يمسك بيده خمسة عشر عاما، أو كنن يمسك بعشر سنين، لا، لا، هم فقط خمس أو سبع. رأسي ثقيل وذاكرتي ملساء لم يعلق بها شيء. أنظر في عيني الضابط كمن يحتاج لدعم ما، مساندة ما من شخص يدرك جلال الموقف. تنخفض كفي التي تحمل الرسائل كأني أزنها، ثقيلة كنيزك.

نبض

لوحة الغلاف للفنان Escher